

جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

الصديق أبو بكر

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل

طبعة مدرسية مختصرة

الجهاز المركزي للكتب الجامعية
والمدرسية والوسائل التعليمية
طبعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد
موجه اللغة العربية بوزارة التعليم



جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

الصديق أبو بكر

لو كنت متخذاً من العباد خليلاً
لاتخذت أبا بكر خليلاً.
حديث

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل

طبعة مدرسية مختصره

الجهاز المركزي للكتب الجامعية
والمدرسية والوسائل التعليمية
طبعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

قام باختصار هذه الطبعة من الأصل
وشرح كلماتها ، وضبطها ، وأعد المناقشة
فرج محمد ندا
خبير المناهج والكتب بالتعليم الثانوى

تقـــديم

يؤرخ العالم الإسلامى كله بهجرة النبى العربى من مكة إلى المدينة . والسر فى اختيار هذا الحادث العظيم مبدأ للتاريخ الإسلامى أنه مبدأ نصر الله رسولَه على الذين حاربوا دعوته فى البلد الحرام ثم مكروا به ليقتلوه . وكان الصدّيق أبو بكر هو وحدَه صاحبَ رسول الله فى الهجرة . ولما مرض رسول الله مرضَه الأخير ، فلم يقو على الصلاة بالمسلمين ، أمر أبا بكر أن يقوم فى الصلاة بهم مقامه ، ولم يرض أن يقوم عمر بن الخطاب هذا المقام .

اختياره فى الهجرة والصلاة بالمسلمين :

اختار النبى أبا بكر ليصحبه فى الهجرة ، وليصليَ بالمسلمين مكانَه ، لأن أبا بكر كان أولَ المسلمين إيمانًا بالله ورسوله ، وأكثرَهم فى سبيل إيمانه تضحيةً ، ولأنه حرص منذ أسلم على معاونة النبى فى الدعوة لدين الله وفى الدفاع عن المسلمين ، ولأنه كان يؤثر النبيّ على نفسه ، ويقف إلى جانبه فى كل موقف ؛ ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن أحب الناس إلى الناس وأكثرهم إلفًا لهم ومودّة .

لا عجب ، وذلك بعض شأنه ، أن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله . ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصر الإسلام وينشر دين الله فى الأرض ، فيكون التأريخ له مبدأ التأريخ للإمبراطورية الإسلامية التى امتدت من بعدُ فى الشرق وفى الغرب ، إلى الهند والصين فى آسيا ، وإلى مراكشَ والأندلس فى أفريقية وأوربا ، والتى وجَّهت الحضارة الإنسانية وجهة لا يزال العالم متأثراً بها إلى اليوم .

ما أغرانى بالتفكير فى الدراسة :

جال بخاطرى ، منذ فرغت من كتابىَ «حياة محمد» و «فى منزل الوحى» ، أن أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وفى أسباب عظمتها وانحلالها . وإنما أغرانى بالتفكير فى هذا الأمر أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أثراً لتعاليم النبى العربى وسنته . أما وقد درست حياته صلى الله عليه وسلم ، ورأيت نتائجَ هذه الدراسة جديرةً بأن تهدى الإنسانية طريقَها إلى الحضارة التى تنشدها ، فإن فى دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدراً للتأسّى[1] بالرسول وتعاليمه ، وما ييسر لنا حظًّا جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرةِ الجلالِ يزيد العلماء اقتناعًا بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوى عليه من حقائق نفسيةٍ ، وأخرى رُوحية ، ما يزال العلم يقف بوسائله حائراً دونها ، لا يستطيع أن يثبتها بأدلته ، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيَها ، وهى من بعدُ قِوامُ سعادة الإنسان فى الحياة ومقوِّمُ سلوكه فيها .

وأغرانى بهذا التفكير كذلك ما أعتقده من أن معرفة الماضى هى وحدها التى تطوّع لنا تصويرَ المستقبل وتوجيهَ جهودنا أثناءه[2] إلى الغاية الجديرة بالإنسانية . فالماضى والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها . ومعرفةُ الماضى هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ، ولتنظيم المستقبل ؛ كما أن معرفة الطبيب ماضىَ مريضه خيرُ وسائل التشخيص والعلاج .

والحاضر الذى تمخضت عنه الإمبراطورية الإسلامية يتناول بنوع خاص كل الشعوب التى تتكلم العربية ، وتؤمن لذلك بأنها تمُتُّ[3] لأهل شبه الجزيرة بصلة ونسب . ومصر مركز الدائرة من هذه الشعوب : تمتد حولها فلسطين وسوريا

---

(١) التأسى به : اتخاذه أسوة وقدوة .

(٢) الأثناء : مفردها ثِنْى وهو الوقت .

(٣) تمت : تتوسل ، وترتبط .

والعراق إلى الشرق ، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش إلى الغرب . ويتناول هذا الحاضر بنوع عام جميع الشعوب التى تدين بالإسلام فى آسيا وأفريقيا وأوربا . لا جرم وماضى الإمبراطورية الإسلامية يربط على الزمان هذه الأمم والشعوب كافة أن تكون دراسته موضعَ عنايتها جميعًا ، وأن يرى كل منها صورته إلى أربعمائة وألف سنة خلت ماثلة فى هذه الدراسة ، وأن يتعرف من طريقها الأسباب التى أدت إلى ما أصاب هذه الصورة من شَوْهٍ[1] أو فساد ، وأن يلتمس الوسيلة من طريق هذا التعرف لرد الصورة إلى جلالها الأول وبهائها المضىء .

وإنى لأفكر فى هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إلىّ جماعة ممن أبْدَوْا الرضا عن «حياة محمد» أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث ، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين فى العهد الأول تراجمَ مستفيضةً ، أسجل فى كل واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال . ولئن أرضى مطلبُ هؤلاء الأصحاب نفسى وتملق رضاىَ عنها لقد أشفقت عليها مما طلبوا . فهو أمر يقصر دون إتمامه الجهدُ ، وتنوء[2] بإحسانه جماعة متضافرة .

ما جعلنى أبدأ بسيرة الصديق :

قلت : ومالى لا أبدأ بسيرة الصديق ؟! لقد كان أبو بكر صفى محمد وخليله ، وكان أكثر أصحابه اتصالا به . وكان لذلك أكثر تتبعا لتعاليمه وامتثالا إياها وهو بعد رجل رقيق الخلق ، رضى النفس ، ثم إنه إلى رفقه ورقته ، هو الخليفة الأول ، وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوضوا ركنه .

فهذا الرجل الوديع السمح الأسيف[3] السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس فى بؤسه ، والضعيف فى ضعفه . تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال وفى إبراز ملكاتهم ومواهبهم . وفى دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .

أين كانت هذه العبقرية التى انطوت عليها نفس أبى بكر أثناء حياة الرسول ؟

عدت بالذاكرة إلى سيرة أبى بكر قبلَ خلافته ، واستحضرت مواقفه من رسول الله ، فبدت لى فى ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت إلى جانب عظمة الرسول وجلاله ؛ لكنها برزت أمامى بكل بهائها وجلالها حين قَرَنْتُ صاحبَها إلى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين . فأين مواقفُهم ، على جلالها وعظمتها ، من مواقفه أول الرسالة ، وحين كانت قريش تنال رسول الله بالإساءة والأذى ، وحين كان حديث الإسراء . وأول الهجرة ، وفى مكافحة دسائس اليهود بيثرب ؟ ! ! إن كل موقف من هذه المواقف لكفيلٌ وحدَه بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه فى كتاب الخلود . وعظمة أبى بكر مع ذلك هى العظمة الصامتة التى تأبى أن تتحدث عن نفسها ، لأنها عظمةُ الروح وعظمةُ الإيمان الحق بالله وبما أوْحى إلى رسوله ﷺ .

حسن رأيه وبعد نظره :

إن رواية الحوادث فى عهد أبى بكر تشهد له بحسن الرأى وبعد النظر . فهو حين يفكر فى غزو الفرس وفى غزو الروم ، قد رأى فى مبدأ المساواة الذى جاء الإسلام به قوةً جديدةً لا تستطيع فارس ولا تستطيع بُزَنطية أن تواجهها . فهذا المبدأ جدير بأن تهوّى إليه نفوس الناس جميعاً فى هاتين الإمبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى

---

(١) شوه : مصدر شاه بمعنى قبح .
(٢) تنوء به : يثقلها حمله .
(٣) الأسيف : الرقيق القلب البكاء .

التفاوت بين الناس ليكن لكل من الإمبراطوريتين ما تشاء من عَدَد وعُدّة ؛ فإن فكرة المساواة والعدل أقوى من كل قوة . والحكم القائم على أساس هذه الفكرة جدير بأن يكسب الناس إليه ما كان الإنصافُ أساسَه . لذلك لم يصدّ أبا بكر عن غزو العراق وغزو الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه في الرأى ، بل أمر بهذا الغزو مطمئنًا إلى أن الله معينه وناصره . ولذلك نصح إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسكوا بالمساواة وبالإنصاف والعدل لا يحيدون عنها قِيدَ أنملة[1] .

ما يتميز به عهده :

عهد الصدّيق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو ، على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده ، يمتاز بطابع يشخّصه . فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ، أكمل الله به للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلامَ دينًا . وعهد عمر كان عهدَ تنظيم للحكم الذى استقرت قواعده ، وللإمبراطورية التى تفتحت أبوابها . أما عهد أبى بكر فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التى تربط بين هذين العهدين ، وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس فى تاريخ الحكم واستقراره ، وفى تاريخ الأديان وانتشارها .

ولم تكن حروب الردة غزواتٍ اشتبك فيها بضع مئين من خصومه ، بل كانت بعضها طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب ، وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء ومن أولئك ، ثم كان لها فى تاريخ الإسلام أثرٌ حاسمٌ . ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلادَ العرب ، ولما قامت الإمبراطورية الإسلامية . ولو أن جيوش أبى بكر لم تنتصر فى هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمرّ[2] ، ولتغير فى الحالين مجرى التاريخ فى العالم كله .

آثار انتصاره فى حروب الردة :

فلولا انتصار أبى بكر فى حروب الردة لما بدأ غزو العراق وغزو الشام ، ولما سارت جيوش المسلمين مظفَّرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضها ، ولتُحِلّ الحضارة الإسلامية محل حضارتيهما . ولولا حروب الردة ، واستشهاد من استشهد من الصحابة لإحراز النصر فيها ، لخيف ألا يسارع عمر فيشير على أبى بكر بجمع القرآن . وهذا الجمع هو الذى أدىّ إلى أن يظل كتاب الله الكريم أساسًا ثابتًا لكلمة الحق ، ودِعامة متينة للحضارة الإسلامية .

اتصال عظمته فى الخلافة والصحبة :

كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التى استفتحت عهده ، وأن يثبت لها ويتغلب عليها ، وأن يبدأ التمهيد للفتح وللإمبراطورية وهذه الصعاب قائمة ؟ لقد كان لصفاته الذاتية أثرٌ كبيرٌ فى ذلك لا ريبَ . لكن هذه الصفاتِ وحدَها ما كانت لتبلغ به ما بلغ لولا صحبتُه الرسول عشرين سنةً كاملةً . ولذا يُجمع المؤرخون على أن عظمة الصدّيق فى خلافته تتصل بعظمته فى صحبة الرسول أوثق اتصال . فهو قد أشرب أثناء هذه الصحبة روحَ الدين الذى جاء به محمد ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملةً إدراكَ إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب . ومما أُشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالبٌ ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده . هذه حقيقة روحية أدركها كثيرون فى عصور شتى ، لكنهم أدركوها بعقولهم . أما أبو بكر فأدركها بقلبه ، ورآها بعينه ماثلةً فى رسول الله ﷺ وفى عمله .

---

(١) قيد أنملة : قدر أنملة .

(٢) أدهى وأمر : أشد دهيا ، وأكثر مرارة .

أثر التأسى فيه :

الإيمان الصادق بالحق هو الذى دفعه ليخالف أصحابه فى أمر المرتدّين ، ويُصرَّ على قتالهم وإن خرج إليهم وحده . وما له لا يفعل وقد رأى النبىَّ يقف وحيداً يدعو إلى الله بمكةَ فيخالفُه أهل مكة جميعًا ، ثم يغرونه بالمال والملك وعظمة الجاه ، ثم يحاربونه يبتغون بذلك أن يصدوه عن الحق الذى يدعو إليه . فلا يفتُر[1] عن أن يقول : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ؛ على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك فيه ، ما تركته ! » .

القوة الروحية للإيمان :

الأسوة الروحية التى التمسها أبو بكر فى رسول الله ، والتى جعلت للمسلمين الغَلَب على المرتدين من سائر العرب ، قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعاً حَمِيَّةً سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لاغالب لهم من دون الله ، وحببت إليهم الاستشهاد فى سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كلُّ نصر .

هذه حقيقة روحية استلهمها الصديق من تأسيه بالنبى ، فجلتها لنا أعمال المسلمين فى خلافته وبتوجيهه على نحو من الوضوح يجعلنا نلمسها وكأنها أمرٌ مادى تقع عليه الحواس بمقدار ما تتمثله الروح ونحن نلمس هذه الحقيقة الروحية فى حروب الرّدة كما نلمسها فى فتح العراق وفى فتح الشام . فلولا هذا الإيمان ما استطاع المسلمون ، على قلتهم ، أن يُتموا فى عهد الخليفة الأول ما تم من جلائل الأعمال ، وما مهد للإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

الحقيقة الاجتماعية :

وقد استلهم أبو بكر من تأسيه بالرسول إلى جانب هذه الحقيقة الروحية ، حقيقة اجتماعية بعيدة الأثر فى حياة الأمم . فكل أمة تعتزّ بنفسها ، وتطمئن إلى قوتها ، وتشعر بأن عليها رسالةً واجبةَ الأداء للعالم ، وبأن العالم يجب أن يسمع هذه الرسالة – مثل هذه الأمة لا يقف فى سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدها عن أداء رسالتها قوةٌ من القوى .

وتضافر هاتين الحقيقتين ، الرُّوحية والاجتماعية ، قد كان فى كل العصور والأمم أساسًا لفوز الشعوب التى تندفع متأثرة بسلطانهما ولنجاح الرسالة التى تدعو هذه الشعوب لها .

والأمر كذلك بخاصة إذا قامت هذه الرسالة على أساس من الدعوة إلى نبذ الظلم ، والحرص على عدل قِوامُه المساواةُ الصحيحة بين الناس .

الإسلام دين المساواة :

أدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام فى صفاء جوهره دين مساواة بين الناس جميعًا . فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم ، وإنما وجهت إلى الناس كافة . وقد اصطفى رسولُ الله فى حياته موالىَ رفعهم إلى أعز مكانة وأسماها ، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسى كان من خاصّته المقربين . وزيد بن حارثة ، مولاه الذى اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه ، كان القائد فى غزوة مؤتة كما كان على رأس أعمال كثيرة قبلها . وأسامة ابنه هو الذى عقد له الرسول قبيل مرضه الأخير لواء جيش يضم جِلّة[2] المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ؛ وقد أقر صلى الله عليه وسلم بازان الفارسى على حكم اليمن . ولم يكن الناس يتفاوتون عند رسول الله لعروبتهم ولا لمكانة قبائلهم . وإنما كانوا يتفاوتون بأعمالهم ، إذ فاضل بين الناس بالتقوى ، وإذ جعل جزاءهم رهنًا بعملهم . وإذ رفع بعضَهم فوق بعض درجات بهذا

---

(١) يفتر عن : يقصر . ويسكن ويهدأ .

(٢) جلة : عظماء . والمفرد جليل .

العمل وهذه التقوى ولا جَرَمَ[1] أن يتخذ أبو بكر من هذه المساواة الإسلامية بين الناس وبين الأجناس سنّته ، فتكون القوة التى تنهزم أمامها جيوش الفرس وجيوش الروم .

هذه المبادئ الجوهرية التى قامت دعوة النبى العربى على أساسها ، والتى أدركها أبو بكر أدقّ الإدراك بإلهامه لما كان من صحبته رسول الله وتشبعه بتعاليمه ، هى التى طوّعت للصدّيق أن يذلل ما استفتح عهدَه من صعاب وأن يتغلب عليها ، وهى التى أسرعت بالامبراطورية الإسلامية إلى أنحاء العالم وأظلت أممًا كثيرة منه بلوائها . ولقد ظلت هذه الأمم أجيالاً متعاقبة ناهضة بعبء الحضارة فى العالم ، ثم أدركها الهَرَم الذى يدرك الأمم والإمبراطوريات ، ثم تولتها السِّنَة[2] الطويلة التى تقابل موت الأفراد .

أسباب انحلال الدولة الإسلامية :

أفيرجع هذا الهَرَمُ ثم هذه السِّنَة الطويلة إلى أن المبادئ الجوهرية تبين فسادها ، أم يرجعان إلى أن الأمم التى انحلّت عن الإمبراطورية الإسلامية جحدت[3] هذه المبادئ وأخذت بنقيضها فأصابها الهرم والاضمحلال بصنيعها ؟ ! ذلك كل تاريخ الإمبراطورية الإسلامية فى قيامها وعظمتها وتدهورها . وهو تاريخ جدير بأن يدوّن على طريقة من البحث العلمى الوثيق الذى لا يعرف التعصب ولا يرضاه ، والذى يرمى إلى تحليل الحوادث وردها إلى أسبابها .

لا أرانى فى حاجة إلى أن أقول إن هذا الهَرَمَ وهذه السِّنَة يرجعان إلى جحود الأمم التى انحلّت عن الإمبراطورية الإسلامية للمبادئ الجوهرية التى قامت هذه الإمبراطورية على أساسها ، مبادئ الإسلام فى صفاء جوهره . ذلك أمر يلمسه المحقق المنصف لتاريخ هذه الإمبراطورية ويراه فى أطواره المتصلة منذ بدأ الخلاف بين المسلمين من أهل شبه الجزيرة إلى أن جسَّمت الفُرْقة بين العرب والعجم شقة هذا الخلاف وفتحت به الأبواب واسعة للتدهور والانحلال .

الخلافة والصحبة :

لم يكن عمل الصدّيق فى خلافته أقلَّ جلالا من صحبته رسول الله . بل إنه كان فى عهد الرسول ثانىَ اثنين ، أولهما صفىّ الله لنبوّته ومن خصّه الله برسالته وأوحى إليه كتابه بيّناتٍ من الهدى والفرقان . فالعبء الذى حمله أبو بكر أيام الرسالة كان عبء التابع المؤمن الذى لم تتلجلج قوة إيمانه بالله ورسوله . أما العبء الذى حمله بعد أن اختار الله رسوله إليه فحمله على أنه أولُ رجل فى المسلمين وخليفةُ رسول الله بينهم . لم يكن فيه تابعًا يدلى بالمشورة ، بل كان متبوعًا يشير أصحابه عليه كما كان يشير هو ومن معه على رسول الله . وقد حمل هذا العبء بإيمان وأمانة وصدق ، جزاه الله وجزى المسلمين عنه أحسن الجزاء . فإذا كان صدق أبى بكر فى صحبة رسول الله من أسمى مظاهر العظمة الإنسانية القائمة على دعامة متينة من الإيمان السليم ، فتجرُّد أبى بكر فى خلافته للدفاع عن دين الله وللدعوة إليه ولإقامة الإمبراطورية الإسلامية لا يقل فى جلال سموه عن صحبته الرسولَ وإيمانِه الصادقِ به وبكل ما أوحاه الله إليه . وتاريخُ خلافته جديرٌ لذلك بأن يفصّل أدق التفصيل .

جهود المستشرقين ومؤرخى المسلمين .

على أن الدراسات التى تمّت والكتب التى وضعت عن أبى بكر وعهده فى العصور الأخيرة كانت أدنى إلى الدقة

---

(١) لا جرم . لابد .

(٢) السنة : النومة .

(٣) جحدت المبادئ : تنكرت لها وتخلت عنها .

والإنصاف . ومن الحق عليّ أن أشيد بما كان للمستشرقين من فضل السبق إلى هذه الدقة وإلى هذا الإنصاف ، على تحيز بعضهم تحيزا دفعت إليه العاطفة الدينية .

أما وقد ذكرتُ جهودَ المستشرقين ، فمن الحق عليّ أيضا أن أذكر جهود المؤرخين المسلمين والعرب ، وما كان من إنصافهم عهدَ الصدّيق ومحاولتهم الدقة فى أمره .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفق العلماء والباحثين لمتابعة البحث فى حياة الصدّيق وفى عهد خلافته ، حتى تتم ببحوثهم الصورة التى حاولت أن أجلّوها فى هذا الكتاب . وأحمد الله لما صادفنى من التوفيق فيما حاولت . من الله الهدى ، وبه التوفيقُ ، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه .

محمد حسين هيكل

أبو بكر فى حياة النبى

نشأته الأولى :

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبى بكر الأولى ما يعاون على تعرُّف شخصيته فى هذا الطَّور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه لا غَناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكر اسميهما ، وذكر ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلا من كبار المسلمين له فى حياة أبية أثر .

قبيلته والزعامة فيها :

وأبو بكر من قبيلة تَيْم بن مُرّة بن كعب ؛ فهو يلتقى فى نسبه بالنبى ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص . وكانت الديات والمغارم لتيم بن مرة . وقد آل أمر الديات فى الجاهلية إلى أبى بكر حين اشتد ساعده فتولى الزعامة فى قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئًا منها فسأل قريشًا صدّقوه وأمضَوْا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيرُه خذلوه[1] .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل . ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها .

اسمه ولقبه وكنيته :

لهذا لم يقف مؤرخو أبى بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ، وإنما بدءوا روايتهم بذكره وذكر أبويه ، ثم تخطَّوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمَه عبدُالله بنُ أبى قحافة ، وأن أبا قحافة أبوه واسمُه عثمانُ بنُ عامر ، وأن أمَّ الخير أمُّه واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . ورُوى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبدَ الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسولُ الله عبدَ الله . أما كُنية أبى بكر التى لزمته حياتَه فلم تذكر الرواياتُ سببها ، وإن ذكر بعضُ المتأخرين استنباطًا أنه كُنِىَ بها لأنه بكّر بالإسلام قبل غيره .

صباه وشبابه :

وقد عاش أبو بكر فى طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطَّى الصّبا إلى الشباب عمل فى التجارة بزّازًا[2] يبيع الثياب ، فوُفِّق كل التوفيق ، وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزيده ربحًا وثراء .

خلقه :

ولعل شخصه وخلُقه كانا من أسباب نجاحه فى هذه التجارة ، فقد كان رجلاً رضىَّ الخُلُق ، رقيق الطبع ، رزينا[3] ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه فى

---

(١) خذلوه : تخلوا عنه .

(٢) البَزّ : نوع من الثياب ، والبزاز : بائعه .

(٣) الرزين : الحليم الوقور ، والأصيل الرأى .

كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمراً فى جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكّة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسَّابة(١) ، حسنَ الحديث ، لطيف المعاشرة .

حياته بمكة واتصاله بمحمد :

كان يعيش بمكة فى الحى الذى تعيش فيه خديجةُ بنتُ خُويلد ، ويعيش به التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم فى رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن . ومُقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوج محمد من خديجةَ وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصغُر محمداً بسنتين وأشهرُ . وأكبر الظن أن التقاربَ فى السن والاشتراكَ فى العمل والاتفاقَ فى سكينة النفس ورضا الخلق ، وفى الرغبة عما تُزاول قريش من عادات وعقائد ـ أكبر الظن أن هذا كلَّهُ كان ذا أثر فى مودة محمد وأبى بكر مودةً يختلفُ الرواة إلى أى حد توثقت عُرَاها قبل أن يُبْعَثَ محمدٌ رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأنّ توثُّق عراها كان ذا أثر فى سبق أبى بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعدُ ، وأن مودَّتهما الأولى كانت مودّة جوار وتوافق فى الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأى يؤيدونه بما عُرِف من حب محمد العزلة والانقطاعَ عن الناس سنواتٍ طويلةً قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحَد ؛ ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعىَ اللهِ . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين ، ثم زادها صدق أبى بكر فى الإيمان بمحمد ورسالته متانةً وقوة . كانت عائشة تقول : «ما عَقَلْتُ أبَوَىَّ إلا وهما يدينان الدِّين . وما مر علينا يوم قطُّ إلا ورسول الله يأتينا فيه بُكْرةً وعشيَّة » .

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمدًا فى الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وحبُّهم الجلوسَ إليه والاستماعَ لحديثه ، ذا أثر فى استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة .

قبول الدعوة ، وسببه :

قد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر فى قبول الدعوة إلى الإسلام أولَ ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من بعد : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوةٌ ونظر وترددٌ ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكَم(٢) حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمداً ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له . بل أكبر العجب أن محمداً قص عليه حديث حِراء والوحى الذى نزل عليه ، فلم يتردد فى تصديقه . وإنما يزيل عَجَبَنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حمقًا ومَيْنًا(٣) ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يَدَع فى نفسه موضعًا للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى فى هذا الذى قصّه الرسول عليه ما يتفق وموجبَ الحكمة وما لا يتردد العقل فى تصديقه والأخذ به .

---

(١) نسابة : عالما بالأنساب ، والتاء للمبالغة .

(٢) ما عكم : ما تحبس وما انتظر ولاعدل

(٣) مينا : كذبا ، والجمع ميون .

جرأته فى الإسلام والدعوة إليه :

على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأةَ أبى بكر فى إقدامه ومجاوزته المعروفَ للناس فى موقف دعا غيْره ممن وُجُهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والتماس الأناة والروية . وجرأةُ أبى بكر وإقدامُه أجدرُ بالتقدير لأنه كان تاجرا تقتضيه تجارته الحساب لصِلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف مألوف آرائهم وعقائدهم خشية ما يجره ذلك على معاملاته من سيىء الأثر . فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها مينًا باطلا وحديثَ خرافة ، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضه التماساً للعافية ، وجرًّا للمنفعة ، وحرصًا على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد من هذا النفاق فى سواد الناس وعامتهم ما تجده فى الخاصة والمثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة الناس والإبانة لهم عن وجه الحق فى الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبى بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضعَ التقدير غايةَ التقدير ، والإعجابِ غايةَ الإعجاب .

وقيام أبى بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فلعل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقنع بتصديقه سرًّا ولا يظهر الناس على شىء من أمره حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يُظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعوَ إلى الله ورسوله وأن يصلَ من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهدَ للناس به إلا فيمن سَمَت أنفسُهُم إلى حيث تقدّرُ الحقّ لذاته ، وترتفع به فوق منافع الحياة ، وترى فى تأييده والدعوة إليه ما يُصَغِّر من شأن الدنيا وعَرَضها[1] وإن عظُم . ولقد كان ذلك شأن أبى بكر فى صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن تُوُفِّىَ أبو بكر من بعده .

الصديق أول من أيد الله به دينه :

إنى لأذكر ما كان لإسلام حمزةَ بنِ عبد المطلب وعمرَ بنِ الخطاب من أثر فى توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أيّد الله بهما دين الحق ، لما عُرِف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تُخيف من يناوئهما[2] ، ثم أذكر الصدّيق وإسلامه فلا أتردد فى القول بأنه أول من أيّد اللهُ به دينَه . فهذا الرجل الرضىُّ النفسِ ، الوديعُ الخلقِ ، الرقيقُ الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمرأى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذى جاء به من عند الله مبلغًا لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان فى الحياة شىءٌ ! وهل كسلطانه فى الحياة سلطانٌ ! والذين يحسَبون أن قوة البطش وسلطانَ البأس لها فى الحياة الأثرُ البالغُ يتورطون فى أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعيةُ إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس فى ألم البؤس والضعف وسائلَ دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غايتها ما تريد ؛ لأنها تندمج فى غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على

---

(١) عرضها : متاعها الزائل .

(٢) يناوئ : يعادى .

غِرارها[١] . ولقد كان ذلك أثره - رضى الله عنه - فى السنوات الأولى من الدعوة المحمدية ، وبقى ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

إنفاقه من ماله لحماية الضعفاء :

لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه وإقناعهم بها . ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه ووداعة خُلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يرهقونهم به من أذى وتعذيب ، بل كان ينفق من ماله ، وكان يصطفى بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء[٢] . وحسبك أن تعلم أنه كان له يومَ أسلم أربعون ألف درهم مدخرةٌ من ربح تجارته ، وأنه أقام بعد إسلامه يتجر فيجنى وافر الربح ، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كلِّه غيرُ خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد ، فقد ذهب فى سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا ، فعذّبهم سادتهم بإسلامهم ، وأذاقوهم الهُون[٣] ألوانا .

اشترى كثيراً من الموالى الذين يُعَذَّبون ، رجالا ونساء وأعتقهم .

مواقفه فى مناصرة النبى :

على أن أبا بكر لم يسلم من أذى قريش ، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشًا تؤذى محمداً إلا وقف دونَه وعرض حياته للذود عنه .

تجلّى إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيماناً لايلين ولايتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبى بما يتّهمه به غلاتُهم . فما كان أبو بكر فى رزانته ورجاحة عقله ليصل إلى هذا الإيمان لو لم يتنزه كل عمل من أعمال الرسول عن كل شبهة ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى كان الرسول فيه موضع الاضطهاد من قومه . وهذا الإيمان الذى امتلأت به نفس أبى بكر هو الذى وقى الإسلام أن ينصرف الناس عنه عندما حدّثهم رسول الله بحديث الإسراء .

موقفه من حديث الإسراء :

تحدث محمد إلى أهل مكة بأن الله أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه صلّى هناك ، وسَخِر المشركون من هذا الحديث ، وساور الريب[٤] فيه طائفةً ممن أَسلموا ، وقال يومئذ غير واحد : هذا والله الأمر البيِّن ! والله إن العيرَ[٥] لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرةً وشهراً مقبلةً ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! ! وارتدَّ كثير ممن أسلموا وتردد كثيرون وذهبوا إلى أبى بكر لما يعلمونه من إيمانه وصحبته محمدا ، فذكروا له ما يقوله عن الإسراء . قال أبو بكر وقد تولاه الدَّهَشُ لما سمع : «إنكم تكذبون عليه» . قالوا : «بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدّث الناس» . قال أبوبكر : «والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! إنه

---

(١) غرارها : مثالها .
(٢) البأساء : المشقة .
(٣) الهون : الشدة والخزى .
(٤) ساور الريب : داخل الشك .
(٥) العير : ما جلب عليه الطعام من قوافل الدواب .

ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » . وجاء أبو بكر إلى المسجد واستمع إلى النبى يصف بيت المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتم النبى صفة المسجد الأقصى قال أبو بكر : «صدقت يا رسول الله » . ومن يومئذ دعا محمدٌ أبا بكر بالصدّيق .

أفخطر ببالك يومًا أن تسأل : تُرى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره فى حديث الرسول عن الإسراء ، فما عسى أن يحدث من أثر هذه الريبة فى حياة الدين الناشىء ؟ وهل قدَّرت ما قد يؤدى ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة فى نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبّتت إجابة أبى بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدَّرت وذكرت فلا ريب أنك لم تتردد من بعدُ فى الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطانًا فى الحياة من قوى البطش والبأس جميعًا ، وأن كلمة أبى بكر هذه كانت بعضَ عناية الله بدينه الحق ، وأنها نصرته وأيّدته أكثر مما أيدته قوة حمزةَ وعمرَ من قبل ، وهى لذلك حقيقة بأن تجعل لأبى بكر فى تاريخ الإسلام المكان الذى جعله الرسول له حين قال : «لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكنْ صحبةٌ وإخاءٌ وإيمانٌ حتى يجمع الله بيننا عندَه » .

وكلمة أبى بكر فى الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحى والرسالة لا يؤتاه كثيرون ، وتريك حكمة الله فى أن يختاره الرسول صفيّه يوم اصطفى الله رسوله ليبلّغ الناسَ رسالتَه . وهى كذلك الحجة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلُها ثابت وفرعُها فى السماء ، يخلِّد أثرُها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتى عليه النسيان .

ما كان يقوم به بعد الإسراء :

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء يرعى تجارته فى حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمداخلها ومخارجها ، وينفق جلّ وقته فى صحبة الرسول ، وفى حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفى دفع أذى قريش عنهم ، وفى دعوة من تلين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد فى أذى النبى وفى أذى أبى بكر وسائر المسلمين .

اتصاله لدفع أذى قريش :

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرّخوا لأبى بكر من عمله فى ذلك ما فيه غناء ، إنى مع هذا لترتسم فى نفسى صورةٌ واضحةٌ من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزةَ وبعمرَ وبعثمانَ وبكل ذى رأى فى المسلمين أو سلطان لدفع أذى قريش عن الضعفاء الذين أسلموا . بل إنى لأتصورُ ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقريش أن تناوئ من لا يقرُّها على عقيدتها فى الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا فى سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قريش ؛ ورأينا الذين قاموا فى نقض الصحيفة إذ تعاهدت قريش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتمَوْا ثلاث سنوات تباعًا فى شِعب[1] من شعاب الجبل بظاهر مكة[2] ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا فى الأشهر الحرم . ويقينى أن أبا بكر قد

---

(١) الشّعب : الطريق الضيق .

(٢) ظاهر مكة : خارجها .

كان له فى تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قريش ، أثرٌ بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

إعداده للهجرة ثم الهجرة :

لم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثربَ ، أم يظل بمكة كما ظل بها حينَ هجرةِ المسلمين إلى الحبشة . أعَرَف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمداً فى الهجرة فقال له : «لا تَعْجَلْ لعل الله يجعل لك صاحبًا» ولم يزد على ذلك .

ها هنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوى الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشًا قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت رده منهم إلى مكة ، لتَفتِنه عن دينه ، وتعذبه وتنكّل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأتمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صحب محمداً فى هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يتردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة فى أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يهاجِر مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعدله فضل ولا فخر ، وإن يُقْتَلْ معه فإنما هو الاستشهاد الذى يُجزى صاحبه جنة الخلد .

ومن يومئذ أعدّ أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه لفى بيته ذاتَ مساء إذ أقبل محمد كدأبه كلَّ مساء ، وأخبره أن الله أذن له فى الهجرة إلى يثربَ . خرج الرجلان من خَوْخة[1] فى ظهر الدار وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور فاختبئا فيه .

وأطلقت قريش فتيانها يبحثون عن محمد ليقتلوه فلما بلغوا ثوراً تصبَّب أبو بكر عرقاً حين سمع تناديهم ، وأمسك أنفاسه وبقى لا حراك به وسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له ، واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد فى أذنه : «لا تحزن ، إن الله معنا» .

فزع الصدّيق فى الغار :

أفكان فزع أبى بكر حتى ليتصببَ منه العرق ويمسكَ أنفاسه ويلتصقَ برسول الله بعض ما دعا إليه حبُّ الحياة والحرصُ عليها ، أم أنه لم يفكر فى نفسه ما فكر فى رسول الله ، وأنه كان يودّ لو يفتدى رسول الله بنفسه إن استطاع . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ، وإنما يفكر فى رسول الله وفى مصير الدين الذى يدعو إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتيان ظفروا به فقتلوه . بل لعله لم يفكر فى شىء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأن الأم تخشى الخطر على ابنها ، فهى ترتجف وتفزع ويتولاها الهلع ثم لا يساعفها عقلها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها فى وجهه تريد أن تصدَّه أو تموت دونه . أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعًا وأكثر

(١) خوخة : كوة (فتحة) ، وباب صغير .

منها استهانة بالخطر إذا أقبل ؛ لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه فى رسول الله فتجسمت معه كل المعانى المقدسة فى أعظم صورها قدسية وأسماها روحانية !

افتداء رسول الله :

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفى عصرنا اليوم زعماء يقدسهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبى بكر بالغار يختلف عن ذلك كلَّ الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم فى التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصدّيق بالرسول ؟ !! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقىّ إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتّاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

أبو بكر بالمدينة :

نزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحى المدينة على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخَزْرَج . فلما آخى النبى بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهْلُه وأبناؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته ـ كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ـ فى الزراعة فى أراضى الأنصار مزارعة مع مُلّاكها .

إصابته بالحمى :

وبعد قليل من مقامه بالمدينة أصابته الحمَّى التى أصابت أكثر الذين هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومُهَاجَرِهم من تفاوت فى الهواء ؛ فهواء مكة صحراوى جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع .

غضبة الصدّيق على فنحاص :

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلا إلا حين يرى خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها ويكيدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكلّ حريّةُ الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أولَ الأمر أنها قادرةٌ على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عونًا لهم على الأوس والخزرج . فلما سُقِط فى أيديهم[1] وعجزوا عن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، بدءوا يكيدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهودَ على رجل منهم يقال له فِنْحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفِنْحاص : «ويحك يا فنحاص ! اتّقِ الله وأسلم ! فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل » . قال فنحاص وعلى شفتيه ابتسامة السخر والتهكم :

---

(١) سقط فى أيديهم : ندموا وتحيروا .

« والله ، يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى . ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان غنيًّا عنّا ما أعطانا » . وإنما يشير فنحاص بعبارته هذه إلى قوله تعالى :

« مَنْ ذَا الّذى يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله ووحيه إلى نبيه ، لم يملك نفسه أن ضرب وجه فنحاص ضربًا شديداً وقال : « والذى نفسى بيده لولا العهدُ الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدوَّ الله ! » .

أليس عجبًا أن تكون فى أبى بكر هذه الحدة وهو من هو لينَ طبع ورقة خُلُق ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين .

سلطان الإيمان على أبى بكر :

لم يكن شىء فى الحياة يثير ثائرة أبى بكر أو يهيج غضبه إلا ما اتصل بعقيدته وبإيمانه الصادق بالله ورسوله .

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبى بكر كل مشاعره فى كل أطوار حياته منذ اتَّبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أما ما خلاها فقد كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شىء مما يتأثر به الناس فى الحياة ومما كان يتأثر به كثير من المسلمين فى ذلك العهد ، قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قلبه . وكان عقله ، وكانت روحه ، خالصة كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذى بلغ من مراتب الإيمان علياها ، مراتب الصدّيقين ، وحَسُن ذلك مُقاما !

حب الرحمة والحق مجتمعين :

ألف الناس فى كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون[١] ، أن يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغًا يجعلهم أشداء لا يَهِنون ، غلاظًا لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطيقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم فى هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيهم هذا التعصب وهذه الشدّة والغلظة . أما الصدّيق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدته فيه شدةً لا تَهِنُ ولا تتردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريبًا إلى اللين ، عَفُوًّا عند القدرة ، محسنًا متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع فى قلبه بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية ، حبِّ الحق ، والرحمةِ . ففى سبيل الحق كان يستهين بكل شىء ، وبالحياة قبلَ كلِّ شىء . فإذا علَت كلمة الحق ، غلب فيه جانب الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها إيمانَه من قبلُ بالحق ، ضعيفًا لها حتى لتذرف عينه الدمع ترسله مدراراً[٢] .

---

(١) يمارون : يجادلون ، ويداجون : يسرون العداوة ، ولا يبدونها .

(٢) مدرارا : كثير الدر والنزول .

موقفه من أسرى بدر :

تم النصر للمسلمين فى بدر فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطمعون فى الحياة ، وفى العود إلى مكة ، وإن أغلَوْا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذى أذاقوه وأصحابَه سنواتِ مُقامِهِ بينهم . قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصلُ قريش لأرحامنا ، وأكثرُهم رحمةً وعطفًا ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن فينا الآباءَ ، والإخوانَ ، والعمومةَ ، وبنى العمومة ؛ وأبعدُنا قريبٌ ، كلِّمْ صاحبك يَمُنَّ علينا أو يُفادِنا » . فوعدهم خيرا . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمثل حديثهم لأبى بكر ، فنظر إليهم شزْراً[١] ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيع هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله ، فجعل يستعطفه عليهم ويُلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر فى الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبى من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلبَ آخر الأمر ، وأن الناس ينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوا رحمة إنسانية سامية ، مبرأة من الضعف ، منزهةً عن الهوى ، لا تحركها فى النفس إلا القوة والقدرة ، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطانًا يكبح من بطش القوة ويُلين من عسف القدرة .

اتجاه حياته بعد بدر :

كانت غزوة بدر مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد فى حياة أبى بكر . بدأ المسلمون ينظِّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوأهم من القبائل المحيطة بهم ، وبدأ أبو بكر يشتغل مع النبى بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام مُقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعًا يعلمون أن قريشًا لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ؛ وكانوا يعلمون أنهم فى حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معتد عليهم . فلا بد من التقدير لذلك كله ، وتدبير الأمر له . وما كان لأبى بكر ـ وموقفُه من رسول الله ما رأيت ـ أن يشغل نفسه من بعدُ بغير هذا التقدير والتدبير ، حتى لا تكون فتنة داخلية فى المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غاز من الخارج .

كان هو وعمر وزيرى الرسول :

الحق أن نصر المسلمين ببدر قد أعز كلمتهم ، فحرّك فى نفوس منافسيهم حقداً عليهم أىّ حقد . حرّك فى نفوس اليهود حفائظ[٢] كانت ساكنة ، وحرّك فى قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بدٌّ ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبى وأصحابه . وقد اتخذ النبى من أبى بكر وعمر وزيرين يمحِّص على ضوء ما بينهم من تباين فى الطبع مع صدق فى إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرَهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها

---

(١) نظر إليه شزراً : نظر إليه بمؤخر عينه معرضا غضبان .
(٢) حفائظ : أحقاد ، مفردها حفيظة .

أثرها الكبير فى جمع الكلمة ، وفى توزيع التَّبعة على الجميع ، توزيعًا يُشْعِر كلَّ واحد بأن عليه منها قسطًا ونصيبًا .

موقفه فى غزوة أحد :

كان من أثر ما تحرك من حفائظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بنى قَيْنُقاع وأجلوهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولَّوْا فراراً وملئت قلوبهم رعبًا .

وكانت هذه الأنباء تصل مكة ، فلا تصد قريشًا عن التفكير فى الثأر لبدر . ولقد ذهبت تلتمس هذا الثأر ، فالتقت بالمسلمين عند أحُد ، فدارت الدائرة وجهَ النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبى ، وتركوا مواقفهم وانطلقوا يغنمون مع الغانمين . فقد اهتبل[1] خالد بن الوليد الفرصة فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبى بحجارة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لشِقِّه وأصيب فى وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدَوْهُ بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله فى خلقه من يومِئذ شأنٌ غيرُ هذا الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر ملازمةً للنبى فى غزواته وحين مُقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياةَ غزو ، ودفعاً للغزو ، أو استعداداً لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التى كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حُيَىُّ بن أخطب ، لا يفتأون يؤلِّبون على المسلمين . وكانت قريش تبذل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بنى النَّضير والخندق وبنى قُرَيْظة وما تخللها من الغزوات ، أثرَ سياسةِ اليهود ، وحقدِ قريش .

صار أبو بكر أكثر ملازمة للنبى فى هذه المواقف والمواقع جميعًا ، وكان لأبى بكر مواقفُ زادت المسلمين اقتناعًا بأنه الرجل الذى يلى رسولَ الله مكانةً من نفوسهم ، وسموًّا فى تقديرهم .

موقفه فى الحديبية :

بعد ستِ سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذَّن محمد فى الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشًا مسيرةُ القوم ، فأقسموا لا يدخل محمد مكة عليهم عَنْوةً . وأقام محمد وأصحابه بالحُدَيْبيةِ بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كلَّ دعوة إلى منازلة قريش ، معلنٌ أنه جاء حاجًّا ولم يجئ غازيًا . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامَهُ ، وأن يعود إليهم العامَ الذى يليه .

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا فى هذا العهد إعطاءً للدنيَّة[2] فى دينهم . أما أبو بكر فآمن وصدَّق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعًا بأن

---

(١) اهتبل : انتهز .

(٢) الدنية : الوضع الأقل شأنا .

عهد الحُديبية كان فتحًا مبينًا ، وبأن أبا بكر كان الصدّيق فى هذه ، كما كان فى غيرها من مواقفه .

ازدياد القوة وإقبال الوفود :

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالا ؛ وكان المسلمون بالمدينة يزدادون بذلك بأسًا وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود فى خَيْبَر وفدَك وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيداً لإجلائهم عن بلاد العرب ، ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأمراء بفارس ، وبُزَنطية ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى[1] لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألّق نور الدين الجديد فى شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم فى ذلك العصر : الرومِ ، وفارسَ ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطة الحذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يُغشِّى هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تترى من أنحاء شبه الجزيرة ، تعلن إيمانها بالدين الجديد . أليس هذا الداعى إليه قد كان وحيداً فريداً ، وها هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصارى ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين ! ! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدل على أن دعوته هى الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعًا ، وهو لا يبتغى عليهم سلطانًا ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات ! ! هذا منطق إنسانى أقرّه الناس فى كل زمن وآمنوا به أينما وجدوا . وهو منطق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

حج أبى بكر بالناس

أذن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج فى ثلاثمائة من المسلمين ، حجّوا وطافوا وسَعَوْا . وفى هذا الحج أعلن على بن أبى طالب إلى الناس – أو أعلن أبو بكر فى رواية أخرى – أن لا يحجَّ بعدَ ذلك العام مشركٌ .

حجة الوداع ثم بعث أسامة :

وفى السنة العاشرة من الهجرة ، حج رسول الله حَجَّة الوداع ، وحج أبو بكر معه . وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعًا ، وتبعه من العرب مائة ألف أو يزيدون .

لم يطل مُقام النبى بالمدينة بعد عوده من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيشٍ لَجِب[2] إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالجرف ، ثم ترامى إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبى شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

---

(١) الأسنى : الأعلى .

(٢) جيش لجب : كثير الأصوات مرتفعها ؛ وذلك لكثرة عدده .

النبى يأمر أن يصلى أبو بكر بالناس :

ولما ثقل عليه المرض أمر أن يصلى أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . قلت يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيفٌ وإنه متى يقم مَقامك لا يَسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلى بالناس . فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مَقامك لا يَسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبى . وإنه لغائب يومًا إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلِّى بالناس . وكان عمر جهير الصوت ، فلما كبَّر فى المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبى استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ، فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

خليل رسول الله :

فى أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يومًا بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبى إنما يعنى نفسه ، فاجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » ، وأمر محمد أن تقفل أبوابُ المسجد إلا بابَ أبى بكر ، ثم قال مشيرا إلى الصدِّيق : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وفى اليوم الذى قبض فيه النبى خرج ساعة الصبح إلى المسجد ، معتمداً على علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر يصلِّى ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبى فرحوا وتفرَّجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأومأ إليه النبى : أن كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبى بكر فصلّى قاعداً .

وعاد النبى بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة . لكنه ما لبث أن عاودته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سويعة من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فماذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ؛ ولم يضع للحكم نظامًا مفصّلا . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .

* * *

المنـاقشـــة

١ ــ «ولعل شخصه وخلقه كانا من أسباب نجاحه فى هذه التجارة ، فقد كان رجلا رضىّ الخلق ، رقيق الطبع ، رزينا لا يغلبه الهوى ، ولا تملكه الشهوة ، وكان لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله لا يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم» .

(أ) ما معنى : (رضى الخلق) ؟ وما المقابل فى المعنى لقوله (رجاحة العقل) ؟

(ب) فى العبارة عدة ميزات خلقية . وضحها ، وبين كيف يكون لمثلها أثر فى نجاح التجارة .

(ج) (شخصه وخلقه) . وضح العلاقة بين المتعاطفين ، ثم بين الرزانة ونفى غلبة الهوى ، وتملك الشهوة .

(د) دلل الكاتب على الأثر البالغ لهذه الصفات فى تأييد الدين . وضح وجهة نظره ، وناقشها .

٢ ــ «قد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر فى قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه .... ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ، ونظر ، وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له ، وما تردد فيه» .

(أ) ما معنى (عكم) ؟ استخدمها فى عبارة من عندك توضح معناها .

(ب) ما موضع العجب هنا . وضح بعبارتك .

(ج) ما القيمة التعبيرية لقوله (قد) ؟ وماذا ترى من فرق بين (كبوة ــ ونظر ــ وتردد) .

(د) هناك ما يزيل هذا العجب ، أو يخفف منه . بين .

(هـ) كانت جرأة أبى بكر وإقدامه على الإسلام أجدر بالتقدير . علل .

٣ ــ «تجلى إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيمانا لا يلين ولا يتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبى بما يتهمه به غلاتهم» .

(أ) ما مرادف (تجلى) ؟ وما مفرد (غلاتهم) ؟

(ب) وضح فكرة الكاتب فى العبارة بأسلوبك .

(ج) هل ترى فرقا بين الإيمان بمحمد والإيمان برسالته . وضح ما تراه .

(د) كيف تأتى لهذا الإيمان أن يحدث ذلك الأثر الذى تشير إليه العبارة ؟

٤ ــ «أما الصدّيق فكان على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدته فيه شدة لا تهن ، ولا تتردد ، بعيدا عن الغلظة ، قريبا إلى اللين عفوا عند القدرة محسنا متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع فى قلبه بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية ، حب الحق ، والرحمة» .

(أ) ما مرادف (جلال) ؟ وما المقابل لقوله (تهن) ؟

(ب) فى العبارة إشارة إلى قيمة جديرة بالإعجاب . اشرح بعبارتك .

(ج) ما القيمة التعبيرية لقوله (عفوا) وقوله (متى تم لإيمانه النصر) ؟

(د) لخص موقفه من أسرى بدر ، مبينا صلة ذلك باجتماع حب الحق والرحمة فى قلبه .

(هـ) عرِّفْ بقبيلته ، ومكانته فيها ، ثم تحدث عن صباه ونشأته .

٦ - كانت هناك عوامل جمعت بين الرسول والصدّيق قبل البعثة تركت أثرها فى علاقتهما ، ومن ثم فى سرعة الاستجابة للدعوة . تكلم عن ذلك .

٧ - مجاهرة الصدّيق بدينه بل والدعوة إليه تثير العجب والدهشة من تاجر مثله . تحدث عن ذلك ، مبينا سر هذا العجب والدهشة .

٨ - تصديق أبى بكر حديث الإسراء ، كان بعض عناية الله بدينه . ناقش هذه الفكرة واستدل لسلامتها ودقتها .

٩ - فيم كان يفكر الصدّيق بالغار ؟ ومن أى شىء فزع ؟

بيعة أبي بكر

ذهول المسلمين بعد وفاة النبي :

اختار الله رسوله إلى جواره فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الثالث من شهر يونيو سنة ٦٣٢ للميلاد) . وكان ﷺ صبح ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه ، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد ، وتحدّث إلى المسلمين ، ودعا لأسامة بن زيد بالخير ، وأمره أن يسير لغزو الروم . فلما تطاير إلى الناس أن رسول الله قد مات بعد سويعات من جلوسه بينهم وحديثه إليهم تولاهم الذهول ، وقام عمر بن الخطاب فيهم خطيبًا ينفى الخبر ، وانطلق يهدّد القائلين بوفاة الرسول .

موقف أبي بكر من وفاة النبي :

كان أبو بكر قد ذهب إلى داره بالسُّنْح من ضواحى المدينة بعد أن عاد النبىُّ عليه السلامُ من المسجد إلى دار عائشة . فلما نما فى الناس نبأ وفاته ذهب فى أثر الصدّيق من أبلغه إياه فكرّ راجعًا ، فبصر بالمسلمين وبعمرَ يخطبهم ، فلم يقف بل قصد إلى بيت عائشة حيث ألفى النبى ﷺ مسجًّى فى ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه وجعل يقبّله ويقول : «ما أطيبك حيًّا وما أطيبك ميتاً ! » ، وخرج إلى الناس فقام فيهم فقال : «أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : «وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل . أَفَئِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما سمع عمر هذه الآية خرَّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله قد مات . ووجم الناس لما سمعوا ولما رأوْا ، وأقاموا فى ذهولهم لا يدرون ما يصنعون .

تصوير ناحية من نفسيته :

نقف هنيهة ها هنا لنصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ الدلالة . فلو أن رجلا من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزعُ لوفاة الرسول ما بلغ من عمرَ ، لكان ذلك الرجل أبا بكر ؛ فهو صفى النبي وخليله ، ومَنْ آثره فى كل موقف على نفسه . وهو الذى أجهش بالبكاء لقول رسول الله : «إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . وهو الذى قال حين سمع هذه الكلمة والعَبْرَةُ تخنقه : «نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . لكن جزعه لوفاة الرسول لم يُذهله ما أذهل عمر . وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه ، أن خرج إلى الناس وخطبهم بما قرأت .

وهذه الكلمات التى ألقاها عليهم ، وهذه الآية التى تلاها من القرآن لإقناعهم ، تدل على قوة فى مواجهة الحقائق تنأى بصاحبها عن أن يذهله نبأ فاجع كموت رسول الله . وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادتها جلالا ومهابة ، هى بُعْدُ النظر إلى المستقبل . وهاتان الصفتان تثيران العجب من رجل كلّه الرفق والرقة ، وكله التقديسُ لمحمد والمحبة له أكثر من حبه الحياة وما فيها .

وهذه القوة النفسية البالغة التى كانت سند أبى بكر فى هذه الساعة العصيبة الرهيبة ، ساعةِ فجيعة المسلمين لفقد نبى الله ورسوله ، هى التى كانت سندَه فى الساعات الكثيرة العصيبة التى مرَّت من بعدُ به وبالمسلمين ، وهى التى وَقَتِ المسلمين ووَقَتِ الإسلام فتنة لولاها لتعرَّضوا لمحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جَرَائها[1] .

لمن ينتقل الأمر بعد الرسول :

لم يكن عمر والمسلمون الذين أحاطوا به واستراحوا إلى قوله إن النبى لم يمت ، إلا الذين أذهلهم النبأ عن التفكير فيما وراءه . أما الذين أيقنوا بحقيقه هذا النبأ أول ما عرفوا به ، فلم يَثْنِهم الحزن عن هذا التفكير . فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها ، وبعد أن تم لدينه السلطان فيها . فلمن عسى أن ينتقل هذا الأمر من بعده ، وقد أمتد سلطان الرسول على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام ، ترى أيظل للمدينة هذا السلطان ؟ وإن ظل لها فلمن من أهلها يؤول ؟ .

الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة :

طبيعىٌّ من الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير فى أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبى مات . تُرَى أيظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافًا بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزَّتهم المدينة ، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول إنه أتاهم مكذَّباً فصدَّقوه ، ومخذولاً فنصروه ، وطريداً فآوَوْه ، وعائلا[2] فآسَوْه ؟ تحدث بعض الأنصار إلى بعض فى هذا ، وتداعَوْا إلى سقيفة بنى ساعدة . وكان سعد بن عبادة مريضًا فى داره فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأى فيهم .

وبينما كان الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن ينفردوا بالسلطان على العرب ، كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطائفة من كبار المسلمين ومن سوادهم[3] يتحدثون بالمسجد عن وفاة الرسول ، وكان أبو بكر وعلىّ بن أبى طالب وأهل بيت النبى يحيطون بجثمانه ويعدّون العدة لتجهيزه ودفنه . وبدأ ابن الخطاب مذ أيقن بوفاة النبى يفكر فيما عسى أن يكون الأمر من بعده . ولم يدُرْ بخَلده[4] أن الأنصار سبقوه إلى هذا التفكير ، أو أنهم يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس .

حديث عمر وأبى عبيدة :

قال ابن سعد فى الطبقات : «أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : أبسط يدك فلأبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فَهَّة[5] قبلها منذ أسلمت . أتبايعنى وفيكم الصدّيق وثانى اثنين» وإنهم لفى هذا الحديث إذ جاءهم نبأ الأنصار واجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة . فأرسل عمر إلى أبى بكر فى بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول : «إنى مشتغل» . فرد عمر رسوله يقول لأبى بكر : «إنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره» .

---

(١) من جرائها : براء مفتوحة غير مشددة : من أجلها .
(٢) عائلا : فقيرا .
(٣) سوادهم : عامتهم .
(٤) بخلده : بباله .
(٥) الفهة : السقطة والجهلة .

أبو بكر وعمر وأبو عبيدةفى السقيفة :

خرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب ، أىّ أمر يمكن أن يدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ! قال عمر : «أمَا علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ! ! » ولم يتردد أبو بكر حين سمع ذلك أن مضى مع عمر مسرعَيْنِ إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح . وكيف يتردد والأمر أمر المسلمين ومصيرهم ، بل أمر هذا الدين الذى أوحِىَ إلى محمد ومصيرُه ! إن حول جثمان الرسول أهله يقومون بما يجب لجهازه ودفنه ، فلينطلق مع صاحبيه إلى السقيفة ، فذلك واجب عليه لله ورسوله لا يستطيع غيرُه أن ينهض به . وهو لم يتخل يومًا عن أداء الواجب والنهوض بأجسم التَّبِعات وإن اقتضاه ذلك بذلَ ماله ونفسه .

مضى ثلاثة الرجال لم يثنهم أن لقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلما قالا : «يا معشر المهاجرين ، لا تأتوهم واقضوا أمركم» قال عمر : «والله لنأتينَّهم» .

اجتماع السقيفة وعظيم خطره :

بلغ الثلاثة السقيفة والأنصار لا يزالون فى حوارهم لم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا فى ولاية الأمر برأى . ودهش الأنصار حين رأَوْهم فأمسكوا عن القول ، وكأنما سُقط فى أيديهم . وسأل عمر بن الخطاب عن رجل مزمَّل[1] بين ظهرانَيهم[2] من هو ، أجابوا : هذا سعد بن عبادة به وجع . وجلس أبو بكر وصاحباه بين القوم وكل تتمشى فى نفسه هواجسُ يسأل نفسه عمَّ يسفر هذا الاجتماع ؟

والحق أنه كان اجتماعًا جليل الخطر فى حياة الإسلام الناشئ . ولولا ما أبدى أبو بكر فى هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه فى موطنه كما يثار فى مواطن أخرى من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة ما يزال فى بيته لم يَثْوِ[3] فى قبره .

أرأيت لو أن الأنصار أصروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة لدعاء سعد بن عبادة ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر ، فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة الرسول ولأية ثورة جائحة[4] مسلحة وجيش أسامة فى أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار وكلُّهم مدجَّج بسلاحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عدته ! ! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ممن ليس لهم فى نفوس المسلمين جميعًا ما لوزيرى رسول الله ولأمين الأمة من مكانة ، لَشَجَرَ الخلاف بينهم[5] وبين الأنصار ، ولخيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه ، ولكان لذلك أثره الذى لا يفكر اليومَ فيه مؤرخٌ ، ولمَا وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية الحوادث وذِكر الخطب التى تبودلت وما تم على أثرها من بيعه أبى بكر . أما الذين يقدرون الحوادث قدرها ، فيرون لهذا الاجتماع التاريخى من الأثر فى حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، ويرون فيما كان من أبى بكر وحسن تصرفه فى الموقف عملَ الرجل السياسىِّ ، بل رجلِ الدولة البعيدِ مرمى النظر ، والذى يقدر النتائج

---

(١) مزمل : ملفوف مغطى .

(٢) بين ظهرانيهم : بينهم .

(٣) لم يثو : لم يستقر .

(٤) جائحة : مهلكة .

(٥) شجر الخلاف بينهم : تنازعوا .

ويرتب للاحتمالات ، ويوجه كلَّ جهده إلى الغرض الذى يريد أن يحقق به أعظم الخير ويتّقىَ به كل ضرّ أو أذى .

أبو بكر يبدأ الهجوم السلمى :

ألفنا فى حياتنا الحاضرة عبارات يصوّر بها الساسة أحوالا أو أعمالا يحسبونها بِدْعًا لم يسبقهم إليه فى التاريخ أحد . ومن مألوف ما نسمع فى هذا الزمن عبارة «الهجوم السلمى» . وهذا الهجوم السلمى لم يكن مجهولا فى العصور الماضية . بل هذا الهجوم هو ما لجأ إليه أبو بكر وأتمه صاحباه فى ذلك الاجتماع التاريخى الجليلِ الخطرِ .

لمّا اطمأن بالمهاجرين الثلاثة المجلس خرج الأنصار من صمتهم وزايلتهم[1] دهشتهم ، ولم يُخْفِ أشدُّهم حماسةً حرصَهم على أن يكون الأمر من بعد الرسول لهم . قال عمر : «وكنت قد زوّيت[2] كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق ، فقال لى أبو بكر : رويداً حتى أتكلم ثم انْطِقْ بعدُ بما أحببت» . إنما خشى أبو بكر شدة عمر فى القول وليس الموقفُ موقفَ شدة أو عنفٍ بل موقفَ سياسة وحسنِ مدخل . نهض أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة التوحيد ثم قال :

«... فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون[3] بمشورة ، ولا تُقْضىَ دونكم الأمور» .

نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأى الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل فى باب النظام وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق . ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصدُه حُسنَ السياسة وبُعدَ النظر . ولعل الأوس الذين كانوا ينفسون على الخزرج قد استراحوا إليه . ولعل كثيرين من بنى الخزرج أنفسهم لم ينفروا منه . فهذا أبو بكر لم يرد للمهاجرين أن يستبدوا بالأمر دون الناس . بل جعل الأنصارَ وزراءَ فأشركهم فى الأمر ولم يُشرك غيرهم ، وإن كان من غيرهم فى بعض أنحاء شبه الجزيرة من هم أكثرُ قوةً وأعزُّ نفراً . وهو إنما أشركهم على الأساس الذى جعل به الإمارة للمهاجرين : مقامِهم فى السبق إلى نصر الرسول وتأييده .

لا جرم إذن أن يستريح الجميع إلى هذا القول ، فهو عدل كلُّ العدل ، وأساسه الحق كلُّ الحق .

وقام أبو عبيدة بن الجراح ، فقال موجهًا حديثه إلى أهل المدينة : «يامعشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر» .

مقالة بشير بن النعمان :

وانتهز بشير بن سعد من زعماء الخزرج هذه الكلمة الحكيمة من أبى عبيدة فقام بين قومه وقال :

«إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ،

---

(١) زايلتهم : فارقتهم .

(٢) زويت : جمعت .

(٣) لا تفتاتون بمشورة : لا يعتدى على حقكم فيها .

وطاعة نبينا ، والكدحَ لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل[1] على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عَرَضًا ؛ فإن الله وَلِيّ النعمة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومهُ أحقُّ به وأولى . وأيمُ الله[2] لا يراني الله أنازعُهم في هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

عمر وأبو عبيدة يبايعان :

وأجال أبو بكر بصره في الأنصار ليرى ما تركت مقالة بشير من الأثر فيهم ، لكن عمر نادى بصوته الجَهْوَرِيّ : « ابسط يدك يا أبا بكر » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : لنبايعْ خيرَ من أحب رسولُ الله منا جميعًا » .

وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذهما في الغار ، وخليفةُ رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين .

الأوس والخزرج يبايعون :

وإن عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر إذ أسرع بشير بن سعد فبايعه .

وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين ، حتى ضاق بهم المكان من السقيفة . وكاد الناس في تكاثرهم على البيعة يطئون سعد بن عبادة .

أثر بيعة السقيفة :

وتمت بيعة أبي بكر بالسقيفة وجثمان النبي لا يزال في بيته منْ حوله أهلُه : عليُّ بنُ أبي طالب والعباسُ بنُ عبد المطلب ومن اشترك معهم في جهازه ، وعلى مقربة منهم في المسجد طائفة من المهاجرين . وتمت هذه البيعة في أحوال جعلت بعض الرواة ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : إنها كانت فلتة . فأما غير هؤلاء الرواة فيرى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ذهبوا على اتفاق بينهم أن يكون الأمر لأبي بكر . وأيما هاتين الروايتين فالذي لا مِرْيَة[3] فيه أن ما تم في السقيفة قد وقى الإسلام الناشىء فتنة ليس يعلم إلا الله ما كان يحدث فيها ، وقد مهّد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهَّد للسياسة التي رسمها الرسول أن تنجح النجاحَ الذي مهّد للإمبراطورية الإسلامية من بعد ، والذي أذاع دين الله بفضل منه جل شأنه في مشارق الأرض ومغاربها .

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار في ولاية أمر المسلمين مطمع أو مأرب . فقد كانت بيعة عمر بن الخطاب ، ثم بيعة عثمان بن عفان ، ثم كان الخلاف بين عليّ ومعاوية ، ولم يكن للأنصار من ذلك كله إلا نصيب سائر العرب . وكأنما آمنوا بما قال أبو بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش . بل كفاهم من بعد ذلك أن عاشوا في كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله في مرضه الأخير حين قال : « يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لاتزيد ، وإنهم كانوا عيبتي[4] التي أويت إليها ، فأحسنوا إلى مُحْسِنِهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

---

(١) نستطيل على الناس : نتعالى عليهم ونظهر الفضل.
(٢) أيم الله : يمين الله .
(٣) لا مرية : لا مجادلة .
(٤) عيبتي : موضع سري .

بيعة العامة :

وفى الغد من بعد ذلك اليوم جلس أبو بكر فى المسجد ، فقام عمر يعتذر عما تحدّث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبى لم يمت وقال : « .... إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوا » . فبايع الناس جميعاً بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

أول خطاب للخليفة الأول :

وقام أبو بكر ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ! فإنى قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدقُ أمانةٌ ، والكذبُ خيانةٌ . والضعيف فيكم قوىّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

هل تخلف أحد من المهاجرين ؟ :

أفكانت بيعة العامة هذه بيعة إجماع من المسلمين لم يتخلّف عنها أحد ؟ أيًّا كان السبب الذى دعا المسلمين لبيعة أبى بكر بالخلافة يوم وفاة النبى ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد . وذلك ينهض دليلا على أن المسلمين الأولين تصوروا الخلافة بغير ما تصورها خَلَفُهم من بعدُ منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى فى تصورها إلى معانى الحياة العربية البحتة القريبة منهم ، والتى كانت معروفة فى أنحاء شبه الجزيرة قبل مبعث النبى عليه السلام . فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامى واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم التى فتحوا ، تغيَّر تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعًا لهذا الاختلاط ولهذه السعة فى المملكة الإسلامية .

الخلافة فى التصور العربى :

تصوَّر المسلمون الخلافة تصوراً عربيًّا بحتًا . فالمتفق عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يُوص بالخلافة لأحد . وما حدث من خلاف بين بنى هاشم وسائر المهاجرين بعد بيعة العامة ، لا يذر محلا للشبهة فى أن أهل المدينة اجتهدوا فى أمر الخلافة عند اختيار الخليفة الأول ، وأنه لم يكن لذلك سند فى كتاب ولا سُنَّة ؛ فاختار المقيمون بالمدينة من رأوه أصلح المسلمين لتولى أمورهم . ولو أن الأمر امتد إلى ماوراء المدينة من قبائل العرب لكان الشأن غير ما كان ، ولما كانت بيعة أبى بكر موفَّقة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب .

ولم تكن السُّنة التى اتبعت فى اختيار أبى بكر هى التى اتبعت فى اختيار الخليفتين من بعده : عمر وعثمان . فقد أوصى أبو بكر قبل وفاته باختيار عمر بن الخطاب ، ثم جعل عمر الخلافة من بعده فى ستة ذكرهم بأسمائهم وترك لهم أمر اختيار أحدهم . فلما كان مقتل عثمان وما حدث على أثره من خلاف بين علىّ ومعاوية ، استتب الأمر للأمويين يتوارثه الأبناء عن الآباء . أما وتلك رواية الحوادث فلا محل للقول بأن

لولاية الأمر فى الإسلام نظامًا مقرراً ، وإنما هو اجتهاد أملته الأحداث فى أحوال الجماعة الإسلامية المتغيرة وأملته على صور مختلفة تلائم تغير هذه الأحوال .

نظام الحكم فى الإسلام :

كان النظام الذى سار عليه أبو بكر عربيًّا بحتًا كذلك . وكان لاتصاله الزمنى الوثيق بعهد النبى ، ولاتصال الصدِّيق نفسه بالرسول وتأثره به ، أثرٌ فيه لم يلبث أن تغيَّر من بعدُ بحكم الأحوال وبحكم امتداد الفتح الإسلامى . وقد ظل هذا التغيُّر فى نظام الحكم يجارى البيئة التى يقوم فيها ، حتى لم يكن ثمة وجه للشبه بين العهد العباسى فى أوج مجده ، وعهد الخليفة الأول أبى بكر ولابينه وبين عهود عمر وعثمان وعلىّ .

وعهد أبى بكر يكاد يكون فريداً فى نوعه ؛ فهو الاتصال الطبيعى لعهد الرسول فى السياسة الدينية ، وفى السياسة الزمنية . صحيح أن الدين كان قد كمل ، ولم يبق لأحد أن يغير فيه أو ينسخ منه . لكن العرب ما لبثت حين مات النبى أن فكَّرت فى الردة ، وأن ارتد الكثير من قبائلها ؛ فلم يكن لأبى بكر بدٌّ من أن يضع لتلافى هذا الأمر الخطير خطَّة ينفذها . وكان النبى قد بدأ مع الدول التى تجاوره سياسة تتصل بدعوته ؛ فلم يكن لأبى بكر مفرٌّ من متابعتها .

كيف فعل فى هذه وفى تلك ؟ ذلك ما سنفصله من بعدُ .

* * *

المناقشة

١ - « وهذه القوة النفسية البالغة التى كانت سند أبى بكر فى هذه الساعة العصيبة الرهيبة ، ساعة فجيعة المسلمين لفقد نبى الله ورسوله ، هى التى كانت سنده فى الساعات الكثيرة العصيبة التى مرت من بعد به وبالمسلمين ، وهى التى وقت المسلمين ، ووقت الإسلام فتنة لولاها لتعرضوا لمحن لايعلم إلا الله ما كان يصيبهم ، ويصيب النشأة الجديدة من جرائها » .

(أ) هات جمع (فجيعة) ، ومفرد (المحن) ثم ضع ما تأتى به فى جملة توضح معناه .

(ب) كان لهذه القوة أثرها فى هذا الموقف ، وفى غيره . وضح بعبارتك ، مبينا لم كانت هى صاحبة هذا الأثر .

(ج) بين القيمة التعبيرية لوصفه الساعة بالرهيبة بعد العصيبة ، ومرجع الضمير فى قوله (لولاها) .

(د) اقترنت هذه القوة بصفة أخرى . اذكرها ، وبين نتاج لقائهما ، ومرجع العجب منهما .

٢ - «والحق أنه كان اجتماعا جليل الخطر فى حياة الإسلام الناشئ . ولولا ما أبدى أبو بكر فى هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه فى موطنه كما ثار فى مواطن أخرى من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة مايزال فى بيته لم يثو فى قبره » .

(أ) ما المراد بقوله (جليل الخطر - وقوة الحزم) ؟ .

(ب) فى العبارة حديث عن بعض صفات الصديق وأثرها فى المواقف الحاسمة . اشرح بأسلوبك .

(ج) لم كان لهذا الاجتماع تلك الأهمية ؟ وما دور نشأة الإسلام فى هذه الأهمية .

(د) إلام انتهى هذا الاجتماع ، وما فضل الأنصار فيما انتهى إليه ؟

٣ - «نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لاتفتاتون بمشورة ولاتقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأى الأنصار الذين قالوا منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل فى باب النظام ، وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق ، ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصده حسن السياسة وبعد النظر» .

(أ) ما معنى (لاتفتاتون بمشورة) ؟ وما المراد (ببعد النظر) ؟

(ب) وضح فكر الكاتب فى العبارة بأسلوبك .

(ج) ما الفرق بين سيرة الصلاح وسيرة الإصلاح ؟ وما أوجه القرب بين قول الصديق ورأى الأنصار ؟

(د) هذا القول «عدل كل العدل وأساسه الحق كل الحق» دلل على ذلك .

٤ - «إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى النعمة علينا بذلك» .

(أ) ما عكس (فضيلة) ؟ ومامعنى (عرضا) ؟ .

(ب) فى العبارة وجهة نظر بلغت غاية التجرد فى الإيمان . وضح بعبارتك .

(ج) فيم يكدحون لأنفسهم ؟ وإلام يشير فى قوله (ولى النعمة علينا بذلك) ؟

(د) وقت هذه الروح المتجردة الإسلام من فتنة لايعلم إلا الله نتائجها . تحدث عن ذلك .

٥ - قيل إن حديث أبى بكر بالسقيفة كان هجوما سلميا . وضح ذلك .

٦ - تصور المسلمون الخلافة تصورا عربيا بحتا . اشرح ، مبينا كيف كان ذلك اجتهادا أملته الظروف .

* * *

العرب حين وفاة النبى

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون على بيعة أبى بكر إذ النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ بوفاة النبى . والواقع أنه لم يَسِرْ نبأ فى بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ بوفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبّت[1] أعناقهم من كل صوب[2] يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم ؛ لذلك ارتد العرب فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، وكثرأعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبيهم كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية .

خلاف المهاجرين والأنصار :

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمةُ أبى بكر وعمر وما أراده الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموفقة التى انتهى إليها .

أهل مكة يهمون بالردة :

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشئ المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقدهمّ أهل مكة أنفسُهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتّاب بن أسيد عامل رسول الله على أمّ القرى فتوارى منهم . ولولا أن قام فيهم سُهَيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبى : «إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا[3] ضربنا عنقه» لترددوا فى موقفهم . على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيبًا كان له أثره . أضاف : «والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثرا فى نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سببَ رجوعهم عن ردتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آل إلى أبى بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فأطمأنوا إلى ماذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

موقف ثقيف :

وهَمّت ثقيفٌ بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبى العاص عامل النبى عليهم فقال : «يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد» . وذكرت ثقيف موقف النبى منها بعد حُنَيْن ، وذكرت ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيامَ أبى بكر بالخلافة ونهوضَ أهل مكة إلى جانبه فى أمرها . قد كان له من الأثر فى ثقيف مثلُ ماكان له فى أمّ القرى .

موقف سائر العرب :

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها . ثبتت عليه مُزَيْنةُ وغِفَار وجُهَينة

---

(١) اشرأبت : تطلعت .
(٢) صوب : ناحية .
(٣) رابنا : أثار شكنا .

وبَلِىّ وأشجع وأسلم وخُزاعة . أما سائر العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدُهم بالإسلام قريبًا ، ومن لم تكن نفوسهم قد أُشْرِبتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيرهم من بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجريهم والأنصارِ . وهؤلاء رأَوْا فى أداء الزكاة جِزية تفرضها المدينة عليهم ، وتأباها نفوسهم التى ألفت الاستقلال عن كل سلطان ، وهم إنما أدَّوها منذ أسلموا إلى الرسول الذى يوحَى إليه ، والذى اصطفاه الله من بين عباده نبيًّا . أمَّا وقد اختار النبىُّ جوارَ ربه ، فأهلُ المدينة جميعًا لايفضلونهم فى شئ ، وليس لهم ما كان للنبى من حق فى المطالبة بها .

كانت القبائل التى أبت إيتاء الزكاة هى القبائل القريبة من المدينة من عَبْس وذبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفان وفَزارةَ . أما الذين قَصَتْ[1] ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحًا فى رِدّتهم ، وكان أكثرهم يتابعون رجالا منهم ادَّعَوْا النبوة ، كطُلَيْحةَ فى بنى أسد ، وسَجاحِ فى بنى تميم ، ومُسَيْلمةَ فى اليمامة ، وذى التاج لقيطِ بن مالك فى عُمَان . هذا إلى ما كان من اتِّباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العَنْسىّ ، ومتابعتهم إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك فى الفتنة والانتقاض إلى آخر حروب الردّة .

عوامل الانتقاض والردة :

وليست ترجع هذه الصورة فى انتقاض الحواضر والبوادى على سلطان قريش وفى ردّتها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافى من المدينة وكفى ، بل ترجع كذلك إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر فى الأصقاع[2] النائية عن مكةَ والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً فى المِنطَقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهودُ النبى سنواتٍ متعاقبةً موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية فى موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثربَ ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود تترى[3] من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبى يبعث إليهم عمَّاله يفقهونهم فى الدين ويَجبُون[4] منهم الصدقات .

العوامل العربية :

طبيعىٌّ ألاّ يتأصل الدين فى نفوس هذه القبائل ما تأصل فى نفوس أهل مكة والمدينة ، وفى نفوس العرب القريبين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام فى منبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصبوه عداوة اتصلت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه فى نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمَّا من نأى عن هذه البقعة التى شهدت نشاط محمد سنواتٍ تباعًا ، داعيًا إلى الله وإلى دين الله ،

(١) قصت : بعدت .
(٢) الأصقاع : مفردها صقع ، وهو : الناحية .
(٣) تترى : متتابعة .
(٤) يجبون : يجمعون .

فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع الى استقلاله السياسى وإلى استقلاله الدينى .

العوامل الأجنبية :

ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً فى هذا الانتقاض من العامل الجغرافى . لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير[1] الفرس والروم المتحكمين يومذاك فى شئون العالم . أمّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإمارات تابعة لحكمهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا الحكم مناوأة الدين الجديد بشتّى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتى ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، ولليهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضحَ الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبى ؛ وكان هذا النشاط باديًا فى شئ من الحذر قبل وفاته . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقًا يغرى بالتصديق بها والانضواء[2] تحت لوائها ، وهذا المنطق الذى أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذى دعاهم للانتقاض وللفتنة .

منطق المرتدين :

قال الذين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبِضَ ولم يوص بمن يخلفه ، فخليقٌ بنا أن نحتفظ باستقلالنا احتفاظنا بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق اختيار من يقوم مقامَ رسول الله فينا . أمّا أن نذعن لأبى بكر أو لغير أبى بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله فى شىء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نُوليه نحن أمورنا .

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حظًّا من الاستقلال الذاتى طوّع لأهلها أن يفكروا فى استرداد هذا الاستقلال كاملا بعد وفاته . فهو قد أبقى بَدْهان عامل الفرس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وألقى نِير المجوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، فى البحرين وفى حضرموت وفى غيرهما ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزّع الزكاة التى تجبى من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان فى المدينة . وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة فى الدين لا شأن لها بسياسة الحكم ! ! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة فى الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر البلاد والقبائل من يفقههم فى الدين على ما كان يصنع رسول الله ، وأن يكونوا وإياهم أشبه شىء بعصبة أمم إسلامية . لاتبغى إحداها على الأخرى ، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها .

---

(١) النير : أصله الخشبة توضع على عنق الثور .

(٢) الانضواء : الميل والانضمام .

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف . أما أهل اليمن وما حاذاها من جنوب شبه الجزيرة ، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام ، فإنما أسلم الكثير من أهلها إكباراً لسلطان محمد الذى أمتد فى سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس فى ملكيهما ، فكان امتدادُه السريع معجزةً بهرت الأنظار ، وأخذت بالألباب ، وجعلت الوفود من كل القبائل تُقبل إلى المدينة تترى معلنةً إلى النبى إسلامَها وإسلام القبائل التى تنتمى إليها . أمَّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبى فلا عجب أن يتزلزل إيمانُها وأن ترتد عن دين طرأ عليها ، بل لاعجب أن تثور بهذا الدين وأن تتابع الذين يُذكون فيها نار الفتنة باسم العصبية والنُّعَرَة[1] العربية .

قيام مدعى النبوة :

وقد خُدِع هؤلاء أوَّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد . خدِعوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه ؛ بل خُدع بعضهم عنه والنبى مايزال بين أظهر العرب لم يختر جوارَ ربه . سمع كثير من بنى أسد لطُلَيْحة حين ادّعى النبوة ، وأيَّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم ، وسمع كثير من بنى حنيفة لمسيلمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلِّغانه أن مسيلمة نبىٌّ مثله ، وأن له نصفَ الأرض ولقريش نصفَ الأرض ولكن قريشًا قوم لا يعدلون . وسمع أهل اليمن للأسود العنسىّ ذى الخمار حين تولّى أمر اليمن وطرد منها عمَّال النبىّ . على أن رسول الله لم يُعِرْ هؤلاء المدعين كثيرا من عنايته ، ثقة منه بأن قوةَ الحق فى دين الله كفيلة بإظهار كذبهم ، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيلٌ بالقضاء عليهم .

لم تكن شبه الجزيرة إذا هادئة مطمئنة فى العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلّها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونُذُرُ الثورة تتبدّى فى جوها ؛ وكانت بوادر الانتقاض فى الشمال الشرق وفى الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكن من انتشارها إلا القوة الروحية التى أمدَّ الله بها رسوله ، وإلا النصرُ الذى كان يلازم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيلمة ولا أسكت الأسود العنسىّ عن القيام فى قومهما يزعمان النبوة ، ليكون لبنى حنيفة ولليمن ولغيرهم من العرب أن يدّعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمةُ رسول الله وحسنُ رأيه وبعدُ نظره وفضلُ الله عليه وعلى الإسلام لخيفَ أن تتلظّى الفتنة وأن يصلَى العرب جميعًا نارَها فى حياته .

بدء فتنة العنسى :

أغلب الظن أن فتنة العنسىّ قامت فى آخر عهد الرسول .

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبذاً يصطنع فنونًا من الحيل ويستهوى الجماهير بعباراته . ولقد تنبأ ولقّب نفسه رحمْان اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرتْ بحديثه ، وفُتِنت بما يزعم من حديث شيطانه .

---

(١) النعرة : الكبر والخيلاء والعصبية .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْران فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم أميرى المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنْ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنعاء .

أسباب فتنة العنسى :

ولعلك إن تلتمس لذلك تأويلا تجده فى أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب . فلما قام هذا العنسىّ يسترد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولعلك واجد هذا التأويل كذلك فى أن هذه البلاد كانت مسرحًا لأديان مختلفة ؛ كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تقوَ فى نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبئ فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملبين دعوته .

موقف الرسول من فتنة العنسى :

بلغت هذه الأنباء محمدا بالمدينة وهو يُعِدُّ العُدَّة لغزو الروم ، وللانتقام من مُؤْتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المحفوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهِّز جيش أسامة . أفيصرف هذا الجيش إلى اليمن يسكِّن ثائرتها ، ويردّ على المسلمين هيبتهم ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدَروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر فى شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يَعُدْ وجَّه محمد جيشه ليقمَع الأسودَ وغيرَ الأسود من الخارجين عليه ؟ ! .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضًا وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسى فأخذ يستمتع بنصره وينظّم ملكه ، يقيم القوّاد على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبوادى من صنعاء إلى الطائف .

على أن العوامل التى أدّت إلى انتصاره قد تضافرت من بعدُ على الائتمار به .

تلظى الجنوب بنذر الثورة :

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتقاض على الدين الجديد فى بلاد العرب حين وفاة النبى . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل قد كان يتلظى بنُذُر الثورة فى هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلْجئون إلى المصانعة حينًا وإلى البطش حينا آخر ، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة . ولاعجب أن يكون ذلك أمر حواضرَ وبواد تبعد عن منزل الوحى بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقرّ لهم بتفوق الحضارة . بل لاعجب أن تكون للفرس يد خفية فى تحريك هذه الحواضر والبوادى لتنتقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ .

سياسة الرسول إزاء الفتنة :

وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسى باليمن فقوّى تجاوبها ساعد مسيلمة وفَتّ فى أعضاد[1] المسلمين . لكن رسول الله لم يتّجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقنًا أن الله ناصره على الروم فى الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم فى القضاء على أسباب الانتقاض والثورة الداخلية فى أنحاء بلاد العرب .

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية التخوم العربية فى الشمال من عدوان هِرَقْل ورجاله عليها . فهرقل هو الذى دحر[2] الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذى رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو لذلك الذى تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين فى مُؤْتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم يهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تُبعد المخاوف من انحدار الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم فى غزاة حاسمة قوّى ذلك من عزم المنتشرين منهم فى قبائل العرب ، فلا يلبث كل منتقض عليهم أن يرجع عن انتقاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعًا أو كارهًا . وكيف لايفعل وقد تغلغل المسلمون فى أنحاء شبه الجزيرة من الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة يحسب حسابها ؛ فلم يقوَ مسيلمة فى اليمامة ، ولا لقيط فى عُمَان ، ولا طُلَيحة فى بنى أسد ، أن يناصبوها العداوة فى جهر وإعلان .

تربص المتنبئين بالمسلمين :

كان لقيط وطُلَيحة كمسيلمة يتربّصان لإعلان عصيانهما أن تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ فى ناحية ينشر دعوته فى غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبى الهاشمى أو ينتقص من رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبى ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث فى قومه وبعث كلٌّ منهم فى قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى . وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسى وإن لم ينقصها دهاؤه هيّئوا حول المسلمين المقيمين بين أظهرهم جوّ قلق وتربُّص ، تتلظى نيران الفتنة تحت رماده ريثما تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر فى بلاد العرب حتى بدأت نُذُر هذه الفتنة تتحرك فى كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت فى صور مختلفة وألوان متباينة تباين العوامل التى أثارتها . وسنفصل ذلك من بعد فى وضوح وجلاء . لكنا نقف من حيث هؤلاء المتنبئين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة النبى أوثق اتصال :

العرب وفتنة المتنبئين :

أوّل هذه الأمور أن رسول الله قُبض وبوادر الفتنة تجرى نُذُرها فى جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب . فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُلَيحة بالمسلمين . وهذه الربوع التى أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانه كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس اتصالا .

---

(١) فت فى أعضادهم : أضعف قوتهم .

(٢) دحر : دفع وأبعد وطرد .

فلاعجب وذلك شأنها أن يلفت انتقاضها نظر الخليفة الأول ، وأن يطيل تفكيره فى تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها الأمن والسلام .

الاضطراب باسم الدين ، وسببه :

والأمر الثانى الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيلمة وطُلَيحة أن الاضطراب الدينى بلغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهّل تحريك النفوس باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة . فالنصرانية واليهودية والمجوسية والأصنام كانت كلها تتجاور ، وكان لكل منها أنصار ظاهرون أو مستترون ؛ لكنها كانت جميعًا موضع الجدل : أيها الحق ، وأيها أدنى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهَّل على الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعوهم بألوان من المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المتنبئون أن يجمعوا حولهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أوّل أمرهم من النجاح ما أحرزوا .

العامل الوطنى :

لم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادعاء هو العنصر الجوهرى فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ، فى مقدمتها بَرَمُ[1] أهل اليمن بالفرس كبرمهم بأهل الحجاز . وسترى من ذلك فى أمر مسيلمة وطُلَيحة ما يؤيد قولنا كل التأييد . ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين قائمة ؛ فللعقيدة المتأصلة سلطان على النفوس قلّ أن يغلبه سلطان . لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فلما أتيح لهم أن يخلعوا إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمانٌ حق ، فاندفعوا وراء الأسود وغير الأسود من المتنبئين .

ويزيد رأينا هذا تأييدا ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام . صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام وأطمأن إلى السلطان الحاكم ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى سلطان الحاكم بمكة والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس المكيين والثقفيين ما لم يتركه فى اليمن .

أثر فتنة العنسى :

الأمر الثالث الذى نستخلصه ، أن فتنة اليمن شجَّعت اليمامة وشجَّعت بنى أسد على القيام إثر وفاة النبى ؛ فقد كان طليحة ومسيلمة يخشيان قوة المسلمين ويريان أن لاقِبَل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرجا عليها . فلما اجترأ الأسود على رفع لواء العصيان ولقى من النجاح ما لقى وأثار مخاوف المسلمين ، أمتدّت عدوى الجرأة منه إلى طليحة وإلى مسيلمة ، ثم زادهما جرأة أن اختار النبىُّ الرفيقَ الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومته ولم يُعلن فتنته لبقى الآخران على استحياء فى إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحدٌ منهما على مواجهة المسلمين .

---

(١) برم : ضيق .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنة التي كانت تتلظّى يومئذ في أنحاء شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنة تضطرم ويزداد اضطرامها حتى اندلعت بوفاة الرسول .

رأى المستشرقين فى الفتنة ، وسببها :

يعلل بعض المستشرقين هذه الظاهرة فى بلاد العرب لذلك العهد بما كان بين أهلها من تباين فى نوع الحياة قلّ أن يجد الإنسان له فى غير هذه البلاد نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حِقَب التاريخ من خصومات لم تهدأ . فحياة الحضر وحياة البدو تتجاوران فى هذا المحيط تجاورًا عجيبًا . وبين البداوة والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلاد ذلك شأنها أمراً غير ميسور . ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذى يفهمه أهل الحضر مستحيلا أو يشبه المستحيل . فالبدوى لا يعدل باستقلاله الفردى شيئًا ، والقبيلة البادية ترى فى استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدوانًا عليها لابد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التى تأصلت على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأى يذهبون إلى أن هذا التباين فى طباع أهل البادية وأهل الحضر ، وما جرّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب . كان له أثر بالغ فى اضطراب العرب قبيل وفاة النبى وفى السنة الأولى من خلافة أبى بكر . فالإسلام دين توحيد فى العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعًا . أو لاَ يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الخصومات القديمة ؟ ! ذلك ما دار بخواطرهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتقاض اليمن وغير اليمن فى ذلك العهد .

أثر العامل الأجنبى :

وسواء أصح هذا التعليل أم لم يصح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبى فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتقاض العرب ورِدَّتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم فى رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ماجعلهما يعملان على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد يجمع كلمتها ويضاعف قوتها . ولاشىء كالفتنة يضعضع العزائم ويفتّ فى أعضاد الأمم .

انتقاض العرب ووفاة النبى :

وأيًّا كانت الأسباب التى أدت إلى فتنة العَنْسى ، ثم إلى فتنة طُلَيحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتقاض العرب على سلطان المسلمين حتى جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبى بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدها .

كيف دبَّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلَّب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهّد للإمبراطورية الإسلامية كى يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمتن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفى هذا الكتاب حديثه .

* * *

المناقشة

١ - « الواقع أنه لم يسر نبأ فى بلاد العرب بسرعة البرق ماسار النبأ بوفاة رسول الله ، ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم ؛ لذلك ارتد العرب فى كل قبيلة ، ونجم النفاق » .

(أ) مامعنى (اشرأبت - صوب) ؟ وما مفرد (عواتق) ؟
(ب) فى العبارة بيان لطبيعة النبأ ، وماترتب عليه . وضح بأسلوبك .
(ج) (يسر - سلطان المدينة) . تعبيران موفقان غنيان بإيحائهما بين ذلك .
(د) همّ أهل مكة بالردة ، فكان ترغيب سهيل بن عمرو أبلغ من ترهيبة أثرا . وضح .

٢ - « قال الذين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ، ولم يوص بمن يخلفه ، فخليق بنا أن نحتفظ باستقلالنا احتفاظنا بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ماجعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق فى اختيار من يقوم مقام رسول الله فينا » .

(أ) ماعكس (أبوا - وأداء) ؟
(ب) تتضمن العبارة بعض فكر المرتدين . وضحه ، ثم فنده .
(ج) ماقيمة التقديم فى قوله (خليق بنا أن نحتفظ) ؟ وماذا يوحى (أن نحتفظ باستقلالنا) ؟ .
(د) التمس الكاتب شيئا من العذر لأصحاب هذا المنطق . اعرض رأيه فى ذلك .

٣ - « وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسى باليمن فقوى تجاوبها ساعد مسيلمه ، وفت فى أعضاد المسلمين . لكن رسول الله لم يتجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقنا أن الله ناصره على الروم فى الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم فى القضاء على أسباب الانتقاض والثورة الداخلية فى أنحاء بلاد العرب » .

(أ) مامفرد (أصداء - وأنحاء) استخدم كلا مما تأتى به فى جملة توضح معناه .
(ب) تجد هنا آثار الفتنة ، وسياسة الرسول عليه السلام فى مواجهتها . تحدث عن ذلك بأسلوبك .
(ج) لماذا عبر بقوله (تجاوبت) ؟ ولماذا كان الهدف القضاء على الأسباب دون نتائجها ؟ .
(د) كان لسياسة الرسول تجاه تخوم الشام مبرراتها - اذكر هذه المبررات .

٤ - « ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس ، وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدعين قائمة ؛ فللعقيدة المتأصلة سلطان على النفوس قل أن يغلبه سلطان ، لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا ، وإن كانوا قد أسلموا » .

(أ) هات عكس (المتأصلة) ومفرد (الأصقاع)، وضع كلا منهما فى جملة توضح معناه.
(ب) ناقش فكرة الكاتب فى العبارة، واحتج لما تراه.
(ج) هل ترى لعطف (الإيمان) على العقيدة قيمة؟ وضح، ثم بين الفرق بين الإيمان والإسلام.
(د) لبعض المستشرقين رأى فى أسباب هذه الفتنة. بينه.

٥ - كانت هناك عوامل للفتنة عربية وأخرى أجنبية. تحدث عن كل منهما، ثم وازن بينهما من حيث قوة التأثير على المرتدين.

* * *

بعث أسامة

لم تكن نذر الانتقاض فى بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم فى سقيفة بنى ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟ ! أفيُلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله فى شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول فى تأمين التخوم[1] بين العرب والروم ، تاركا أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

أول أمر أصدره الخليفة الأول :

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمَّتْ له البيعة بالخلافة أن قال : «ليتمّ بَعْثُ أسامة » .

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبى بتجهيزه من جِلّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى مُؤْتة وفى تَبُوك ؛ ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائمًا أن يدهم[2] الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم النبى عن المدينة ، وعن تيماء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية ، فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قوّاده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داور خالد بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليمًا وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيرا حمل خصومه على التراجع إلى ماوراء حدودهم دون قتال . لاعجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبى جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز هذا الجيش بعضَ سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس فى ذلك العهد .

وصية رسول الله إلى أسامة :

كان أسامة حَدَثًا لمَّا يبلغ العشرين . وإنما ولاّه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر مايجزى به استشهاد أبيه بمؤتة ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بجسام التَّبِعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح[3] ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دِرَاكًا[4] حتى لاتسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانمًا مظفرا .

---

(١) التخوم : مفردها تخم بضم التاء والخاء ، وهو الحد الفاصل بين أرضين .
(٢) يدهم : يفجأ ويغشى .
(٣) عماية الصبح : ضوئه الذى لم يتضح .
(٤) دراكا : سريعا متلاحقا .

حب النبي لأسامة بن زيد :

تذمَّر كثيرون منذ اليوم الأول من تعيين حَدَث كأسامة على رأس جيش يضم جِلّة[1] المهاجرين والأنصار وتحدثوا فى ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبى منذ طفولته ، وأنه لُقِّب لذلك «حِبّ النبي وابن حِبِّه» . ولقد بلغ من إعزاز النبى إياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة فى العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين فى طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد فى حُنَيْن أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد[2] .

تذمر لتوليته إمارة الجيش :

لكن المتذمرين كانوا يرون ذلك شيئًا ، وتَوَلِّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئًا آخر . ولقد بلغ تذمُّرهم النبى وهو فى مرضه الأخير وجيشُ أسامة مقيم بالجُرْف يتأهَّب للمسير ، فأمر نساءه فأرقن عليه سبع قِرَب من ماء حتى تنزل عنه الحمَّى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمِد الله وصلّى على أصحاب أحد : «أيها الناس ، أنْفِذوا بَعْثَ أسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها» .

تصميم على بعث أسامة :

لما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمَّت بيعته عاد المسلمون إلى تذمُّرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضَوْا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ؛ وما ترامى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفُّزهم بعد موت النبى للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبى بكر : «إن هؤلاء جُلّ المسلمين ، والعرب على ماترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين» . قال أبو بكر : «والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تَخْطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القُرَى غيرى لأنفذته» .

وقيل إن أسامة لمّا رأى ماعليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عونه على المشركين فلا يَتَخَطّفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : «فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة» . وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائره وقال : «لو خَطِفتْنى الكلاب والذئاب لم أَردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم» . أمّا رسالة الأنصار أن يولّى عليهم رجلا أقدم سنًّا من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالسًا فأخذ بلحية عمر وقال مغضَبًا : «ثَكِلَتْك أمك وعدمتك يابن الخطّاب ! . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه !» . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : «امضوا ، ثكلتكم امهاتكم مالقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله» .

---

(١) جلة : عظماء . مفردها جليل .

(٢) الصناديد : مفردها صنديد وهو : الشريف الشجاع .

لاأدع أمرا يصنعه الرسول :

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصوّر لنا سياسة أبى بكر أول ماتولى الخلافة . وهذه السياسة تتلخص فى قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبته بميراثها عن أبيها : «إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : «لِيتمّ بَعْثُ أسامة . ألاّ لايَبْقَيَنّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف » . فقد وقف بينهم خطيبًا بعد أن ردّ المعترضين منهم وقال : «أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله ﷺ يطيق . إن الله اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتّبعٌ ولستُ بمبتدع . فإن استقمتُ فتابعونى ، وإن زُغتُ فقوّمونى . وإن رسول الله قبض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمَظْلَمَة ضربْة سوط فما دونها . ألاّ وإنّ لى شيطانا يعترينى ، فإذا أتانى فاجتنبونى ... » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجىء أجلُهم ، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان ، وألاّ يغبطوا[1] الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتّبعٌ ولست بمبتدع ، ولن أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ، هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبى بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو صاحب رسول الله على مارأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيمانا لايكبوا ولايتزعزع ، وكان لاتصاله القلبى والروحى برسول الله يعرف من أمره مالا يعرفه غيره . وهو وحده الذى قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : «إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه فى حياة النبى مالم يبلغه عمر ولا علىّ ولا أحد غيرهما من أمسّ المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان اتّباعه النبى اتباعًا صحيحًا صادرا عن إيمان وبينة ، إيمان يجعله مطمئنًا إلى أنه لن يُخطئ ماتبع الرسول ، وبينة تجعله يسلك الطريق التى يرى أن الرسول كان لاريب يسلكها .

أبو بكر يشيع جيش أسامة :

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرْف يبلّغهم رسالة أبى بكر ، فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعًا أو كرهًا . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء المعسكر ، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامة راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليمًا . وكأنما غلب أسامةَ الحياءُ أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحبَ رسول الله وخليفتَه على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : «ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : «والله لاتنزل ووالله لاأركب وما علىّ أن أغبّر قدمىّ فى سبيل الله ساعة ! » . فلما آن أن يودع الجيش قال لأسامة : «إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبى بكر .

لعمرك ماعسى أن يقول المتذمّرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس لِيَلِىَ أمر المسلمين جليله ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرها لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقالة

---

(١) يغبطوا : الغبطة تمنى مثل ما للغير دون زواله .

ويتّهموا بالأثَرة . وكثيراً ماكان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطانٌ على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتى ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيّات .

وصية الصديق لجيش أسامة :

وآن لأبى بكر أن يودع الجيش ، فوقف فى رجاله خطيبًا وقال : « أيها الناس ، قفوا أوصِيكم بعشر فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولا تغُلّوا(١) ، ولاتغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شئ فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفِقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله ، أقناكم(٢) الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ماأمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت آبل ، ولاتقصّرن فى شىء من أمر رسول الله ، ولا تعجَلنَّ لِما خَلّفتَ عن عهده » .

مسيرة الجيش إلى البلقاء :

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع البِيد ويتخطى المفاوز فى هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يومًا من مسيرته بلغ البلقاء حيث تقع مؤتة ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحباه جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله فى قبائل قضاعة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاء لايعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم فى الحرب ذلك اليوم : « يامنصور أمِتْ » .

قضاء أسامة على أعداء الله :

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التى قاومتهم ، وغنموا ماشاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين فى مؤتة ، وبذلك نفّذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك دِراكا فلم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمّه عاد بالجيش مظفَّرا إلى المدينة ممتطيًا الجواد الذى مات أبوه عليه .

عود أسامة ظافرا :

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يغْرِه النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل فى ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه فى جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تذمروا من قبل لإمارته يتحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقا لها » .

(١) لا تغلوا : لا تخونوا فى الغنيمة .

(٢) أقناكم الله : أكسبكم ، وأرضاكم .

ولم يَدُرْ بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين جميعًا ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقامًا لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأتمرون بالمسلمين .

لاجرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكُرّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعًا إلى المدينة ليقف إلى جانب أبى بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدَؤُهُ أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتمُّه، خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الأمبراطورية الرومية التى ظلت قرونًا مرهوبة الجانب تعنو لكلمتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى أسامة :

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقّاه أبو بكر ، وكان قد خرج فى جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا فى إثر أبى بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبسالة جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصد من فوره إلى المسجد حيث صلى شكرا لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يوما من مغادرته إياها .

اثر هذا الغزو :

يحاول بعض المستشرقين أن يهوّنوا من أمر الغزوة وأن يصغّروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها وإكبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق «فكًا» محرر فصل أسامة فى دائرة المعارف الإسلامية : «وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ فى نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الرِّدّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لايتفق مع قيمته الحقة ، بل عُدّ فيما بعد فاتحة للحملة التى وجِّهت لغزو الشام» .
صحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى مانعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التى تمّتْ فى ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التى فجاها وأن غَنِم منها دون أن يلقَى جيش الروم . لكن الأمر الذى لاريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة بهم ، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة «لو لم يكن للقوم قوة ماأرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُد عنهم من القبائل القوية» . وانزعج هِرَقْل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشًا قويًا عسكر بالبلقاء . وتلك الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعًا حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التى جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دُومة الجَنْدَل ، لايلحون فى التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

* * *

المنــاقشـــة

١ ـ « لم تكن نذر الانتقاض فى بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه ... وكيف تخفى عليهم ، وقد كان ماشجر بينهم فى سقيفة بنى ساعدة جديرا بأن ينبههم إلى خطرها ؟ ! أفيلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله فى شأنها ؟ أم تراه يجرى على خطة الرسول فى تأمين التخوم » .

(أ) مامفرد (نذر ـ وتخوم) ؟

(ب) خلاف السقيفة كان جديرا بالتنبيه إلى خطر الانتقاض . وضح بأسلوبك ، مبينا الصلة بينهما .

(ج) كان الاختبار صعبا بين مواجهة أخطار الداخل وأخطار الخارج . اشرح ذلك بعبارتك .

(د) بين القيمة التعبيرية لقوله (كل باله ـ تأمين التخوم) .

٢ ـ « وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبى بتجهيزه من جلة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى مؤتة ، وفى تبوك ؛ ذلك أنه عليه السلام كان يخشى دائما أن يدهم الروم المسلمين » .

(أ) مامرادف (جلة) ؟ وما معنى (يدهم) ؟ .

(ب) من تجارب الماضى ، ومن توقعات المستقبل كان الإعداد للمواجهة . وضح بأسلوبك فى ضوء العبارة .

(ج) بنى ترشيح أسامة لقيادة هذه الغزوة على اعتبارين . اذكرهما ، وبين قيمتهما فى مثل هذا الموقف .

(د) جاءت وصايا الرسول عليه السلام لأسامة محققة لأهداف الغزوة . برهن على ذلك .

٣ ـ « يأيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطيق . إن الله اصطفى محمدا على العالمين ، وعصمه من الآفات . وإنما أنا متبع . ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » .

(أ) مامرادف (اصطفى) ؟ وما المقصود بكلمتى (متبع ـ ومبتدع) ؟ .

(ب) فى العبارة أسس كفلت نجاح الحكم فى هذه الفترة . تكلم عن ذلك .

(ج) إيثار أداة الشرط (إن) دقيق فى موضعه . وضح .

(د) ذكر الكاتب مبررات اتباع الصديق وعدم ابتداعه . بينها .

٤ ـ كان لبعض الصحابة موقف من تأمير أسامة . تكلم عن هذا ، موازنا بين منطقهم ، ومنطق الصديق فيما يتصل بهذه الإمارة .

٥ ـ تضمنت وصية الصديق لأسامة قيما ومثلا إنسانية فى المقام الأول . تحدث عنها ، وعن صلتها بروح الإسلام ، وأثرها فى علاقات الأمم .

٦ ـ يحاول بعض المستشرقين التهوين من أمر بعثة أسامة . فبم ترد على منطقهم .

* * *

قتال من منعوا الزكاة

بينما كان أسامة فى طريقه إلى تخرم الروم ، كان النبأ بوفاة النبى يدفع العرب إلى الثورة بسلطان المدينة . زادت ثورة اليمن ضراماً على الرغم من قتل العنسىّ ، وبدأ مسيلمة فى بنى حَنِيفَة وطُلَيْحةُ فى بنى أسد يدعوان الناس إلى التصديق بنبوتهما ويَلْقَيان من النجاح ما جعل عُيَيْنَةَ بن حصن يقول عن طُلَيْحَة : « نبىٌّ من الحليفين ـ يعنى أسداً وغطفان ـ أحبّ إلينا من نبىٍّ من قريش . وقد مات محمد وطُليحة حىّ » .

بوادر أنباء الردة :

جاءت الرسل بهذه الأنباء وبما هو شر منها لأبى بكر أول مااستُخْلِف . فلما بسطوا أمامه الأمر قال لهم : « لا تبرحوا حتى تجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمرّ من انتقاض الأمور » . ولم يلبثوا أن قدِمتْ كتب أمراء النبى فى الأنحاء المختلفة من شبه الجزيرة بانتقاض عام أو بانتقاض خاص . ولم تُخْفِ هذه الكتب ماكان من اعتداء المنتقضين على مَنْ بقى على إسلامه بين أظهرهم . وكذلك تضرمت الأرض حول أبى بكر نارا ؛ فكان لابد من معالجة هذه الحال التى لم ير المسلمون مثلها منذ فُتِحتْ مكة وأسلمت ثَقِيفٌ .

القبائل التى أبت أداء الزكاة :

وكان هذا الاضطراب الذى أصاب العرب قد انتهى بقوم إلى أن يرتدوا عن الإسلام ، فى حين بقى آخرون على إسلامهم ثم أبوا أداء الزكاة لأبى بكر . وسواء أكان إباؤهم أداءها راجعاً إلى حرص الناس على المال وتحايلهم على التحلل من بذله كتحايلهم على اقتناصه وإمساكه ، وذهابهم فى هذا وفى ذلك إلى حد التضحية بالحياة فى سبيله ، أم كان راجعا إلى عدهم إياها إتاوة لم يبق بعد وفاة رسول الله مايسوّغ دفعها لمن اختاره أهل المدينة أميرا عليهم ، فإنهم أضربوا عن أدائها وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبى بكر فى أمرها .

كان ذلك شأن القريبين من المدينة من قبائل عبس وذُبيان بنوع خاص فماذا عسى أن يصنع المسلمون معهم ؟ ليس من اليسير مقاتلتهم بعد أن أنفذ أبو بكر بعث أسامة فلم يبق بالمدينة جيش يدفع عنها . أيرضون منهم أن يمنعوا الزكاة ، وبذلك يستميلونهم إليهم لعلهم يجدون منهم عوناً على الذين نكثوا أيمانهم وارتدوا عن إسلامهم ؟ أم يحاربونهم فيزيدوا بذلك عدد عدوهم ، وقد لا يكون لهم فى غيبة الجيش بحربهم قِبَلٌ[1] ؟ .

عمر وطائفة يشيرون بعدم قتالهم :

جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة . وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا كثرة الحاضرين فى حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . وأغلب الظن أن المجادلة بين القوم فى هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أيما احتدام فقد اضطر أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤيد القلة ؛ ولقد اشتد فى تأييد رأيه فى ذلك المقام ، يدل على ذلك قوله : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول

(١) قبل : قدرة

الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم يَثْن هذا المقال عمر عن أن يرى ما فى القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغبته ، فقال فى شيء من الحدة : «كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

لم يتريث أبو بكر ولم يتردد فى إجابة عمر فقال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : « إلا بحقها » . ويتم الرواة هذا الحديث بأن عمر قال من بعد : « فوالله ماهو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

يذكرنا هذا الحديث بما دار بين رسول الله ووفد ثقيف حين أقبلوا من الطائف يعلنون استعدادهم للإسلام ويطلبون إليه أن يعفيهم من الصلاة ؛ فقد أبى محمد يومئذ أن يجيبهم إلى ماطلبوا من ذلك وقال : «إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » . ولعل أبا بكر قصد إلى مثل ذلك حين قال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

وفدهم إلى المدينة :

وبعثت عَبْس وذُبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفانَ وفَزارةَ جموعاً منهم أقامت على مقربة من المدينة . ثم إن هذه الجموع انشطرت فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرق من الرَّبَذَة . وسارت الأخرى إلى ذى القصّة أقرب مَحلّة من المدينة على طريق نجد . وأرسل رؤساء هذه الجموع وفودا منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا[1] بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فكان جواب أبى بكر مارأيت : «والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » .

أوامر أبى بكر لأهل المدينة :

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم بعد ما اطّلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدفع عنها . وأدرك أبو بكر منهم ذلك ، فجمع الناس وقال لهم : «إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لاتدرون أليلا تُؤْتَوْن أو نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد[2] . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم . فاستعدوا وأعدوا » ثم إنه دعا إليه عليًّا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة ، وأمر سائر الناس أن يكونوا بالمسجد فى عُدَّة القتال .

أول معركة فى عهد أبى بكر :

لم يخطىء أبا بكر حَدْسُه ؛ فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً ، حتى زحف عليهم مانعو الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام . وأحسَّ العَسَس[3] المقيمون على مداخل المدينة مأتى القوم ، فنبَّهوا عليًّا والزبير وطلحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال . وأرسل هؤلاء إلى أبى بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزموا أماكنكم ، وخرج فى أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ، ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم . ولم يكن يدور بخواطر

---

(١) تحملوا بهم : استعانوا بهم

(٢) بريد : عدة أميال

(٣) العسس : رقباء الليل وحراسه

أهل هذه القبائل أن سيقاومهم أحد بعد الذى عرفوا من أمر المدينة وأهلها . فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخذوا فولّوا الأدبار ، فأتبعهم المسلمون حتى ذى حساً ؛ وكانت القبائل قد تركت فى هذه المحلّة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم . وشعر هذا المدد بمجيء القوم منهزمين وباتباع المسلمين إياهم ، فوقف . دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين فى غسق الليل[1] قتال لم يتكشف لأحد منهم أثره .

تراجع المسلمين إلى المدينة :

وكان الذين أقاموا بذى حُساً من أهل القبائل قد جاءوا بأنحاء[2] نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم فى وجوه الإبل التى امتطاها رجال المدينة . ولم تكن هذه الإبل إبلَ حرب ألفتْ مكايد القتال ؛ ولذلك نفرت براكبيها مرتدة حتى دخلت بهم المدينة .

انتصارهم الحاسم صبح اليوم نفسه :

فرحت عبس وذبيان ومن ناصرهم بفرار المسلمين وظنوا بهم الوَهَن ، وبعثوا إلى من بذى القصّة ينبئونهم بما حدث . وأقبل أهل ذى القصة عليهم وتبادلوا وإياهم الرأى ألا يذروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ماأرادوا أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ويعبّئهم . فلما كان الثلث الأخير خرج يمشى على رأسهم ، وقد جعل لهم ميمنة وميسرة وساقة . وأغذّوا جميعاً السير ، فما طلع الفجر حتى كانوا مع العدو فى صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همساً ولاحسًّا . وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هانىء . ووضع المسلمون السيوف فى القوم ، فهبُّوا فزعين يقاتلون . ولكن هيهات ! لقد أمعن رجال أبى بكر فيهم قتلا وهم فى عماية الصبح يضطرب حابلهم بنابلهم[3] . وذر قرن الشمس وهم يولون الأدبار منهزمين لا يلوون على شىء . وأتبعهم ابو بكر حتى نزل بذى القصّة وهم يفرون أمامه فرار النعام . عند ذلك تركهم ونزل بعسكره فى منازلهم من هذه المحلّة ، ثم جعل بها النعمان بن مُقرّن صاحب ميمنته وجعل معه عدداً يدفع به الذين أرادوا على الصدّيق نصراً فخُذِلوا ، وعِزاً فذلّوا .

هنا يقف الإنسان خاشعاً مَلَكه الإعجاب بأبى بكر وبإيمانه وثباته وحزمه ؛ فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام . وإن لهذه الغزوة الأولى من غزوات أبى بكر لجلالا ماأشبهه بجلال غزوة بدر . وقف المسلمون يوم بدر ومحمد على رأسهم وعددهم لايزيد على ثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يزيد على ألف . وهنا وقف أهل المدينة ، ومنهم المقاتل ومنهم غير المقاتل ، وأبو بكر على رأسهم ، وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغَطَفان وغيرهم من القبائل . ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان أصحابه وبنصر الله إياهم على المشركين . وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابة فانتصر كما انتصر الرسول ، ثم كان لنصره الأثر البالغ فى حياة المسلمين .

على أن ما يملك الإنسانَ من الإعجاب بأبى بكر فى هذا الموقف لا يشوبه من العَجَب شىء فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئاً كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أمّا وذلك عزمه الذى

(١) غسق الليل : ظلمته

(٢) الأنحاء : جمع نحى : وهى أوعية من جلود .

(٣) الحابل : من يصيد بالحبالة وهى الشبكة ، والنابل : من يصيد بالنبل ، وهو مثل يضرب لاختلاط الأمور ، واضطرابها.

لايحيد عنه ، فلا عَجَب أن يأبى المساومة فى أمر يتصل بما فرض الله فى كتابه ، وأن يذكر كلما طلب إليه أحد أن ينزل عن شىء لم يكن رسول الله ليرضى أن ينزل عنه ، هذه الكلمة الخالدة على الزمن من كلمات رسول الله : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . هذا ماصنع أبو بكر حين تحدث إليه أصحابة فى العدول عن بعث أسامة . وهذا كان موقفه حين تحدثوا إليه فيما يطلب العرب من منع الزكاة . وذلك هو الإيمان الصادق الذى لايغلبه فى الحياة غالب ؛ لأنه يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما فى الحياة .

وهذا الإيمان الصادق الذى لايغلبه الموت ولا يغلبه زخرف هذه الحياة الدنيا هو الذى حفظ الإسلام فى صفائه وكماله فى ذلك الوقت الدقيق الذى كان يومئذ يتخطاه .

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبى بكر ثم لانتصاره بذى القَصّة من أثر حين تعلم أن المشركين من بنى ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة . هذه الظاهرة التى دفع إليها الغضب والشعور بالذلة والانتقام الوضيع قد زادت انتصار المسلمين جلالا وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم فى كل قبيلة ، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه ، فى حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم فأيقنوا أن الغلب لدين الحق والإيمان به ، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت القبائل إليه لن يمحو عنها عار هزيمتها ، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالياً

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وهو لامحالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم .

عود أسامة :

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله على أثر انتصاره بذى القَصّة .

وإن الناس لفى طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، إذ أقبل أسامة عائداً من أرض الروم غانماً مظفراً يسوق أمامه غنائمه ويلحق به جيشه .

ماهذا كلُّه ؟ ! أليست هى المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تتضافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التضافر الذى دوّى فى أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين فى كل قبيلة ، ورفع من رءوسهم فى وجه عدوهم فما يدرى مرتدّ مايقول لهم ! ..

كرة أخرى لقتال من منعوا الزكاة :

رأى أبو بكر فى حصافته ودقة تقديره الأمورَ ألا يُريح أعداءه وأن يضاعف ذلَّتهم ، فقال لأسامة وجنده : استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، ونادى فى رجاله الأوّلين بالخروج معه إلى ذى القصة . وناشده المسلمون قائلين : « ننشدك الله ياخليفة رسول الله ألا تعرضّ نفسك فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نظام ، ومُقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا ، فإن أصيب أمَّرت آخر » . لكن أبا بكر كان إذا اعتزم أمراً لم يرجع عنه ؛ لذلك قال لهم : « لا ! والله لاأفعل ، ولأواسينَّكم بنفسى » . وخرج ومن حوله الميمنة والميسرة والساقة ، كما خرج من قبل ، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فيما وراء ذى القصة . هناك قاتل عبساً وبنى ذبيان وبنى بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وكانت الأبرق فى ملك بنى ذبيان . فلما جَلَوْا .

عنها أعلن أبو بكر أنها أصبحت فى ملكه وملك أصحابه . وقال : «حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد وقد غنَّمناها الله » . وبقيت هذه الأماكن من بعدُ يحتلها المسلمون ، فلم يرض أبو بكر أن يردها إلى بنى ثَعْلبَةَ حين جاءوا إليه بعد أن استقرت الأمور يريدون العود فيها إلى منازلهم .

انحياز المنهزمين إلى طليحة :

تمت هزيمة الثائرين الذين أرادوا أن يمنعوا الزكاة . وتمت هذه المرة والمدينة فى منَعَة بجيش أسامة ، وفى رخاء بما جاء به من الغنائم ، وبما حُمِل إليها من زكاة المسلمين الذين آتوا الزكاة منذ انتصر خليفة رسول الله .

أفما آن لبنى ذبيان وعبس وغطفان وبنى بكر وغيرهم من القبائل القريبة من المدينة أن ترجع عن انتقاضها ، وأن تذعن لأبى بكر وتعلن الإسلام لأمر الله ولخليفة رسول الله ؟ لقد تحطمت الثورة التى قام بها العنسىّ فى اليمن . ولقد انتصر المسلمون على تخوم الروم . ولقد بدا أبو بكر فى ثوب من قوة الإيمان لا غالب له . وهذه القبائل كانت إلى أن اختار الله إليه رسوله مُسلمةً صادقة فى دينها ، فخير لها أن تعود إلى حظيرة الإسلام وأن تمد يدها إلى الصدّيق بالطاعة وأن تكون معه على عدوّ الله وعدوه . ذلك مايوجبه العقل ومايقضى به منطق الحوادث . فأولئك المسلمون من المهاجرين والأنصار هم الذين تغلّبوا على أهل شبه الجزيرة جميعاً بقوة إيمانهم ؛ وهم اليوم فى قوة لم تكن لهم أيام بَدْر والغزوات الأولى فى عهد الرسول . فمكة معهم ، والطائف معهم ، وسلطانهم معترف به فى مختلف البقاع . ثم إن من أهل هذه القبائل الثائرة بأبى بكر مسلمين إن استطاعت القبائل أن تفتن بعضهم فلا سلطان لها على الأعِزة منهم ، مخافة الثارات والفتن التى تنجم عن تعصب البطون والأفخاذ لذوى المكانة فيها . أفأذعنت لحكم العقل وسمعت لحجة المنطق ؟ .

كلا ! بل أخذتها العزة بالإثم ، وغرها بالله الغَرور[1] ، وصدق عليها المثل : العناد يورث الكفر . لذلك جلت عن مواطنها وانحازت إلى طُلَيْحة بن خوَيْلد المتنبىء فى بنى أسد وكفرت بنعمة الله عليها بالإسلام . ولم يستطع المؤمنون الذين أقاموا على دين الله بينها أن يقاوموا عنادها وكفرها ، فنزح منهم من نزح معها كارها بَرِماً لايملك من أمر نفسه شيئاً . وقوّى انحيازُها طُليحة ومُسيلمة وقوى روح التمرد فى اليمن . لذلك بقى أبو بكر فى موقفه الأول من العزم على مقاتلتهم حتى يتم أمر ربك . ولو أن هذه القبائل أذعنت لحكم العقل وأصاخت[2] لإملاء المنطق لضعضع أمرها من عزم طليحة وأشباهه ، ولأسرعت شبه الجزيرة إلى حمى الإسلام والسلام .

ولست تجد تعليلا لهذا العناد ولهذا الانقلاب عن الإسلام إلا ما قدَّمنا من تعصب القبائل وحرصها البدوى على سلطانها ، ومن المغالاة فى ذلك إلى حد لايكبح من جماحه غير البأس . فإذا كانت قد رُدَّتْ على أعقابها حين حاولت مهاجمة المدينة ، أو كانت قد أجليت عن بعض منازلها من بعدُ ، فطبيعتها البدوية تدعوها إلى الثأر لنفسها . ولتثأر لنفسها انضمت إلى بنى أسد وإلى طُليحة ، لعلها تجد فى عونها مايرفع عنها عار الذلة ، ومايرد إليها شيئا من الكرامة .

فأما أبو بكر فكان قد سما فوق الاعتبارات القَبَلية ومايتصل بها ، وتوجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخُطَّة التى رسمها رسول الله . تلك سياسته التى أعلنها يوم بويع ، والتى سار عليها إلى أن لقى ربه .

* * *

(١) الغرور : الشيطان .

(٢) أصاخت : استمعت .

المناقشة

١ - «هنا يقف الإنسان خاشعا ملكه الإعجاب بأبى بكر وبإيمانه وثباته وحزمه ؛ فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام ، وإن هذه الغزوة الأولى من غزوات أبى بكر لجلالا ما أشبهه بجلال غزوة بدر » .

(أ) مامعنى (خاشعا - وحزمه) ؟ .

(ب) يعقد الكاتب هنا مقارنة بين موقفين خالدين . وضح هذه المقارنة ، مبينا جوانب العظمة فيهما .

(ج) (الإعجاب بأبى بكر ، وبإيمانه ، وثباتة ، وحزمه) بين قيمة العطف والتفصيل بالعبارة فى التعبير عن الفكرة .

(د) تحدث عن العناصر الأساسية لخطة أبى بكر فى مواجهة من حاولوا الإغارة على المدينة .

٢ - «على أن مايملك الإنسان من الإعجاب بأبى بكر فى هذا الموقف لايشوبه من العجب شىء ، فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئا كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أما وذلك عزمه الذى لايحيد عنه ، فلا عجب أن يأبى المساومة فى أمر يتصل بما فرض الله فى كتابه » .

(أ) مامعنى (يشوبه - آلى - يحيد) ؟ .

(ب) اعرض فكرة الكاتب فى العبارة بأسلوبك ، ثم ناقشها .

(ج) وضح الفارق بين (الإعجاب - والعجب) ، ولم كان لأولهما مكان هنا دون الآخر ؟

(د) يذكر موقف أبى بكر هنا بموقف للرسول عليه السلام . وضح ، وبين وجه التأسى .

٣ - «وإن الناس لفى طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، إذ أقبل أسامة عائدا من أرض الروم غانما مظفرا يسوق أمامه غنائمه ويلحق به جيشه . ما هذا كله ؟ ! أليست هى المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تتضافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التضافر الذى دوى فى أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين فى كل قبيلة ، ورفع من رءوسهم فى وجه عدوهم فما يدرى مرتد مايقول لهم » .

(أ) مامرادف (مظفرا) ؟ وما معنى (تتضافر) ؟ .

(ب) تصور العبارة اكتمال عوامل العزة والفرحة مما قوى عزائم المسلمين . عبر عن ذلك بأسلوبك .

(ج) (ماهذا كله ؟) (أليست هى المعجزة ؟) ماغرض الاستفهام فى العبارتين ؟

(د) رأى أبو بكر ألا يريح أعداءه بعد ذلك . تحدث عن خطته ، وما حققته عقب عودة أسامة .

(هـ) (فما يدرى مرتد مايقول لهم) ماذا يريد الكاتب بهذه العبارة ؟ .

٤ - كان لعمر منطقة فى عدم قتال من منعوا الزكاة . اعرض هذا المنطق ، ورد الصديق عليه .

٥ - لجأ مانعوا الزكاة إلى المساومة ، فواجههم الصديق بالحسم . تكلم عن ذلك .

٦ - لم يهدأ الصديق منذ واجه وفد مانعى الزكاة برأيه ، حتى قضى على كل أمل لهم فى التمرد . لخص القول فى هذا .

* * *

التهيؤ لحروب الردة

هزم أبو بكر عبساً وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم وأجلاهم عن مواقعهم بالأبرق ، فانحازوا إلى طُلَيحة بن خُوَيْلد الأسَدىّ ببُزاخةَ . وقد أعلن أبو بكر أن الله غَنمه هذه البلاد فلن يردها إلى أصحابها ، وأنه جعل الأبرق لخيول المسلمين ، وأرعى سائرَ الرَّبَذة الناسَ وجعلها صدقات للذين آمنوا . ورجع الصدّيق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاءَ المبرمَ . فما كان ليصالحَهم أو يوادعهم قبل أن يثوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين .

توزيع الجند ألوية :

وأقام بالمدينة ، حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة جَمَّ[1] خرج به إلى ذى القَصّة فوزع الجند أحد عشر لواء جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر[2] من يمر به من المسلمين أولى القوة وأن يسير لقتال المرتدين .

احتفظ أبو بكر للمدينة بقوة تحميها كانت دون الألوية عدداً . ذلك أن المدينة كانت يومذاك بمأمن من غارة المغير ، وكانت فى رخاء زاد أهلَها اطمئنانا للحياة . وكيف لقبيلة أن تُغير عليها والغاراتُ توجَّه منها إلى كل صوب ، وقد تداول سمعُ الناس من أنباء جندها المظفَّرِ ومالَهُ من الأيْدِ[3] والبسالة ماجعل دفعَ هذا الجند غايةَ مايطمع فيه الثائرون بها ! .

أبو بكر بمركز القيادة :

ومن يومئذ أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها . ولم يكن ذلك رغبة منه عن مشاركة المسلمين فى مواقعهم ، بل لأن المدينة أصبحت مكان القيادة العامة للجند كله ، والمرجع الذى تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر فقد كان مما أمر به أبو بكر قوّاده ألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلَّب عليها إلى مواجهة أخرى لمقاتلتها حتى يستأذنه ؛ وذلك إيماناً منه بأن وحدة القيادة فى الحرب بعضُ ماتقضى به السياسة الحكيمة ، وما يكفل الغلبَ والفوزَ .

أمراء الألوية من المهاجرين :

وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الألوية للمهاجرين ولم يجعل لهم منها نصيباً . وهو إنما فعل هذا ليبقى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها ، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها[4] . أما ماظنه بعضهم من أنه استبقاهم حذراً منهم بعد الذى أبدوْه فى سقيفة بنى ساعدة فلا مسوِّغ[5] له . فهذه الألوية إنما عقدت لقتال المرتدين . ولم يكن الأنصار دون المهاجرين إيماناً بالله ورسوله ،

---

(١) جم : ارتاح .
(٢) يستنفرهم : يدعوهم إلى الخروج للقتال .
(٣) الأيد : القوة .
(٤) الذود عن حياضها : الدفاع عن حماها
(٥) مسوغ : مبرر .

فالحذر من ناحيتهم فى هذا القتال لامسوّغ له . ولو أن مثل هذا التأويل ساغ فى شأن الأنصار لساغ كذلك فى شأن كبار المهاجرين أمثال علىّ ، وطلحة ، والزبير ، ممن أقاموا كما أقام عمر بن الخطاب بالمدينة ليشيروا على أبى بكر ، فيكون مركز القيادة العامة قوياً بهم وبما يضعون من خُطَط ويدبّرون من أمور .

أبو بكر فوق الشبهات :

ممّ كان أبو بكر يحذَر أو يخشى ؟ إنه لم يتول الخلافة رغبة منه فيها ، بل لأن أولى الرأى بالمدينة رأَوْه أصلحَهم لها . ولقد أبدى منذ تولاها من التقدير لأعبائها مايشهد بأنه قبِلَها مضحياً فى سبيل الله . كان مما قاله وهو يخطب الناس بعد قليل من تمام بيعته : «أما بعد ، فإنى وَلِيتُ هذا الأمر وأنا له كاره . ووالله لَوَدِدْتُ أن بعضَكم كفانيه ! » . وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوكُ» . فرفع الناس رءوسهم دهشاً فقال : «مالكم أيها الناس ! إنكم لطعَّانون عَجِلون . إن من الملوك من إذا ملك زهَّده الله فيما بيده ، ورغَّبه فيما بيد غيره ... فهو كالسراب الخادع ، جَذِلٌ[1] الظاهر ، حزين الباطن » وكان منزل أبى بكر بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة منزلا بدوياً صغيراً لم يغير منه ولاغيّر من منزله بالمدينة بعد مابويع . بل أقام به ستة أشهر يغدو على رجليه من السُّنْح إلى المدينة ، وربما ركب فرساً له . وكان يتَّجر فى الثياب فلما رأى أعباء الدولة أشق من أن تتفق والتجارة قال : «لا والله مايصلح أمر الناس والتجارة ! ومايصلح لهم إلا التفرغُ والنظرُ فى شأنهم . ولا بدّ لعيالى مايصلحُهم » . وترك التجارة ووظف[2] له من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله . فلما حضرته الوفاة قال : «ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وإن أرضى بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . قال عمر بن الخطاب وهو يستولى على هذه الأرض بعد ما استخلف : «لقد أتعب أبو بكر مَنْ بعده » .

رجل ذلك شأنه مِمّ يحذَر ! وما كان عسى أن يحذر يوم عقد الألوية الأحدَ عشرَ وكانت مكانته قد توطدت بين المسلمين ، بل بين العرب جميعاً بما أبدى من حزم وحسن رأى وصدق إيمان وحرص على التضحية كانت كلُّها بعضَ صفاتِه فى جميع أدوار حياته ، ثم بلغت أَوْجَ[3] قوتها وصفائها فى هذه الآونة التى جلَّل الشيب فيها رأسه بعد أن تخطى الستين وتولى خلافة رسول الله . لذلك لم يخامر[4] أحداً الريبُ فى مقاصده ، ولم يتردد أحد فى تنفيذ ما أمر به .

لواء خالد بن الوليد :

لقد كان اللواء الذى عقده لخالد بن الوليد أمنع الألوية الأحد عشر وأقواها ، وكان به خِيرةُ المقاتلة من المهاجرين والأنصار . ولعل خالداً هو الذى اختارهم . وسترى من بعدُ أنهم أَبْلَوْا[5] فى حروب الرّدّة خير بلاء ، ثم كان لهم فى حروب العراق والشام بلاء لا تُبليه[6] الأيام ، ولايجنى عليه النسيان .

خالد عبقرى الحرب :

لاعجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالدٌ عبقريًّا فى الحرب

---

(١) جذل : فرحان .
(٢) وظف : رتب .
(٣) أوج : قمة .
(٤) يخامر : يداخل .
(٥) أبلوا : اجتهدوا .
(٦) لاتبليه : لاتفنيه .

لايغلب . آتاه الله موهبتها ، كان بطلا مقداماً وفارساً مغامراً ، ثم كان له من سلامه الحكم وسرعته مايجنِّبه كلَّ خطر للمغامرة أو الإقدام وكان مداوراً فى الحرب أُلهِمَ سرَّها ، وتجلَّى له ماجل ودق من أمرها ، وقد سمّاه رسول الله «سيف الله» حين تولى أمر الجيش «بمؤتة» ، فداور به فى وجه الروم ثم ارتد به سالماً لم ينتصر ولم يلحقه عار الهزيمة ، وبقى خالدٌ سيفَ الله فى كل وقائعه إلى أن مات .

وكان خالد قبل إسلامه بطل قريش المغوارَ وفارسها المُعْلَمَ . وكان له من صفات الجندى خشونة فى الطبع ، وميل إلى الشدة والبطش ، وتسرع لولا سلامة حكمه لأضرّ به . من ثمَّ كان لا يهاب الأقران ولا يخشى أحداً . لما ذهب رسول الله إلى مكة فى عمرة القضاة بعد عهد الحُدَيْبِيَةِ ثم عاد إلى المدينة ، وقف خالد بن الوليد فى جمع من قريش يقول : «لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولاشاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لبّ أن يتبعه» . ودار لذلك بينه وبين عِكْرِمة بن أبى جهل حوارٌ لم يبلغ العنفُ فيه مبلغاً تخشى مغبَّته[1] . ولم يكن أبو سفيان حاضراً هذا الاجتماعَ . فلما بلغه إسلام خالد بعث فى طلبه وسأله : أحقٌّ مابلغه عنه ؟ أجابه خالد أنه حق ، وأنه أسلم ، وشهد برسالة محمد ؛ فغضب أبو سفيان وقال : «واللاّتِ والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد»[2] . وكان جواب خالد فى حدّة المعتز بنفسه : «فوالله إنه لحَقٌّ على رَغم من رَغِمَ» .

ولَحِق خالد بالمدينة ، فلم يلبث أن سَمَتْ مكانته بين المسلمين بوصفه محارباً .

الهجوم السلمى :

هل سيرَّ أبو بكر هذه الألوية الأحدَ عشرَ للقتال أول ماتم تجهيزها ؟ وهل سيرها كلَّها دفعةً واحدةً ؟ ذلك مايذكره بعض الرواة وإن دلَّت الوقائع على خلافه . لكنه على كل حال لم يسيِّر أوّلها حتى بدأ بهجوم سلمى مهّدبه لها خير تمهيد . فقد أذاع فى الناس من أهل شبه الجزيرة جميعاً كتاباً تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلّغ ماأمره الله أن يُبلغه للناس ، وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : «إِنَّكَ مَيِّتٌ وإنّهمْ مَيِّتون» . وقال : «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَئِنْ مِتَّ فَهُمْ الخَالِدُونَ» .وقال : للمؤمنين : «وَمَامُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُول قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ أفئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيئاً وَسَيَجْزِى الله الشَاكِرِين» .

وإنما أراد الصدِّيق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ماثار من الفتنة بقول الذين قالوا : لو أن محمداً كان رسولا حقاً مامات . وبعد أن فرغ من ذلك ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال : «وقد بلغنى رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً[3] بالله عز وجل ، وجهالة لأمره وإجابة للشيطان .. وإنى قد أنفذت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته

(١) مغبته : عاقبته .
(٢) يواجه خالدا بالتحدى ، والإصرار عليه ، حتى ولو ثبتت صحة الدين الجديد .
(٣) اغترارا بالله : جرأة عليه .

ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوَه إلى داعية الله . فمن استجاب وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قَبِلَ منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، أن يقاتله على ذلك ، ولايُبق على أحد منهم قَدَر عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى[١] النساء والذرارى ، ولايقبل من أحد إلا الإسلام . فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجزَ الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم . والداعية الأذان» . لذلك كان المسلمون إذا أذّنوا فأذّن الناس كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا سألوهم ماهم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم .

جد الصديق فى هجومه السلمى :

على أن أبا بكر لم يقصد من هجومه ذاك مداورة يقف عندما ، فإن أنتجت أثرها فذاك ، وإن لم تنتجه التمس وسيلة غيرها لهجوم سلمىّ آخر . كلا ! بل لقد كان جادًّا كلَّ الجد فى كل كلمة من كلمات كتابه ، وفى كل صورة من صور التهديد التى ذكرها فيه . فهو لم يلبث حين أتم هذا الكتاب يُعْذِرُ[٢] فيه للمرتدين ويُنذرهم أن كتب إلى أمراء الألوية عهداً لقتال مَنْ رجع عن الإسلام أن يجاهدوهم بعد أن يُعْذِروا إليهم فيدْعوهم بدعاية الإسلام . فإن أجابوا الأمير على جند المسلمين أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم مالهم ، ولايُنْظرهم . ومن يُجِبْ الدعوةَ لم يكن لأحد عليه سبيلٌ ، وكان الله حسيبه[٣] بعدُ فيما استسرّ به . أما من لم يجب داعى الله فليُقتلْ وليُقَاتَلْ حيث كان ، ولايقبل منه إلا الإسلامُ ، وليقتل بالسلاح والنيران .

سياسته وتأويل حزمه .

بهذين الكتابين وبالألوية التى عقدها أبو بكر تمّ التجهيز لحروب الردّة . وأنت ترى فى هذا كله صورة صحيحة للسياسة الحازمة التى اتبعها أبو بكر فى خلافته . وقد يحسبها البعض عجباً من أبى بكر مع ما عرف عنه من لين الطبع ودماثة الخلق والحرص على تأليف القلوب بالحسنى . ولكنها ليست عجيبة ألْبَتَّةَ ، وإيمانُ الصديق بالله ورسوله لم يعرف الترددُ يوما إليه سبيلا . والطبائع الرفيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة فى مألوف ما بين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمرُ بشئ يؤمن أصحاب هذه الطبائع به ، فلن تقاس بشدتهم شدةٌ ولا بقوتهم قوة . وكأنما رُكِّب فى الفطرة الإنسانية مقدارٌ من الشدة واللين يتقارب قدره فى كل فرد من الناس جميعاً ، ثم يتفاوتون فى تقدير الأوقات والمناسبات التى تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين . فمنهم من تغلب الشدةُ طبعَه أكثرَ الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يلين أبداً . ومنهم من تغلب الرقة طبعه أكثرَ الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يشتد أبداً والواقع أنك ترى من تغلب الشدة طبعه يلين أحياناً ، فإذا به يبلغ فى رقته وفى لينه حداً لا يجده الإنسان فيمن ألف منهم لين الجانب ورقة الطبع . والذين تغلبهم الرقة معظَم الوقت وتبلغ حدَّ التألم للغير والبكاء لشقائه ، يصلون من البأس والبطش أحياناً إلى حد لا يجدُه الإنسان فيمن كانت الشدةُ بعضَ طبعهم .

أفكان يظن أحدٌ أن يقف أبو بكر من بعث أسامة ذلك الموقف الحاسم مخالفاً كبارَ المسلمين ، مهاجريهم

---

(١) يسبى : يأسر .
(٢) يعذر لهم : لايبق لهم عذرا .
(٣) حسيبه : كافيه .

والأنصار ، أو أن يشتد فى أمر الذين منعوا الزكاة لايصدُّه عن قتالهم غياب جيش المسلمين عن المدينة ؟ ! وسترى له من بعد مواقف كهذه تثير عجبك وإعجابك لبأس رجل كلُّه الرقة والرفقُ ولينُ الجانب .

وقد بيَّنا تأويل ذلك من قبل حين تحدثنا عن إيمان الصدّيق بالله ورسوله . كان هذا الإيمان عنده هو الحق لاحقَّ غيرُه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان حقًّا كلُّه ، فصَّله الله فى كتابه الذى أوحاه إلى محمد عبدِهِ ورسولِه . فإذا جاز أن يساوم الناس بعضُهم بعضاً على أمر فى الحياة ، فلن تتناول المساومةُ هذا الحقَّ المتصل بالله جل شأنه ، والذى لايملك أحد من أمره إلا التسليمَ به والإذعانَ له . فمن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبى بكر معه إلا أن يقاتله حتى يردَّه إلى الحق أو يقتله . وهو يقاتله ولو كان الصدّيق وحده ، ولو لم يبق فى القرى غيرُه . كذلك كان فى أمر من منعوا الزكاة . فأحْرِ به [١] أن يكونه فى أمر من تمَّت ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله .

* * *

---

(١) أحربه : أجدر به .

المناقشة

١ - « ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم ، فما كان ليذرهم فى شتى الأنحاء من شبه الجزيرة يثورون به وبدين الله ، وما كان ليصالحهم أو يوادعهم قبل أن يثوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين » .

(أ) ما معنى (المبرم - ويذرهم - ويثوبوا) ؟ .

(ب) فى العبارة هدف ، ومبرراته . وضح بعبارتك .

(ج) ماذا أفاد وصف القضاء بالمبرم ؟ وعطف يوادعهم على يصالحهم ؟

(د) لماذا لزم الخليفة المدينة فلم يبرحها ؟ .

٢ - « وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الألوية للمهاجرين ، ولم يجعل لهم منها نصيبا ، وهو إنما فعل ليبقى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها ، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها » .

(أ) مامرادف (الذود) ؟ ومامفرد (حياض) ؟

(ب) لم يكن الخليفة فى اختياره القواد يجامل أو يخشى ملامة . وضح ذلك بعبارتك .

(ج) على الرغم من هذه الملاحظة لم يتنكر الأنصار لواجبهم . فما دلالة ذلك ؟ .

(د) يدفع الكاتب بالعبارة السابقة شبهة لايرى لها مبررا . بين ذلك .

٣ - « لاعجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالد عبقريا فى الحرب لايغلب ، آتاه الله موهبتها ، كان بطلا مقداما ، وفارسا مغامرا ، ثم كان له من سلامة الحكم ، وسرعته مايجنبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام . وكان مداورا فى الحرب ألهم سرها ، وتجلى له ماجل ودق من أمرها » .

(أ) ما معنى (عبقريا - ومداورا) ؟

(ب) فى العبارة مقومات قيادة ناجحة . وضح كلا منها ، مبينا مدى حاجة القائد المعاصر إليها .

(ج) هذه المقومات تتكامل ، ويحتاج بعضها بعضا . بين ذلك .

(د) وضح ماتوحيه (موهبتها - ألهم سرها - تجلى له - ماجل ودق) .

٤ - « والطبائع الرفيقة تأبى العنف ولاتميل إلى الشدة فى مألوف مابين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمر بشىء يؤمن أصحاب هذه الطبائع به ، فلن تقاس بشدتهم شدة ، ولابقوتهم قوة ، وكأنما ركب فى الفطرة الإنسانية مقدار من الشدة واللين يتقارب قدره فى كل فرد من الناس جميعا ، ثم يتفاوتون فى تقدير الأوقات والمناسبات التى تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين » .

(أ) هات عكس (تأبى - مألوف - يتفاوتون) . ضع ما تأتى به فى جملة من عندك .

(ب) ناقش فكرة الكاتب فى العبارة ، واحتج لها ببعض ماعرفت من سيرة الصديق .

(ج) لماذا خصص القضية التى صدر بها العبارة بقوله (فى مألوف مابين الناس من تجارة الحياة) ؟ .

(د) إذا جازت المساومة فى أمور الحياة فلن تقبل فى حقوق الله . وضح ذلك ، وعلل له .

* * *

طليحة وغزوة البزاخة

باءت[1] عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم فى مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت[2] إلى طُلَيْحة ابن خُوَيلد الأسدىّ . وانضم إلى هؤلاء قبائل طيىء وغطفان وسُلَيْمْ ومن جاورها من أهل البادية الواقعة شرق المدينة وإلى شمالها الشرق . وكانوا جميعاً يقبلون مايقوله عُيَينة بن حصْن ومن معه من بنى فَزارة : «نبى من الحليفين ــ يعنون أسداً وغطفان ــ أحب إلينا من نبىٍّ من قريش . وقد مات محمد وطليحة حىّ» .

ولم يكن هؤلاء فى ريب من أن أبا بكر سيتجهّز ويحاربهم . ولكنهم أصروا على مناهضته ، وعلى متابعة طُليحة ، تمرداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يُؤْتوا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤديها التابع للمتبوع . وكان طليحة يقيم بسميراء ، ثم انتقل منها إلى بُزَاخة يحسبها أمنع موقعاً وخيراً فى الحرب مكاناً .

تنبؤ طليحة :

وطُلَيحة لم يتنبأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ فى العهد الأخير من حياته شأنه فى ذلك شأن الأسودِ العنسىِّ ومُسيلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعُهم غيره من المتنبئين إلى العودة لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية فى بلاد العرب قضاءً مبرماً ، فامتدت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واستقرت فى النفوس استقرارٌ جعل التفكير فى الأصنام ضرباً من الهذيان يستحى منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المتنبئون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتى محمداً . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحىَ إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهى من السَّخَف بحيث يتعذر على أى إنسان أن يتصور كيف يرضى متنبىءٌ إذاعتها باسمه فى الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتَّبعونه حين يرونه ينسب هذا الهَذَرَ[3] إلى الوحى ويدعى أنه من كلام رب العالمين .

مايزعم طليحة أنه وحى :

وحَسْبُك أن تتلو ماقيل إن طُليحة زعم أنه أوحى إليه لترتاب فى أن يدّعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعدُ فى الإسلام مواقف لايزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح فى إبّان[4] عهد عمر بن الخطاب . ومما تذكر الروايات عما زعم طُليحة أنه أوحى إليه قوله : «والحمام واليمام ، والصُّرد الصوّام ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام» .

---

(١) باءت : رجعت .

(٢) انحازت : انضمت .

(٣) الهذر : سقط الكلام .

(٤) إبان : أوان .

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهّان فى الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشاً حاربت محمداً بأنه كاهن ، وبأن مايوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبى أن هذه الدعاية هُراء[1] حين تُوجّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعاً أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً[2] . ولقد كان طُليحة كاهناً ، كما كان العنسىّ كاهناً . أفهذا السجع الذى ادّعَوْه وحياً كان من سجع الكهان ؟ ! لئن صح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازاً من المشعبذين أعجب طراز ، ولقد كان ماينسب إليهم من الحكمة مما يُزرِى[3] بالحكمة .

موقف المسلمين من آثار المتنبئين :

وإنما ترجع قلّة مابقى لنا من آثار طُليحة ومُسَيلمة وأضرابهما إلى مثل السبب الذى ترجع إليه قلة مالدينا عن الأصنام ؛ فقد عفَّى المسلمون على ذلك كله ، وأنت تعرف أن المسلمين لم يدونوا فى الصدر الأول شيئاً إلا ماكان من جمع أبى بكر كتاب الله . فأمَّا جمعُ السنة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقَّة مالم يهوّنه إلا عظيم الرجاء فى مثوبة الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة فى كثير من الروايات عن طُلحية وغيره من المتنبئين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب فى حَضَرِهم وبدوهم ، ولم تتسق مع مايتصل بها من الأحداث والشئون .

النبى يأمر بقتال المرتدين :

تنبأ طُليحة فى بنى أسَد ، كما تنبأ الأسود فى اليمن ومسيلمة فى اليمامة ، فى حياة النبى . هناك وجَّه محمدٌ ضِرارَ بنَ الأزْورِ إلى عُمَّاله على بنى أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد . ونزل المسلمون وَارِدات ، ونزل طليحة ومن معه سميراء . وكان عدد المسلمين يزداد ، وعدد المرتدين ينقص . لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين فى شتَّى الميادين ، حتى همّ ضرار بالسير إلى طليحة لمقاتلته ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريح من هذا المتنبىء فضربه بالسلاح فنبا عنه ولم يُصبه . وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر فى الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لايجوز فى نبيّهم . وإن المسلمين ليتجهَّزون لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبأ بوفاة رسول الله ، فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهُرِعَ الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيّدونه . فلمَّا انحازت إليه عَبْسٌ وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بذى القَصَّة استغلظ أمره وظَنَّ أن لن يُغْلَب .

التورية والتفريق بين المرتدين :

اجتمعت هذه القبائل فى بزاخة معلنة ردتها وخروجها على سلطان المدينة . وتهيأ أبو بكر لقتالهم ، وبعث إليهم ، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة ، بكتابه يهددهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام . وكان خالد بن الوليد هو الموكل بطُلَيحَة وبمالك بن نويرة من بعدُ . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه وليناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى خَيْبَرَ حتى يلاقى خالداً فيُعينه على جموع المرتدين . ثم إنه طلب إلى عَدِىّ بن حاتم ، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة ، أن يذهب إلى قومه طيىء يخوّفهم عاقبة أمرهم إذا أصروا على ردتهم . ولم يقصد خالد إلى البزاخة من فوره ،

(١) هراء : كلام كثير فاسد .
(٢) ظهيراً : مؤيداً .
(٣) يُزرِى : يحقر .

بل جنح إلى أجأ وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة ثم ينصبّ الجيشان على البزاخة . وبلغ عدىٌّ قومه وقد ذاعت هذه الأنباء فى الناس .

وتحدَّث عدىٌّ إلى بنى طيىء يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وذكر لهم من عِدَّة المسلمين وعُدَدهم ماروّعهم وأفزعهم ، عند ذلك توجَّهوا إليه بالقول : «إذن فاستقبلِ الجيش فَنْهنِهْه عنا[1] حتى نستخرج مَنْ لحق بالبزاخة منا ؛ فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم وارتهنهم» . وفرح عدىّ بما بلغ من إقناعهم ، وكرّ راجعاً إلى السُّنْح فاستقبل خالداً وقال له : «ياخالد ! أمْسِك عنّى ثلاثا يجتمع لك خمسُمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك ، وذلك خير لك من أن تَعَجَّلَهم إلى النار وتَشاغل بهم» .

طيىء تعود إلى الإسلام :

لم يكن خالدٌ ليخفَى عليه ، وهو الخبير النابغة فى الحرب ، أن انسلاخ طيىء عن طليحة يضعفه ويفُتّ فى عضده ؛ لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، فى حين عاد عدىٌّ إلى قومه فألفاهم أرسلوا إلى إخوانهم بالبزاجة أن يأتوهم مدداً يعاونهم على جند المسلمين قبل أن يهاجموا طُلَحية . وراقت هذه الحجَّة طليحة ، فتركهم ينصرفون إلى طيىء . فلما تحدثوا إلى قومهم وتحدث إليهم قومهم برأى عدىّ اقتنعوا وعاد عدىٌّ بإسلامهم إلى خالد .

وارتحل خالد نحو الأنسُر يريد جَديلَة . وتعرض له عدىٌّ كرةً أخرى فقال له : «إن طيئاً كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طيىء ، فأجِّلنى أياماً لعل الله ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث» . ولم يتردد خالد فى إجابته إلى ما طلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاء خالداً بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عدىٌّ خير مولود ولد فى أرض طيىء وأعظمه عليهم بركة . .

طليحة يصر على المقاومة :

بلغت أنباء طيىء وجَدِيلَة طليحة وهو فيمن بقى معه بالبزاخة . ولست فى حاجة إلى أن أذكر ماوهَّنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته لكنه أصرّ مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وماكان له أن يفعل غير ذلك ، وإلى جانبه عُيينة بن حِصْن على رأس سبعمائة من فَزارة ، وهو أشد الناس حنقاً على أبى بكر وحرصا على توهين سلطان المسلمين . فعُيينة هو الذى كان على رأس فَزارة فى غزوة الأحزاب ، ثم إنه هو الذى أراد الإغارة على المدينة بعد قليل من هزيمة الأحزاب ، فصده رسول الله ، وحمله على الفرار فى غزاة ذى قَرَد . فإن يكن قد أسلم بعد مواقفه تلك ، فإنما أسلم مُذعناً للقوة التى لاتُغْلَبُ .

الطائيون يقاتلون قيساً :

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدين ، وكانت قيس وبنو أسد متجهزين حول طُلَيحة للقتال . قال قوم من الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نكفيَه قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا . فقال : والله ماقيسٌ بأوهن الشوكتين ، اصمدوا إلى أىّ القبيلتين أحببتم .

---

(١) نهنهه : كفه عنا .

عيينة يقود وطليحة يتنبأ :

وكان عُيينة بن حِصن هو الذى يقود المعركة فى جانب طليحة فى حين كان طليحة يقيم فى بيت من الشّعر ملتفاً فى كساء له يتنبأ للناس . فلما حمى وطيس الحرب ورأى عيينه قوة خالد والمسلمين كرّ على طليحة يسأله : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ازداد وطيس الحرب ضراماً كرّ راجعاً إلى طُليحة يقول : لا أبالك ! أجاءك جبريل بعدُ ؟ قال : لا والله . قال عيينة حتى متى ! والله لقد بُلغ منا . ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابة ، فرجع إلى طُليحة فزِعاً يكرر : هل جاءك جبريل بعدُ ؟ قال : نعم ، فماذا قال لك ؟ قال طليحة : إنه قال لى : «إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لاتنساه » . ولم يتمالك عُيينة حين سمع الهَذَرَ أن صاح : قد علم الله أنْ سيكون حديث لاتنساه . ثم نادى فى قومه : انصرفوا يابنى فزارة فإنه كذّاب ! .

هزيمة طليحة وفراره :

وانصرف الناس يُولُّون الأدبار . ومرّ قوم بطليحة ينادونه : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيرا لامرأته النَّوَار . فلما بَصُربالناس يغشونه وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل أمرأته ونجا بها ، وهو يقول : «من استطاع أن يفعل منكم مثل مافعلت وينجو بأهله فليفعل » ، ولحق بالشام .

طليحة يعود إلى الإسلام :

ثم عاد إلى الإسلام ، وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً فى خلافة أبى بكر ، فمرّ بجنبات المدينة ، فذكر بعضهم لأبى بكر مكانه ، فقال : «ماأصنع به ! خلُّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطاب أتى طليحةُ يبايعه ، فقال له عمر : أنت قاتل عكَّاشةَ وثابتٍ ! والله لا أحبُّك أبداً ! قال : ياأمير المؤمنين ، مايُهِمُّك من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يُهِنِّى بأيديهما ، فرضى عمر بَيْعته ، ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

خالد يقاتل فلول البزاخة :

انصرف عُيَينة بن حصن فى قومه . وفرّ طليحة على فرسه أفكان ذلك آخر النضال بين خالد والقبائل التى وقفت فى صف طليحة ؟ قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، ولكن الواقع أن خالداً بقى فى عسكره بالبزاخة شهراً كاملا ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقى على ردّته .

سبب إصرار الفلول على ردتها :

يجمل بنا أن نسأل : مابال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجع بنو أسد قومُ طليحةَ وأعرفُ الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهم العقل بعد ماتبيّنوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزؤًا فعدل عنها إلى عبادة الواحد لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا فى أمر الزكاة ، لأن حب الناس المال أقوى فى نفوسهم من كل شىء غيره . لكنهم كانوا يودون لو تحللوا من الصلاة

ومن سائر التكاليف التى فرضها الإسلام عليهم . وهم إنما اتبعوا طُليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ، ليحطّوا عن عواتقهم مافرضه الإسلام عليهم . فإذا ثبتوا بعد فرار طليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون فى نصر يجعل أبا بكر يصالحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ويحقق لهم ماكانوا يرجونه من مصانعة طُليحة .

وثَمَّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لاينفضّون بفِرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلَّب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم فى ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيحت له فرصة للثأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكةً أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية[١] التى جعلتهم يولون منها فراراً ويمتلئون رعباً . فليهتبلوا[٢] هذه الفرصة التى أتاحتها المقادير لمواجهة خالد وليثبتوا له ، لعلهم يكونون أحسن حظًّا مما كانوا على عهد محمد ، ولعلهم يستعيدون لقبائل البادية ذلك الاستقلال العزيز عليهم بعد أن تقلّص ظلّه أو كاد . وكانت بنو عامر تُقَدِّم للردَّة رِجْلاً وتؤخر أخرى تنتظر مايصير إليه أمر قيس وبنى أسد . فلما هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه . وبايعهم خالد على مابايع عليه أهل البزاخة من أسَد وغَطَفان وطيىء قبلهم . فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طيىء إلى الإسلام أثره فى طليحة ومن انحازوا إليه .

بطش خالد بالذين قتلوا المسلمين :

ثم إن خالداً أخذ الذين قتلوا المسلمين من مختلف القبائل بشدة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبَل من غطَفان وهوازن وسُلَيم وطيىء حين وادعهم إلا أن يجيئوه بالذين قتلوا وحرّقوا ومثّلوا وعدَوْا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين ردّتهم . فلما جىء بهم صفح عن الأذناب ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قُرّة بن هُبَيرةَ ، فأوثقهم ، ومثّل بالذين عَدَوْا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم فى الآبار ، ورضَخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قُرّة بن هُبيرة وعُيَينة بن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسرَى إلى أبى بكر .

أبو بكر يقر سياسة خالد :

لم تأخذ أبا بكر فى الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ماأنعم الله به عليك خيراً . واتق الله فى أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جدّ فى أمر الله ولاتَنِيَنّ . ولاتظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرةً ، ومن أصبت ممن حادَّ الله أو صادّه ممن ترى فى قتله صلاحاً فاقتله » .

الصديق يحقن دم الأسرى :

على أن أبا بكر اتخذ فى معاملة الأسرى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدة .

---

(١) الصرصر : الشديدة البرد أو الصوت ، والعاتية : العنيفة .

(٢) يهتبلوا : ينتهزوا :

فقد رأيت ما كان من عُيَينة بن حصن ومحالفته طليحة وقتاله المسلمين ، ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه ،

أما قُرّة بن هُبيرة فكان فى بنى عامر ، وهم يقدّمون للرّدّة رِجْلاً ويؤخرون أخرى ، فلما أرسله خالد أسيراً إلى المدينة وجىء به إلى أبى بكر تجاوز عنه ، وحقن دمه .

بين الشدة واللين :

لم تكن سياسة الصفح سياسةَ هوادة أو تردد من أبى بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان فى تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبى بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد .

لم يقبل من الفجاءة إياس بن عبد ياليل ولم يحقن دمه . فقد قدم الفجاءة هذا على أبى بكر فقال له : أعِنِّى بسلاح ومُرنى بمن شئت من أهل الرّدّة . فأعطاه سلاحاً وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شَنَّهَا غارة على المسلمين والمرتدين على سواء . عند ذلك أرسل أبو بكر طُرَيْفَةَ بن حاجز فى رجال قاتلوا الفجاءة ومن معه وجاءوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار ، ثم رُمِى به فيها فمات حرقا . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين من قتل لما أصابته هذه الميتة القاسية التى أسف أبو بكر لقسوتها من بعدُ وتمنَّى لو لم تكن كذلك .

فلول أم زمل :

تداول الناس أنباء أبى بكر وعفوه عمن رجع إلى الإسلام بعد ردته فسكنت حدة القبائل التى ناصرت طليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولاً من غَطَفان وطيىء وسُليم وهوازن وغيرها تجمعت واجتمعت إلى أم زِمْل سلمى بنت مالك وعاهدتها أن تقف وإياها فى وجهه حتى الموت . وكان لأم زِمْل عند المسلمين ثأر لم يندمل جرحه رغم مرّ السنين .

وأم زِمْل هذه هى بنت أم قِرْفة التى قُتلتْ أيام النبى أشنع قتْلة . فقد خرج زيد بن حارثة يوم ذاك إلى بنى فَزارة فلقيهم بوادى القرى فأصابوا رجاله ، وأصيب هو بجرح مميت حُمل على أثره إلى المدينة فلما برئ رده رسول الله إلى بنى فَزارة فى جيش فقتلهم وأصاب فيهم وأسر منهم . وكانت أم قرفة فاطمة بنت بدر بين الأسرى . وكانت هى التى تحرض قومها فى الموقعة الأولى التى أصيب فيها زيد ، فلما ظفر بها أمر بقتلها فقُتلت ، وسُبيت ابنتها أم زمل ، فوقعت لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها ، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها . وقد بقى مقتل أمِّها أمام عينيها يُقِضُّ مضجعها ألاّ تجد إلى الثأر له الوسيلة . فلما كانت الردة ارتدت ووجدت من فلول هذه القبائل عونها على أن تأخذ بثأرها لتهدأ ثائرتها وتسكن حفيظتها .

وكانت أمها أم قرفة فى عِزّة ومكانة من قومها ، وكانت ابنتها فى مثل عزها وكان لها من المكانة فى قومها ما كان لأمها . فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التى قابلت أبا بكر وخالدا ركبت جملها وسارت بينهم وجعلت تدعوهم لحرب خالد وتشجعهم ، واجتمع مع هذه الفلول كل شرير وكل مضيق عليه حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها . فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس

وتسكينهم ، سار إليها يقاتلها .

والتقى الجمعان وحَمى وطيس القتال واشتدت الحرب ، وأم زِمْل على جملها تحرض رجالها وتدفعهم إلى المعركة ، فيندفعون مستبسلين لايبالون ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدتها واستماتتها فى محاربته فجعل مائة من الإبل لمَنْ ينخس جملها . واندفع فوارس المسلمين نحوها ، فلما وصلوا إلى جملها عقروه وقتلوها وقضوا بذلك على فتنتها .

الموقف بعد هزيمة طليحة :

أو لم يكن هذا المثل الذى ضربه أبو بكر يكفى العرب كى يرجعوا فى سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام ؟ ! لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفه رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طُليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يُذعنوا إنهم رأوا نبىّ قريش ينشر فى العرب لواءه ويمد عليهم سلطانه ، فلم لايكون لكل قبيلة نبىّ يرد عنها قريشاً إن لم ينشر فى مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادَّعَوْا النبوة فيها أن محمداً قام فى قريش يدعوها إلى الله لايريد فيها سلطاناً ولايبتغى منها جزاءً ولاشكوراً ، وأنه قام بأمر ربه ، فقضى عشر سنوات فى جهاد ، أى جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلُّها العداوة ، وتتعرض حياته وحياة من اتَّبعوه للخطر ، ويأتمر به خصومه ليقتلوه ويخرجه قومه من دياره مهاجراً إلى المدينة ، حتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبى إسلامها . نسى الذين ادعوا النبوة هذا كله ، وخيّل إليهم أن بلوغ الغاية التى بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدّعون النبوة زوراً بهتاناً .

* * *

المناقشة

١ - « لم يكن خالد ليخفى عليه ، وهو الخبير النابغة فى الحرب أن انسلاخ طيئ عن طليحة يضعفه ويفت فى عضده ، لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، فى حين عاد عدىٌّ إلى قومه فألفاهم أرسلوا إلى إخوانهم بالبزاخة أن يأتوهم مددا يعاونهم على جند المسلمين قبل أن يهاجموا طليحة » .

(أ) ما المقصود بقوله (انسلاخ) ؟ وما معنى (ألفاهم) ؟

(ب) فى العبارة تدبير بارع . تحدث عنه ، وبين أثره الذى أحدثه .

(ج) ما قيمة وصف خالد بالخبير والنابغة فى هذا المقام ؟

(د) كان لعدى فضل آخر إلى هذا الفضل تكلم عنه ، وعن قدرته على التأثير والإقناع .

٢ - « فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوة محمد ، ولم يؤمنوا به ، وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزؤا فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد ، لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه » .

(أ) ما مرادف (أذعنوا - وهزؤا) ؟ وما عكس (يتحللوا) ؟

(ب) فى العبارة تصوير لبعض من طبائع الأعراب ، ومن عوامل الردة . اشرحها بأسلوبك .

(ج) لماذا جاء بقوله (الأحد) بعد (الواحد) ؟

(د) كان ثمة سبب نفسى آخر جعلهم لا ينفضون بفرار طليحة . وضحه .

٣ - ماذا فعل خالد بالذين قتلوا المسلمين من القبائل ؟ وماذا أحدث ذلك من أثر ؟ وما موقف الخليفة مما فعله ؟

٤ - ماذا فعل الخليفة مع الأسرى ، وما مرجع الخلاف بين ما فعله ، وموقفه السابق .

٥ - لخص قصة أم زمل ، واستخلص العبرة منها .

* * *

سجاح[1] ومالك بن نويرة

بنو تميم ومنازلهم :

منازل بنى تميم تحاذى المدينة من الشرق ممتدة نحو الخليج الفارسى ، وتتصل من ناحية الشمال الشرق بمصب الفرات . وكان لبنى تميم بين قبائل العرب فى الجاهلية وفى عهد الرسول مقام ، لما ظهر فيها من خصال الشجاعة والكرم ، ولما نبغ بين رجالها من الأبطال والشعراء .

إباؤهم أداء الزكاة فى عهد النبى :

ولقد أدّى اتصال هذه القبائل بمصب الفرات وبالخليج الفارسى إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدّى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية وإن بقى أكثرهم يعبدون الأصنام . فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضيةً نفوسُهم ، لذلك كانوا فى مقدمة القبائل التى أبتْ أداء الزكاة حين بعث رسول الله جُباته يقتضونها من الناس . فلما ذهب عُيَينة بن حصْن بأمر الرسول فقتَل وسبَى منهم ، ذهب وفد من أشرافهم إلى المدينة ، فأعتق النبى أسراهم وردهم إلى قومهم راضيةً نفوسُهم .

وقبض رسول الله وله فى تميم عُمّال ، بينهم مالك بن نُوَيْرة على رأس بنى يربوع . وقد اختلف العُمّال حين بلغتهم وفاة النبىّ ما يصنعون : أيؤدون الزكاة لأبى بكر أم يقسمونها بين الناس . وكان لما بينهم من تنافس أثر بيّن فى اختلافهم ذاك . بل لقد أدى هذا التنافس إلى أن يقاتل بعضهم بعضًا .

مجىء سجاح إلى تميم :

كان مالك بن نويرة فيمن ردوا الزكاة لأصحابها ولم يروْا لأبى بكر حقًّا فى اقتضائها . بذلك أصبح عدوًّا للمسلمين مَعرَّضًا لإغارتهم عليه .

وبينما القوم فى اختلافهم فجأتهم سَجاح بنتُ الحارث مقبلةً من أرض الجزيرة بالعراق يحيط بها رهطها من تَغْلب ، وتقود معها جنداً من ربيعة والنمر وإياد وشيبان . وكانت سجاح تميميَّة من بنى يربوع وكان أخوالها من تغلب بالعراق . وقد تزوجت فيهم ، وأقامت بينهم ، وكانت امرأةً ذكية ، تَدّعى الكِهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال . فلما ترامى إليها أن محمداً أدركته الوفاة ، جاءت فى رهطها وفى القبائل المحيطة بها تريد أن تغزو المدينة وأن تقاتل أبا بكر .

السبب فى مجئ سجاح :

يرى بعض المؤرخين ، أن سجاجِ لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب لكِهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعُمّالهم فى العراق كى يزيدوا الثورة فى بلاد العرب

---

(١) سجاح : من الأسماء الملازمة للبناء على الكسر.

ضرامًا[١] ، ليستعيدوا ما كان لهم فى كثير من أرجائها[٢] من سلطان بدأ يأفل[٣] منذ أقام محمد بَذْهان عاملا له على اليمن ، بعد أن كان بدهان عامل كسرى عليها .

وقد يرجح روايةَ هؤلاء المؤرخين أن سجاح لم تلبث فى بلاد العرب إلا ريثما بثّت دعوة الانتقاض ، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها به .

وليس عجبًا أن يتخذها الفرس أداة لإذكاء[٤] الثورة فى بلاد العرب وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرّد لها جيش فارسى يقاتلها ، وإن كانت مع ذلك جديرة بأن تُردَّ إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها . ولا شيء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد الذى جعل أبناءها يعتدون بأنفسهم ، وإن لم يعتدّ الفرس بهم .

موقف تميم :

جاءت سجاح إلى شبه الجزيرة متأثرة بهذه العوامل . وكان طبيعيًّا أن تجعل وجهتها أول نزولها بلاد العرب إلى قومها بنى تميم . وقد فجأتهم وهم مختلفون فيما بينهم : يقول قوم بإيتاء الزكاة واتباع خليفة رسول الله ، وينكر آخرون هذا وذاك ، ويتردد أقوام فهم فى حيرة ؛ ثم ينشأ عن هذا الاختلاف قتال بينهم يشتد حينًا ويهدأ حينًا . ورأت هذه البطون من بنى تميم مَقْدم سجاح وعرفوا عزمها على قتال أبى بكر ، فازدادوا بين الإسلام والردة اضطرابًا .

سجاح ومالك بن نويرة :

وقفت سجاح فى جندها على حدود بنى يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة . وأجابها مالك إلى الموادعة ، لكنه صرفها عن عزمها على لقاء أبى بكر وحرضها على قتال من اختلف معه من أحياء بنى تميم . واقتنعت سجاح برأيه ، ودعت أمراء بنى تميم لموادعتها فلم يوادعها منهم مع مالك إلا وكيع . وأغارت سجاح فى جندها وجند مالك ووكيع على السَّريَّات فاقتتلوا ومات من الجانبين خلق كثير وأسر بعضهم من بعض ، ثم إنهم تصالحوا وترادّوا الأسرى ، وعاد السلام إلى بنى تميم .

هزيمة سجاح ومسيرها إلى اليمامة :

خرجت سجاح فى جنود الجزيرة وقد راجعها العزم أن تلقى أبا بكر . أما مالك ووكيع فقد صالحا قومهما بعد أن رأيا سخطهم على اتباعها هذه المتنبئة . وبلغت سجاح قرية النِّبَاج ، فلقيها أوس بن خُزَيمة فهزمها ، ثم ترادا الأسرى وصالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة . هنالك اجتمع رؤساء أهل الجزيرة وقالوا لها : ما تأمريننا ؟ قالت : « عليكم باليمامة ، ودفُّوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامه ، لا يلحقكم بعدها ندامة » . ولم يبق لهم بعد هذا السجع الذى زعموه وحيًا إلا أن يمتثلوا أمرها .

---

(١) ضراماً : اشتعالاً .
(٢) أرجائها : أنحائها ، مفردها رجا .
(٣) يأفل : يغيب .
(٤) لإذكاء : لإشعال .

فيم كان انقلابها إلى اليمامة وقد خانها الحظ بين قومها بنى تميم ، وخانها فى مسيرتها إلى أبى بكر ؟ الحق أن قصةَ سجاح كلّها عجبٌ ، وما روى عنها إلى فن القصص أقرب . فقد ذكروا أنها لما بلغت اليمامة فى رجالها هابها مسيلمة وخاف إن هو شُغل بها أن يغلبه جند المسلمين أو تغلبه القبائل التى حوله ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها . ثم إنهما تناظرا وتحادثا وأعجبت سجاح بمسيلمة وبحلو حديثه وما شرع لقومه ، وانتهت إلى الإيمان بتفوقه . فلما عرض عليها أن تجمع نبوّته إلى نبوّتها وأن يتزوجا لم ترفض طلبه .

ينزل عن صلاتين صداقاً لسجاح :

وعرف قومُها أنه لم يجعل لها صداقًا فقالوا لها : « ارجعى إليه ؛ فقبيح بمثلك أن تتزوج بغير صداق » . فلما رجعت إليه نزل للناس عن صلاتين : صلاةِ العشاء وصلاةِ الفجر ، إكرامًا لها . وانتهى الأمر به وبها على أن يحمل لها النصف من غَلات اليمامة وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه ، فاحتملته وانصرفت به إلى الجزيرة ، وخلّفت وراءها من رجالها من يحمل لها النصف الآخر . لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثما أقبلت جيوش المسلمين فهاجمت مسيلمة وقتلته . ولم تزل سجاح فى تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة إلى بنى تميم حيث أقامت مسلمة حسنة الإسلام إلى أن ماتت .

العجب من أمر سجاح :

هذه قصة سجاح بنت الحارث . وهى ـ كما قدمت ـ عجَبٌ كل العجب . وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبى بكر وقتاله ، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدث مالك بن نويرة إليها ، ثم انقلابها إلى اليمامة ولقائها مسيلمة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها ، وبقائها بعد ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوج من غيرهم !

وأمر مسيلمة معها أعجب العجب . ولئن صح أنه تزوجها ليكونن ذلك برهانًا على دهائه فى السياسة وعلمه بمداخل القلوب ، فهو قد أراد أن يتخلص منها ليفرُغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبو بكر لقتاله من المسلمين . فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها .

السير إلى البطاح ، وموقف الأنصار :

فرغ خالد من أسد وغطفان ومن معها بعد أن عاد كل من بقى من هذه القبائل إلى الإسلام وأذعن لسلطان المدينة . ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقى فيها مالك بن نويرة ومن كان معه فى مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم منه فترددوا وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا » . وأجابهم خالد : « إن يكن عَهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى . وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك إذ ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ؛ وهذا مالك بن نويرة بحيالنا . وأنا قاصد له بمن معى من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » . وسار ومن معه خلا الأنصار ، يقصد البطاح .

وبرم الأنصار بالأمر وتشاوروا فيما بينهم فاستقر رأيهم على أن يلحقوا به ، وجردوا إلى خالد رسولا استمهله حتى لحقوا به وساروا معه ، فلما بلغوا البطاح لم يجدوا بها أحداً ؛ فقد فرق مالك بن نويرة قومه فى ديارهم ونهاهم عن الاجتماع ، ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام والتفرق فى الديار ، ورجع هو إلى منزله .

لم يجد خالد بالبطاح أحداً ، فبثّ الجنود وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يُجب داعية الإسلام ، فإن امتنع فليقتلوه .

جند خالد يجيئونه بمالك :

جاء الجند بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع إلى خالد . وكان المنطق يقضى بعد الذى رأيت بأنه إن أقر مالك وأصحابه بالإسلام ، أن يعاملهم خالد معاملة من تاب وأناب . لكن الذى حدث أن خالداً أمر بمالك بن نويرة فقُتل ، وأن هذا القتل أثار بالمدينة ثائرة ظلت زمنًا قبل أن تهدأ ، وأنه كان ذا أثر فى تصرُّف عمر بن الخطاب مع خالد بن الوليد بعد أن ولى الخلافة . لهذا تفصّل الروايات مقتل مالك بن نويرة فى شىء من الإسهاب وتختلف فيه .

مقتل مالك وسببه :

قيل إن رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه اختلفوا فيما بينهم : أأقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتنكروا ؟ وقال أبو قتادة : إن القوم أقروا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصروا على منعها . ماذا يصنع خالد إزاء هذا الاختلاف بين شهود العيان ، وكيف يقضى فيه ؟

تجرى رواية بأنه أمر بحبس مالك وأصحابة حتى ينظر فى أمرهم . وحُبسوا فى ليلة باردة جعلت تزداد بتقدم الليل برداً . وأخذت خالداً الشفقة بالقوم فأمر فنادى : « دافئوا أسراكم » . وكانت هذه العبارة فى لغة كنانة معناها القتل ، وكان الحراس من بنى كنانة ، فما لبثوا حين سمعوها أن ظنوا أن خالداً أراد قتلهم فقتلوهم . وسمع خالد الضجة فخرج ، وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه .

وتجرى رواية ثانية بأن خالداً دعا إليه مالكًا يناظره ليعرف أىُّ الشهادتين حقٌّ : الشهادة بإسلامه ، أم الشهادة بإصراره على الردة أو على منع الزكاة . وفيما هما يتناظران راجع مالك خالداً وقال : « ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا » . قال خالد : « أو ما تعدّه لك صاحبًا ؟ » ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه .

وقد روى ابن خلكان : « فقال مالك إنى اتى الصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معًا لا تقبل واحدة دون أخرى ! ! فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : أو ما تراه لك صاحبًا ! ..... » وأمر به فقتل .

يرجح بعضهم هذه الرواية الثانية على الرواية الأولى . على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة . ويرون أنها إن لم تكمل ناقضت تصرف ابن الوليد فى أمر قُرّة بن هُبَيرة والفُجاءة السُّلَمىّ وأمثالها فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبى بكر ليرى فيهم رأيه . ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إثمًا ولا أكبر جريرة[1] ؛ فما باله

(١) جريرة : جرما .

يقتله ولا يبعث به إلى الخليفة ومكانُه من بنى تميم لم يكن دون مكان أى أولئك من قومه !

مقتل مالك وتزوج خالد امرأته :

وتتمة القصة فى رأيهم أن خالداً تزوج أم تميم زوجة مالك مخالفًا بذلك كل تقاليد العرب . وهم يريدون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل . وذكر أبو الفرج فى الأغانى : «لما تنبأت سَجَاح اتبعها مالك ثم أظهر أنه مسلم ، فضرب خالد عنقه ، فطعن عليه فى ذلك جماعة من الصحابة ، لأنه تزوج امرأة مالك بعده ، وقد كان يقال إنه يهواها فى الجاهلية ، واتهم لذلك أنه قتل مسلمًا ليتزوج امرأته بعد» .

وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعدُ صوراً أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ .

ولسنا نقف عندما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل . لكن الثابت الذى لا ريبة فيه أن ليلى أعجبت خالدا ، وأنه لذلك أمسكها من بعدُ ولم يُسَرّحها مع ما جره زواجها عليه من متاعب .

ثورة أبى قتادة الأنصارى :

وحسبُك لتقدّر هذه المتاعب أن تعلم أن أبا قتادة الأنصارى غضب لفعلة خالد ، فتركه منصرفًا إلى المدينة ، مقسماً ألا يكون أبداً فى لواء عليه خالد وقد روينا ماقيل من أن الجند الذين سجنوا مالك بن نويرة وأصحابه هم الذين قتلوهم حين سمعوا خالداً يقول : دافئوا أسراكم وأن خالداً غضب لذلك ثم قال : إذا أراد الله أمرا أصابه . ويضيف أصحاب هذه الرواية أن أبا قتادة ظن ماحادث حيلة من حيل خالد ، وأنه ذهب إليه يقول : هذا عملك ، وأن خالداً زجره فغضب وذهب إلى المدينة .

ثورة ابن الخطاب :

ذهب عمر إلى أبى بكر وقد أثارته فَعْلة خالد أيّمَا ثورة ، وطلب إليه أن يعزله وقال : «إن فى سيف خالد رهَقًا[1] وحق عليه أن يُقيده[2]» . ولم يكن أبو بكر يُقيد من عُمَّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه غير مرة : «هَيْه يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد» . ولم يكتف عمر بهذا الجواب ولم يكفّ عن المطالبة بتنفيذ رأيه . فلما ضاق أبو بكر ذرعًا بإلحاحه قال : «لا يا عمر ! ما كنت لأشيم[3] سيفًا سلّه الله على الكافرين» .

لكن عمر كان يرى صنيع خالد نُكراً ، فلم تطب نفسه ولم يسترح ضميره . كيف إذن يسكت ، وكيف يذر خالداً فى طمأنينته يشعر كأنه لم يأثم ولم يجن ذنبًا ! لا بد أن يعيد القول على أبى بكر وأن يذكر له فى صراحة أن عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ونزا على امرأته ، فليس من الإنصاف فى شىء ألا يؤاخذ بصنيعه .

أبو بكر يستدعى خالداً :

ولم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالداً ليسأله ما صنع ، وأقبل خالد من الميدان إلى

---

(١) الرهق : السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم.

(٢) يقيده : يقتص منه .

(٣) أشيم : أغمد . والشيم يستعمل فى السل والإغماد .

المدينة ، ودخل المسجد فى عُدّة الحرب مرتديًا قَبَاء[1] له عليه صدأ الحديد وقد غرز فى عمامته أسهمًا . إليه عمر إذ رآه يخطو فى المسجد فنزع الأسهم من رأسه وحطمها وهو يقول : قتلت امرأ مسلمًا ثم نزوت امرأته ! والله لأرجمنّك بالأحجار . وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئًا ، ولا يظن إلا أن رأى أبى فيه مثل رأى عمر . ودخل على أبى بكر وقصّ عليه قصة مالك ومناصرته سجاح وتردده بعد ذلك ، و- يلتمس المعاذير عن قتله ، وعذره أبو بكر وتجاوز عما كان منه فى الحرب ؛ لكنه عنفه على التزوج من امر يجفّ دم زوجها . وكانت العرب تكره النساء فى الحربِ ، وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً ، أى ع

وخرج خالد من عند الخليفة ناجيًا بإمارته على الجند ، متأهبًا للعود إليهم وقيادتهم إلى اليما

إصرار ابن الخطاب على رأيه :

على أن عمر لم يتزحزح عن رأيه فيما صنع خالد . فلما تُوفّى أبو بكر ، وبويع عمر خليفة له ، كان أول ما صنع أن أرسل إلى الشام ينعى أبا بكر ، وبعث مع البريد الذى حمل النعى رسالة يعزل بها خالداً إمارة الجيش . وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة ، فكان جواب عمر : «ما عزلتك لـ فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخشيت أن تفتتن بالناس» . وهذه حجة لها قيمتها . لكن إجماع المؤر- منعقد على أن عمر بقى متأثراً برأيه فى موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه امرأته ، وأن هذا الر كان له أثره من بعد فى عزل خالد

اختلاف فى الرأى السياسى :

بلغ اختلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك بن نويرة ما رأيت . وكلا الرجلين كان يـ للإسلام والمسلمين الخير لا ريب . أفكان اختلافهما مع ذلك راجعًا إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد ، كان اختلافا على السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين ، موقف الرّدة و الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة ؟!

الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافًا فى السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف. و اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امـ مسلم ونزا على امرأته ، فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ولا يصح يترك بغير عقاب ، وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى ركابه .

أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيط بالدولة كلها ، والثورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصـ إلى أقصاها . وهذا القائد الذى يُتّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التى يُدفَع بها البلاء ويُتّقى بها الخطر ! التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا ، فحُقَّ له بحكم الغزو أن تكون سَبَايَا يصبحن ملك يمينه !! ، ولقد كان المسلمون فى حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا فى حاجة إليه يـ استدعاه أبو بكر وعنّفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح

---

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ويشد الحزام عليه .

أربعين ألفاً من بنى حنيفة ، وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ، وكان قد تغلّب على عكرمة بن أبى جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد فى الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى يعزل خالد وتتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة عليها ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالداً آية الله ، وسيفه سيف الله . فلتكن سياسة أبى بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره فى الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

هذا فى رأيى هو التصوير الصحيح لما كان بين أبى بكر وعمر من خلاف فى هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبئ بنى حنيفة على عكْرمة لِيُرىَ أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمَّات .

وقد صهرت اليمامة خالداً وطهَّرته وإن تزوج فى أعقابها بنتًا بكراً عقد عليها كما فعل مع ليلى ، ولمَّا تجفّ دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة . ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلى . لكنه لم يزد على التعنيف ولم يزد خالد على سماعه . وما أرى أبا بكر فى تعنيفه إلا أراد أن يسكِّن من ثائرة الثائرين أمثال أبى قتادة . وإن أعجب فليس عجبى للكتّاب والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيئوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد بأعظم من عجبى لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يتلمسوا له الأعذار . فما مالك ، وما ليلى ، وما بنت مُجّاعة إلى جانب مفاخر خالد التى جعلته سيفَ الله . فإن أصاب سيفَه رهَقٌ فى لحظة من اللحظات فقد أصاب هذا السيفُ النصرَ والفخارَ فى سنوات وسنوات .

المناقشة

١ - «ولقد أدى اتصال هذه القبائل بمصب الفرات وبالخليج الفارسى إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية ، وإن بقى أكثرهم يعبدون الأصنام ، فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم ؛ لذلك كانوا فى مقدمة القبائل التى أبت أداء الزكاة حين بعث رسول الله جباته يقتضونها من الناس » .

(أ) ما مرادف (دانت) ؟ وما مقابل (أبت) ؟ وما مفرد (جباه) ؟

(ب) فى الفقرة السابقة آثار للعامل الجغرافى توالت . وضح بعبارتك ، مبينا مدى الارتباط بينها .

(ج) العربى عميق الإحساس باستقلاله وحريته . ناقش القضية فى ضوء ما تقدم ، مبينا الحد الفاصل بين الإفراط والتفريط .

(د) واجه الرسول عليه السلام تصرفهم بما أعادهم إلى جادة الصواب . تحدث عن ذلك .

٢ - «يرى بعض المؤرخين أن سجاح لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب لكهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعمالهم فى العراق كى يزيدوا الثورة فى بلاد العرب ضراما ؛ ليستعيدوا ما كان لهم فى كثير من أرجائها من سلطان بدأ يأفل» .

(أ) ما معنى (كهانة) ؟ وما مرادف (ضراما - ويأفل) ؟ وما مفرد (أرجاء) ؟

(ب) يحاول الكاتب أن يتعمق بعض دوافع الردة . وضح ذلك بعبارتك ، مبديا رأيك .

(ج) وضح العلاقة بين (كهانتها - ومطامعها الذاتية)، وقيمة الفعل (بدأ) فى موقعه من العبارة.
(د) ساق المؤلف ما يرجح به رأى هؤلاء المؤرخين. بين ذلك.

٣ - «وليس عجبا أن يتخذها الفرس أداة لإذكاء الثورة فى بلاد العرب، وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرد لها جيش فارسى يقاتلها، وإن كانت مع ذلك جديرة بأن ترد إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها، ولا شىء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد».
(أ) ما مقابل (إذكاء - وأدنى)؟ وما معنى (أهون)؟
(ب) تراوحت نظرة الفرس بين الاهتمام والاستهانة. ناقش ذلك فى ضوء هذه العبارة.
(ج) بين ما توحيه (أداة - وانتشار).
(د) كيف كانت أحوال بنى تميم حين فاجأتهم سجاح. فصل القول فى ذلك.

٤ - أشار مالك بن نويره على سجاح بخطة نفذتها. تكلم عنها وعن مدى ماأصابها من نجاح أو فشل، وأسباب كلٍّ.

٥ - إلام ذهب الكاتب فى تعليل اتجاه سجاح إلى اليمامه بعد فشلها فى بنى تميم؟

٦ - اكتب قصة سجاح مع مسيلمة بأسلوبك فى إيجاز، ثم تناولها بالتحليل، كاشفا عن السر وراء عجب الكاتب منها.

٧ - «إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى، وأنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا، ثم نعمل به.
(أ) ما معنى (أمضى)؟ هات مؤنث (أفضل) ثم استخدمة فى جملة استخداما صحيحا، وضع (ابتلينا) فى جملة توضح معناه.
(ب) فى العبارة منطق حاسم، ونظرة صائبة. وضح، وبين مدى حاجة القائد إلى مثل هذا.
(ج) استعان خالد ببعض المطابقات. عين مواضعها، وبين مدى توفيقها فى تحقيق غايته.
(د) كان لجماعة الأنصار فكر فى مقابل ما ذهب إليه خالد. اعرضه، مع رأيك فيه، محتجا لما تراه.

٨ - تعددت الروايات فيما يتصل بمقتل مالك بن نويرة. لخصها، ثم وازن بينها، مبينا عناصر الاتفاق والاختلاف فيها، وأيها أقرب إلى القبول، ولماذا؟

٩ - «قتل مالك وتزوج خالد امرأته». اعرض بقلمك مواقف كل من أبى قتادة، وعمر، وأبى بكر. ووجهات نظرهم فى هذا الصدد.

١٠ - يرى الكاتب أن الخلاف بين الصديق والفاروق فى حادث مالك خلاف فى السياسة. وضح ذلك بعبارتك، مبينا الفارق بين خلاف السياسة، وخلاف التقدير.

١١ - «وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب، إذا وقع ذلك من فاتح غزا، فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه».
فى العبارة منطق يكاد يحسم القضية، ويبرئ ساحة خالد من الاتهام. اشرح ذلك، مبديا رأيك، ومحتجا له.

غزوة اليمامة

جيش خالد لقتال مسيلمة :

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذى أمده أبوبكر به ، ومقصدهم جميعًا اليمامة ، يلقون بها مسيلمة بن حبيب متنبئ بنى حنيفة ، ولم يكن هذا المدد الذى بعث به الصدّيق دون جيش خالد أيْداً[1] أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التى عُرفت فى القتال بالبأس والبطش . وهل كان لأبى بكر أن يضن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفًا يقفون إلى جانب هذا المتنبئ فى عُدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت فى سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين فى القيادة ، وفى البطولة ، وفى خوض المعامع [2] ، تعرضت سياسته فى قتال أهل الردة جميعًا للفساد . وأبوبكر أحصف وأعلى رأيًا وأبعد نظراً وأقوى إيمانًا من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبوبكر خالداً جماعةٌ من القراء حفَّاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدراً . هذا مع أن أبا بكر كان يضن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصدّيق على رأيه ذلك ، فأمد خالداً بالبدريين وبمن شهدوا المواقع فى عهد الرسول ، لأن مسيلمة كان قد استغلظ أمره فى اليمامة .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس إليها هينًا يسيراً .

قوة مسيلمة وأسبابها :

كانت القبائل القريبة من المدينة والتى أرادت محاصرتها غداة بيعة الصدّيق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع فى شىء إلا أن تعفى من الزكاة . وقد نجح عَدىّ بن حاتم فى صرف القبائل عن طُليَحة الأسدىّ ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زِمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهَّنت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمدٌ رسولَ الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتُّ فى عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس .

عكرمة ينهزم أمام مسيلمة :

لم يكن أبوبكر حين عقد ألويته الأحد عشر يحسب لبنى حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجَّه إليهم عكرمة بن أبى جهل ، ثم وجَّه إثره شُرَحْبيل بن حَسَنة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر

---

(١) أيدا : قوة .

(٢) المعامع : الحروب أو الفتن والخلافات الشديدة ، كأنها جمع معمعة .

شُرَحبيل ، بل بادر بلقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلا مجربًا وفارسًا مغوارا ، وقد اجتمع فى لوائه أبطال صناديد ، مع ذلك لم يثبُت عكرمة ولا ثبت لواؤه لمسيلمة . وكتب عِكرمة لأبى بكر بالذى أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أرَيَنَّك ولا تَرَنى . لا ترجعن فتُوهن الناس . امضِ إلى حُذَيْفَةَ وعَرْفَجَةَ فقاتل أهل عُمَان ومَهْرَةَ ، ثم تسير أنت وجندك تستبرءون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت » . وحسبُك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة فنى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ أمر مسيلمة ؟ ! :

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان - على تعبير مؤرخى العرب - « رويجلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . أفيكون ذلك هو الذى يدعى النبوة من قومه ؟ ! أفمعجزة تلك ؟ ! كلا ! وإنما هى شعبذة المشعبذين ، وانقياد الجماعات . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدْعَى « نهاراً الرجَّال - أو الرحال - بن عُنْفُوة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكيًّا ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلمًا لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيلمة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المتنبىء الكاذب . لكن « نهارا » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أُشْرِكَ فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نفى ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل .

ووضع مسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجَّال » وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يَعُبّ من نعيم الحياة الدنيا . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويلٌ للعلم والفقه ، وويل للحقيقة أىُّ ويل ! ..

ولا تسل كيف اتَّبع مسيلمة عقلاءُ قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها .

خالد يسير إلى اليمامة :

أمَّا وذلك شأن مسيلمة وما أصاب عِكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد العرب من ينازله غير داهية الحرب وعبقريّها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجبًا أن يعزز أبوبكر خالداً بالمدد .

وفيما خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيلمة بلواء شرحبيل واضطرته إلى الارتداد . ولعل الأمر لم يكن كذلك ، وإنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى يجيئه خالد . وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين .

سرية مجاعة :

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ مسليمةَ ، إذ خرج مُجَّاعة بن مُرَارَة فى سرية يطلب

ثأراً له فى بنى عامر وبنى تميم ، وأدرك مُجَّاعة ثأره وكرَّ راجعًا مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيّة اليمامة أدركهم جيش خالد ، وعرف أنهم من بنى حنيفة ، فأمر بقتلهم ، فقد سألهم عن رأيهم فى الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبىّ ومنكم نبىّ . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهينة ، لأنه كان من أشراف بنى حنيفة ، ولأن خالداً كان يطمع فى معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله فى قبّته ، وجعل زوجه الجديدة ليلى أم تميم على حراسته .

يوم حاسم فى تاريخ العرب :

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء فى طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفا ، وقيل ستين ألفًا . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها فى الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذى ارتهن فيه مجاعة فصف جنده فى وجه مسيلمة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصّدام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما فى تقدير هذا الأمر ، فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العرب .

كانت قوة مسيلمة هى المركز الذى تتطلع إليه الأعين من اليمن وعُمّان ومَهْرَة والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدراً من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفانى فى سبيله ، ثم تزيدها الخصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيمانًا وتفانيًا . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ فى عصره ، وبينها حفّاظ كلام الله قراء القرآن ، لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

ابن مسيلمة يحرض قومه :

تقدم شُرحْبيل بن مسيلمة يحرض جيش بنى حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعِرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم : « يا بنى حنيفة ! اليوم يوم الغَيْرة ، إن هُزمتم تُسْتَرْدَف النساء سبيَّات ، ويُنْكَحْنَ غير حَظيّات . فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا .

تراجع المسلمين :

التقى الجمعان والمسلمون لمّا تحتدم حميَّتهم ، جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجبن أهلَ البوادى ، ويرميهم أهلُ البوادى بمثل ما يرمونهم به .

لذلك لم يَثْبتوا لجموع بنى حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ، فانثنى صف المسلمين هزيمًا ، وزال خالد عن فُسْطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجَّاعة مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ ، أنا لها جارٌ ، فنِعْمَتِ الحرة ، عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعًا .

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بنى حنيفة خلقًا كثيراً . وكان فى الأولين الذين قُتلوا نَهارٌ الرجَّال القارىء الفقيه الخائن الخادع .

امتازوا أيها الناس :

لم تزايل خالدَ بن الوليد رباطةُ جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب فى مصير اليوم . لقد رأى أنَّما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنابز[1] الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا ؛ لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهادن بين الفريقين أن صاح فى الجند صيحة بطش وغضب : «امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حىّ ، ولنعلم من أين نؤتى » . ودوَّت هذه الصيحة ، تداولها سمعُ الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيَّأ للنصر طريقه .

الحمية لدين الله :

أثارت صيحة خالد ماركّب فى الفطرة العربية من قوة العصبيَّة ، ورأى زعماء المسلمين ما حل بهم ، فثارت فى قلوبهم الحميَّة لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجلَّى الاستشهاد أمامهم باسمًا مضيئًا يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلتهم نسمة من روح الله أرتهم الحياة لهواً ولعبًا وغروراً باطلا ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس – وكان على رأس الأنصار – : «بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل اليمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع إلى الوطيس[2] يقاتل ويقتُل ، وينادى : «هكذا عنّى حتى أريكم الجلاد ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروع ، وظل يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البرَّاء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : «أين يا معشر المسلمين ! أنا البراء بن مالك . هلمَّ إلىّ ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففاء إليه[3] منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبَّتْ ريح أثارت الرمال فى وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدثون إلى زيد بن الخطاب ما يصنعون ، فكان جوابه : «لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا » واندفع فى صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقى الله يكلّمه بحجّته . وصاح أبو حُذيفة بمن حوله : «أهل القرآن ، زيِّنوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه فى الغمار[4] يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبى حُذيفة الراية وقال : «بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبُت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأسًا ، سرت روح الاستشهاد فى جند المسلمين جميعًا ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ،

---

(١) التنابز : تبادل الألقاب ، والمراد الترامى بالحين بين المهاجرين والأنصار وأهل البوادى .
(٢) الوطيس : المراد المعركة .
(٣) فاء : رجع .
(٤) الغمار : غمار الناس جمعهم المزدحم المتكاثف .

فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

جيوش مسيلمة وقتال المستيئس :

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس هى كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هى عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقامًا ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردُّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

خالد يداور ليقتل مسيلمة :

لم يُرَعْ خالد لاستبسال بنى حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريبًا .

لكنه حرص مع ذلك أن يرى المسلمون هذا النصر قريبًا كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتينَّ من خلفى » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بنى حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر فى هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزى يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه[1] أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفى اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبوهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تَعدنا ! » فأجابهم وقد وَلّى مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فارًّا كما اتبعوه نبيًّا ! !

احتماؤهم بالحديقة :

رأى محكّم بن الطفيل فِرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بنى حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجدَّلين فى الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكّم برجاله يحمى ظهورهم فى أثناء فرارهم . وإنه لكذلك ، إذ رماه عبدالرحمن بن أبى بكر الصدّيق بسهم وقع فى نحره فقتله .

البراء بن مالك يتسور الحديقة :

تحصن مسيلمة وقَومه بالحديقة . أفيحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟! كلا! إن هذا الجيش الثمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملا ؛ ويريده سريعًا . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح

---

(١) ساورته نفسه : نازعته .

بابها الوثيق الرتاج[1] فلم يجد . قال البَراء بن مالك : «يا معشر المسلمين ، ألقونى عليهم فى الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يا براء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التى تكدست فى الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحُنّنى عليهم فيها » ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلونى . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احملونى . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدثه نفسه : إنه البراء البطل الذى يتحدث الناس فى شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه ليقولنَّ الناس : همَّ ولم يفعل ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الإقدام . لذلك نضا عنه[2] تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زمَرًا تلمع فى أيديهم سيوفهم ، ويطل الموت من حدق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يتراكضون فى الحديقة التى انقلبت سجنًا تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينه .

اقتحام الحديقة :

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، واستحر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافًا مضاعفة . وكان وحْشىٌّ قد أسلم بعد أحُد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمة فى الحديقة فهز حربته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشىٌّ يقول : ربك أعلم أينا قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

انهدَّت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا . فلم تعرف بلاد العرب فى تلك العصور موقعة كان فيها ما كان فى موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها فى كتب التاريخ جميعًا .

خالد يتابع المعركة :

الآن وقد انتهت فتنة مسيلمة ، واجتُث أصلها ، وقد قُضىَ على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطمئن ولجنده أن يستريح ؟

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصرُ مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُخشى عواقبه . لم يكفِه من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليحة ، بل بقى حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أم زِمْل وفلولها . وهو لم يدَعْ بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل ها هنا . بثّ الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضّها على من بها ، ويفرغ بذلك من بنى حنيفة فلا تقوم لهم من بعدُ قائمة أبداً .

---

(١) الوثيق : المحكم ، والرتاج . ما يغلق به الباب .

(٢) نضا عنه : خلع .

الصلح بين خالد ومجاعة :

كان خالد قد وثق بمجاعة ، وجاءه مجاعة قائلا : هل لك إلى الصلح على ما ورائى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قومًا نهكتهم الحرب فرأى من الخير أن يصالحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصفَ السبى . واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قومى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون ، وعاد يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبى . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجالا ضَعْفَى . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضبًا وقال : ويحك ! خدعتنى !

رسالة أبى بكر :

وجاء خالداً رسول من أبى بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحُشر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه .

عدد القتلى من بنى حنيفة :

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأسًا وشدة ! لكن نصر المسلمين المؤزَّر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛ هذا إلى أن الصلح الذى عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنموا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربع السبى ، وجعل لهم فى كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعًا قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبى بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

ولقد عيَّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلاهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوراً على زيادة العدد فى القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعةٌ وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! رُبَّ ضارَّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن فى خلافة أبى بكر مخافة أن يستحر القتل فى سائرهم من بعدُ ، كما استحر فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين على القتلى :

لم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء . فلما لقيه أبوه قال له : «ما جاء بلك وقد هلك زيد ! ألا واريت وجهك عنى ! » . وأجاب عبد الله : «سأل الله الشهادة فأُعْطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أُعْطَها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلا لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا فى قتال مسيلمة .

خالد يتزوج ابنة مجاعة :

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟! كلا ! ولو أن ذلك كان

لما جاز له يومًا أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلاميه . إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوّجني ابنتك » ، فقال : « مهلا ! إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك » . ولم يعجب خالداً هذا الكلامُ وزوجه مجاعة ابنته ، فدخل بها فى بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطًا يجاور فسطاط أم تميم .

ثورة أبي بكر لزواج خالد :

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فلم يملك ـ وهو الحليم ـ غضبه فكتب إليه كتابًا « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبرى ، جاء فيه : « لعمرى يابن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجففْ بعد » ! وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبي بكر وهز رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعنى عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف لغضب أبي بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبي بكر .

* * * *

وأجال أبو بكر نظره فى شبه الجزيرة كلها حوله ، وتذكر يوم بيعته ، ففاضت بالدمع عينه شكراً لأنعم ربه أن آتاه النصر وعزز بعزمه وحزمه دين الحق . وأين المدينة يوم ذاك ، المدينة الظافرة المنتصرة صاحبة السلطان على ربوع العرب كلها ، من تلك المدينة التى انتقض عليها العرب وثاروا بها وحاولوا محاصرتها إثر وفاة الرسول ! ! وما كان لأبي بكر مع ذلك أن يفخر أو يستكبر وهو يذكر قول الله لرسوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، ولَكِنَّ اللَّهَ رَمى » .

ما عسى أن يكون الغد ؟ :

ما عسى أن يكون الغد ؟ وكيف تزداد وحدة الدين قوة ويزداد دين الله علوًّا وانتشاراً ؟ إلى هذه الناحية اتجهت سياسة أبي بكر ، وفى هذا كان يفكر منذ اطمأن إلى النصر . وقد طال تفكيره فيه حين كان قواده وجنوده لا يزالون فى الجنوب يقضون على البقية الباقية من الردة وآثارها . وإذ أراد الله أن يتم أمره فقد كانت الإمبراطورية الإسلامية ثمرة هذا التفكير وهذا الاتجاه .

* * *

المناقشة

١ - وهل كان لأبي بكر أن يضن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ؟ لقد كان يعلم أن أربعين ألفا يقفون إلى جانب هذا المتنبئ في عدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ، ويلاقون الموت في سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين في القيادة ، وفي البطولة ، وفي خوض المعامع تعرضت سياسته في قتال أهل الردة جميعا للفساد » .

(أ) ما مقابل (يضن) ؟ وما معنى (المعامع) ؟ وماذا يقصد (بتعرض سياسته للفساد) ؟

(ب) في العبارة حسن تقدير للمواقف ، واضطلاع بالمسئوليات . وضح بعبارتك .

(ج) ماذا أفاد قوله (يلاقون الموت) بعد (يقفون إلى جانب) ؟

(د) كان الصديق يضن بالبدريين من قبل ، فلم خالف عن رأيه هنا ؟

٢ - وازن الكاتب بين الأخطار قبل مسيلمة ، وفي مواجهته . اعرض هذه الموازنة بقلمك ، مبينا ما اعتمدت عليه .

٣ - بدأت المواجهة مع مسيلمة بعكرمة بن أبي جهل . تناول ما حدث بالتفصيل ، وعوامل الهزيمة ، ثم بين حكمة الصديق في علاج موقف عكرمة .

٤ - كيف استغلظ أمر مسيلمة ؟ وكيف اتبعه عقلاء قومه ؟

٥ - «لم تزايل خالد بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب في مصير اليوم ، لقد رأى أنما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنابز الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا لانتصروا ؛ لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهادن بين الفريقين أن صاح في الجند صيحة بطش وغضب : «امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ، ولنعلم من أين نؤتى» .

(أ) ما معنى (تزايل - رباطة الجأش) ؟ وما عكس (ريب) ؟ وما المقصود بقوله (نؤتى) ؟

(ب) تكشف العبارة من صفات خالد : الشجاعة والثبات - اليقين والثقة - النظرة الثاقبة وحسن التقدير - الانتهاز الخاطف للفرصة . اشرح ذلك مبينا أثر كل منها في إحراز النصر .

(ج) ما القيمة التعبيرية لقوله (لقد رأى) .

(د) تحدث عن الأثر النفسي لهذه الصيحة ، وما أدى إليه ذلك من تحول في سير المعركة .

٦ - تجلت في معركة اليمامة بطولات فردية صور بقلمك واحدة منها ، مبديا جلال تضحيتها .

٧ - «ولقد عير المهاجرون والأنصار أهل القبائل ، وفاخروهم بعدد قتلاهم ، ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصورا على زيادة العدد في القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ، ومن حفاظ القرآن ، وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين .

(أ) ما معنى (عير - وفاخروهم) ؟
(ب) فى العبارة الرضا والاعتزاز على الرغم من جسامة الخسائر. وضح بعبارتك.
(ج) كيف تبرر (المفاخرة ، والتعيير) فى ظل نهى الدين عنهما ؟
(د) (رب ضارة نافعة) ما وجه الاستشهاد بهذا فى مثل ذلك الموقف ؟

* * *

التمهيد للفتح وللإمبراطورية

أقام العرب الذين نزحوا[1] إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر فى كل من الدولتين (الرومانية والفارسية) . ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التى نزلوا بها ، وإنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مَقْرَبَة منه كى ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية فى كل عصر.

مملكة بنى غسان ومملكة الحيرة :

لم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجَلَداً . لذلك أقاموا مملكة بنى غسان على حدود الشام ، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان دَأْبُ[2] هؤلاء العرب يومئذ كدأب بنى وطنهم دائمًا ، يشاركون الأمة التى يقيمون على حدودها فى مصيرها ويشاطرونها آمالها . من ثم سلموا فى الشام بحكم الروم ، وفى العراق بحكم الفرس . وإنما كان ذلك منهم تسليمًا بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعانًا لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير فى أمرهم تبعًا لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتى حرصوا عليه ودافعوا عنه .

حرص القبائل على حياتها العربية :

كان ذلك شأن القبائل التى هاجرت إلى العراق وإلى الشام على تفاوت بينها فى التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وترفه . لقد ظل حرصها جميعًا على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها وبين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضى أن أفصّل ذلك فى هذا الكتاب . فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . وإنما أثبت هنا ما يجلو لنا بعض السر فى تمهيد هاتين الإمارتين العربيتين ، إمارة اللخميين وإمارة الغسانيين . للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية فى عهد أبى بكر.

اتصال العرب بفارس والروم :

كان السلطان فى العراق وفى الشام متداولا بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحيانًا وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحيانًا ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون فى كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما فى طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدّى ذلك إلى أن فكرت الدولتان فى اتخاذ هؤلاء الذين نزلوا البادية الممتدة بينهما سدًّا يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ، لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

---

(١) نزحوا : رحلوا .

(٢) دأب : عادة وشأن .

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها فى البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانحاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانحاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتى ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحُل احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثرهم بحياة الحضر القريب منهم ، وسياسة الدولة التى يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغلغل فى هذا الحضر من أنِس منهم فى نفسه الكفاية لامتثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم فى المملكة نفوذه .

تمهيد العرب بالعراق والشام للفتح :

ونقف هنيهة فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، لنرى كيف صار الأمر فى شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أول ما نزلوها قبائلَ مهاجرة أو أسرى جاء بهم ملوك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتدّ بهم الروم وتعتدّ بهم فارس ، وتحرص كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاهما لهم بالاستقلال الذاتى تقديراً لشجاعتهم وإقدامهم فى الحروب . والحق أنهم لم يكونوا فى صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرهما من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلهم كانوا أكثر منها استقلالا . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عَدن جنوبًا إلى الموصل وأرمينية شمالا ، وإن تأثّر عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

ألسنا فى حلّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب فى العراق والشام كانوا الطلائع الأولى فى التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُرْ ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمتْ . لكن مُقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهليهم وبمن يحيطون بهم فى شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرون من زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

موقف العرب من دين الفرس والروم :

ماذا كان موقف العرب فى العراق وفى الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أتأثرت قبائل العراق بالمجوسية فأقبلت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعًا ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، وبأصنامهم يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زلفى ؟

أجادوا الفارسية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسى فى الفن والأدب والدين ، وتبينوا مَثْنَوِيَّة مانى [١] وتعاليم زرْدُشْت [٢] وزندقة مَزْدَك . [٣] . ولم يكن ذلك عجيبًا وقد أتاح لهم رغد العيش وترفه أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم ثقافتهم علم هذا كلّه وعلم ما اتصل بهم من تفكير اليونان وفلسفتهم . ولذلك علّم أهل الحيرة قريشًا الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الإسلام .

وكان ذلك شأن عرب الشام فى اتصالهم بثقافة الروم وأدبهم ودينهم . بل لعلهم كانوا أرق عقلية من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية .

النفس العربية والنصرانية :

لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم . ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما استقرت المسيحية فى الإمبراطورية الرومية هوت إليها النفس العربية فى الشام والعراق جميعًا . فلماذا ؟

يذكر بعض المؤرخين أن أوّل ملك تنصّر من بنى غسان إنما تنصر لأن إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصرانى فى أنحاء الإمبراطورية . وإذا فَسَّر هذا تنصّرَ أمراء العرب فإنه لا يُفسِّر تنصرَ القبائل . فإن قيل إن قبائل الشام تنصرت مجاراة لملوكها ، فالناس على دين ملوكهم ، فقد تنصر من قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء لملك الحيرة . وكان يحارب النصرانية حليفًا لفارس . لا بد إذاً من دافع آخر أدّى بهذه القبائل العربية فى العراق لتَدين بالنصرانية ، وأن يكون هذا الدافع متصلا بالعقلية العربية وميولها الروحية .

والعقلية العربية بفطرتها بدوية مستقيمة ، تريد الحقيقة فى بساطة ، وتقصد إليها فى غير التواء ولا تعقيد . فزندقة مزدك ومثنوية مانى قد تستهوى من يعجبهم الحِوار ويغريهم الجدل ، وكذلك الأمر فى فلسفة اليونان . ولا تميل العقلية العربية إلى هذا التعقيد الجدلى . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ، ولم يدن بالمجوسية من العرب إلا قليل .

تعلق العرب باستقلالهم :

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ، ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص اللخميين على استقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛ ولم يجمع بينهم اشتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين اللخميين والغسانيين اتصالها بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضُهم بعضًا ، كان عرب بادية الشام قبائل يقاتل بعضُهم بعضًا .

---

(١) مثنوية مانى : مذهب دينى به بعض الأفكار الروحية عن السعادة بعد الموت ظهر فى القرن الثالث الميلادى .
(٢) تعاليم زردشت : ديانة إيرانية (حوالى القرن السابع والسادس ق . م) وأساسها الصراع بين الخير والشر .
(٣) مزدك : ظهر فى فارس حوالى سنة ٤٨٧ م ، وقال بالنور والظلمة (الخير والشر) ، وببعض التعاليم الاشتراكية والإباحية .

اللخميون والغسانيون فى ذروة المجد :

فى الثلث الأول من القرن السادس المسيحى بلغ اللخميون ذروة المجد فى العراق ، وبلغ الغساسنة ذروته فى الشام . فى هذا العهد ظلت الحروب متصلة بين الفرس والروم ، وبلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق وأرض الشام غاية ذروته فى هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلى هذا المجد فى كل جلاله .

ويوم ذى قار من أيام العرب المأثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحريمه هانئ بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قتل النعمان طالب كسرى هانئًا بودائعه فأبى هانئ . ثم إن بنى بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم . فالتقت جيوشه بهم فى ذى قار . ففاز العرب على الفرس فوزاً عظيمًا . يروى عن النبى عليه السلام أنه قال فى يوم ذى قار : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصِرت عليهم بى » ؛ ذلك أن النبى عليه السلام بُعث عام ذى قار .

ولعل تقسيم السلطان فى الشام بين عدة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم فى عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدتهم . يرجح ذلك أن الغسَّانيين لم تكن لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخميين بالعراق .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتى وبحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسية فى العراق ، ولم تمحها اليونانية أو اللاتينية فى الشام . وكان من أثر هذا أن ظلَّت صِلات ملوك الحيرة وصلات بنى غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء تروى للنابغة الذبيانى ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل فى هؤلاء الملوك وكرمهم وما بلغوا من حضارة وترف . وحسان بن ثابت شاعر النبى كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية . من الطلائع التى مهدت للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية . وسنرى من بعد كيف انضم هؤلاء العرب فى كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا فى صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم وتضعضع سلطانهما:

هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحيرة ؟ كلا ! بل ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ فى شغل بثورة هِرقل عليه . لذلك أوغل الفرس فى بلاد الشام . فاستولوا عليها وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هرقل حين كان الفرس فى مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردّهم أو منعهم من تخريب

آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانوهم على النصارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفى هذه الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى : «الٓم غُلِبَتِ الرُّومُ فى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فى بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ» .

وصدق الله العظيم . ففى بضع سنين عاد هرقل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واسترد منهم الصليب الأعظم ، ثم رده إلى بيت المقدس فى حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس وإن استنفد ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر فى التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر من فارس والروم :

لم يَغبْ علم ما نزل بالروم ، ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومتهم من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق وبلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين فى نظرهم . وزاد فى تهوين أمرهما قيام النبى العربى وانضواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حد التحرش بهما أو التفكير فى غزوهما ، وإن بلغ بهم حد اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والذود عن هذا الاستقلال فى وجهيهما . لذلك ألقت اليمن وألقت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التخوم العربية فى الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النبىِّ هرقلَ إلى الإسلام سببًا للإيغال فيه . ترى أيقيم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعداها ، وله فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ ، أم يغامر بحرب قيصرَ ، والنصرُ بيد الله يُؤْتيه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه فى حروب الردّة . فمذ قضى خالد ابن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أبى أمية وعكرمة بن أبى جهل لواء الإسلام فى أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت شبه الجزيرة كلُّها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف[1] من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة[2] قد تضطرم فتضرم الثورة كرّةً أخرى .

الصدّيق بعد حروب الردة :

أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتنسى بذلك حفائظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب فى شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكرى إلى الماضى ، فتسرع لتشارك بنى عمومتها فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

(١) أحصف : أحكم .
(٢) حفيظة : حقد وضغينة .

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر وهو فى داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو فى مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يجوب الأنحاء الفقيرة آناء الليل فى سرّ من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكّن أنات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبى بكر لأنه كان يحب السلطان لنفسه أو يطمع فى التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئنّ المسلمون إلى دينهم وحرية الدعوة إليه . وإنما تتم للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على أساس من العدل المجرد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو به فوق كل اعتبار شخصى ، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين . وقد كانت نظرية أبى بكر فى تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تجرداً مطلقًا ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدله على كل هوى ، وينسى فى سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلَها ودقيقَها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

وكان حكم أبى بكر فى العام الأول من خلافته يكاد ينحصر فى القضاء على الردة والقائمين بها . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلوهم جميعًا قد ذهبوا مجندين يقمعون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم فى أثناء ذلك يتتبعون أخبارهم ويقيمون الصلوات لنصرهم ! ! وَلىّ أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء فى المدينة ، فأقام عامًا كاملاً لم يختلف إليه متقاضيان . وكان أبو عبيدة بن الجرّاح قائمًا بأمر المال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر فى توزيعه على حاجات المسلمين . وكان عثمان بن عفان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدراتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به فى توجيه سياستهم . وقد رأيت الشىء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردة . وإذا كان أبو بكر فى شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أسيد عامله على مكة فى الحج بالناس ذلك العام .

غزو الروم مغامرة :

لم يشغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها مما قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أمّا وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحد من أهل الحواضر والبوادى أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبى بكر أن يغامر بحرب قيصر؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب فى شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضِغْنهم على يثرب وأهلها ، ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

لكن غزو الروم مغامرة إن لم يحالف النصرُ فيها أعلام المسلمين تعرضت شبه الجزيرة لشرّ من الثورة التى أخمدتها حُروب الردّة : تعرضت للروم وحكمهم ، وتعرضت بذلك لكارثة تجتث حكم المدينة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنازلة الروم ليست هينة . إنما انتصر أبو بكر على المرتدين فى شبه الجزيرة لأن الإسلام قضى على الوثنية فيها ، ولأن البواعث التى أدت بطُليحة ومسيلمة والعنسىّ إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المتنبئين من رأى رِدتهم نقضًا لعهد عقدوه مع رسول الله ، حين ذهبت وفودهم إليه بالمدينة تعلن الإسلام وتنضوى تحت لوائه . أما الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة

العليا فى توجيه سياسة العالم لذلك العصر.

صحيح أنه قامت بينهم وبين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر فى بُداءتها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز فى الحروب بريقًا يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدهم عن محاربة من كان النصر حليفه ، ولم تكن الأمة العربية قد جرّبت حظها فى مثل هذه الحروب من بعد لتُقدم على مغامرة لها من الخطر ما يصد عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير فى محاربة الفرس بخاطر أبى بكر ، فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التى تتاخم الفرس هى البلاد التى فشت فيها الردة ، ويتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها فى غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يجمل بالخليفة أن يوجّه همه إلى توطيد الأمن فى مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضمّ كلها فى وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقًا !

المثنى يتقدم فى أرض العراق :

وإن أبا بكر ليفكر فى هذا وفى مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المثنى بن حارثة الشيبانى قد سار بقواته شمالا فى البحرين ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين .

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثنى أن يتوغل فى العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقبائل العرب فى العراق تهوى نفوسهم إلى منابتهم فى شبه الجزيرة ، ولعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! !

اضطراب الأمر فى فارس :

شجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان فى العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قُبيل وفاة النبى وحطم جيوشهم فى نِينَوى ودسْتَجِرْد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نيرهم ، وتقلصَ سلطانُهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسى وعلى خليج عدن ، وضرب الاضطراب بِجِرانه[1] فى بلاطهم ، فقتل بعضهم بعضًا ، جهرة حينًا وغَيلة حينًا . لا عجب إذن أن يصح ما تحدّث الناس به إلى أبى بكر عن المثنى وفعاله . ثم لا عجب أن ينشط تفكير أبى بكر فى العراق وفتحه .

مقدم المثنى إلى المدينة :

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويطيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثنى إلى المدينة وتلقاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئنانًا إلى أن البدء بفتح العراق العربى أدنى إلى النجاح .

(١) ضرب بجرانه : ثبت واستقر ، وأصل الجران باطن العنق ، وجمعه أجرنه ، وجرن بضمتين .

وكيف له أن يتردد وقد ذكّره المثنى بأن قبائل العرب التى استقرت بدلتا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان ، مالت إلى الحضر والإقامة وعمل أبناؤها فلاحين فى الأرض ، وأن دهاقين[1] الفرس يستولون على غلّتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذى يجود الدهاقين عليهم به . أىُّ مرعى أخصب من هذا المرعى لبثّ الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ؟ !

ولئن حالف النّجاح المسلمين فى هذه الخطوة لتكونَنّ البشيرَ بخطوات واسعة . رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنّى الشيبانىّ ، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعدُ للدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ، وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأى فسيحًا ، وكلمةُ الحق منتصرةٌ لا محالةَ بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالد فى غزو العراق :

استشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنى من الأنباء ، وقوله له : « أمّرنى على من قِبَلى من قومى أقاتل مَنْ يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى » . وتداول القوم المشورة بينهم ، فرأوا أن الأمر فى حاجة إلى رأى خالد بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان خالد باليمامة مقيما مع زوجتيه أم تميم وبنت مُجاعة ، يستجم بعد غزوة عقْرباء ، ويطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل فحضر . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عُدتها ، وجعل ما قام به المثنى من قبلُ طليعةَ فتح يلقى إليه المسلمون بفِلَذ[2] أكبادهم فلا ريب عنده فى أن العراق سيفتح أبوابه . وفى أن العرب المقيمين به عاملين فى الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبنى جنسهم .

وأتم أولو الرأى المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنّى . عند ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى فى فتح العراق . فأما الخطوة الحاسمة فكانت توجيه خالد بن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد فى العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا فى الفصل التالى .

* * *

---

(١) دهاقين : مفردها دهقان وهو : رئيس القرية ، ورئيس الإقليم .

(٢) فلذ : مفردها فلذة وهى القطعة من الكبد واللحم والذهب والفضة .

المناقشة

١ - «أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر فى كل من الدولتين (الرومانية والفارسية) ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التى نزلوا بها، وإنما جذبتهم البادية فلم يستطيعوا مقاومة سحرها، واستهواهم الحضر، ليكونوا على مقربة منه كى ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء».

(أ) اجمع (البادية) جمع تكسير فى جملة من عندك، واستخدم (العناء) فى جملة أخرى توضح معناه.

(ب) تعرض العبارة قضية اجتماعية. اشرحها بأسلوبك.

(ج) (جذبتهم - سحرها - استهوتهم) كلمات صورت بإيحاءاتها نزعات نفسية متباينة. وضح ذلك.

(د) تكلم عن العلاقة بين كل من اللخميين والغسانيين ومن جاورهم من الفرس والروم.

٢ - حرصت القبائل العربية بالعراق والشام على حياتها العربية على الرغم من حياة الحضر. تحدث عن ذلك.

٣ - «كان السلطان فى العراق وفى الشام متداولا بين الامبراطوريتين الفارسية والرومية، .... وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون فى كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم، متأثرين بما فى طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب، وأدى ذلك إلى أن فكرت الدولتان فى اتخاذ هؤلاء الذين نزلوا البادية الممتدة بينهما سدا يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى».

(أ) هات مفرد (أحيان) وجمع (أخرى). ضع ما تأتى به فى جملة تامة.

(ب) كانت صلات هؤلاء العرب بهاتين الدولتين صلات مضطربة متباينة. وضح ذلك بأسلوبك فى ضوء العبارة.

(ج) (ما فى طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب). فى العبارة إشارة إلى مقوم من مقومات الـ العربية وقتئذ. وضحه، وبين أثر الإسلام فى إعلائه، والسمو به.

(د) يقول المؤلف: إن هؤلاء العرب فى العراق والشام كانوا الطلائع الأولى فى التمهيد للفتح العربى اشرح وجهة نظره.

٤ - بين موقف العرب بالعراق والشام من دين الفرس والروم. وقيمة ذلك فى الكشف عن اتجاه العرب العقلى، وميولهم الروحية.

٥ - علل لميل بعض العرب إلى النصرانية وعزوفهم عن مجوسية الفرس ووثنية الروم .

٦ - حرص الغساسنة واللخميون على استقلالهم العربي ، ومال بعض هؤلاء وأولئك إلى المسيحية . فلم لم يجمع كل ذلك بينهم ؟

٧ - يوم ذى قار من الأيام الخالدة فى تاريخ العرب . تحدث عن ذلك كاشفا سر عظمته .

٨ - «كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية ، من الطلائع التى مهدت للفتح العربى والامبراطورية الإسلامية ، وسنرى من بعد كيف انضم هؤلاء العرب فى كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا فى صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس» .

(أ) هات مفرد (خصائص - وطلائع) استخدم ما تأتى به فى جملة من عندك .

(ب) ناقش فكرة الكاتب فى العبارة .

(ج) (وسنرى من بعد كيف انضم ...) تجد هنا بعض أدلة الكاتب لإثبات فكرته . بين ذلك .

(د) ماذا هون من أمر الفرس والروم ؟ وما حدود التفكير العربى بالنسبة لها ؟

٩ - «أيقنت شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرة أخرى . أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة ؟» .

(أ) هات مضاد (أيقنت) واجمع (أحصف) جمع تكسير .

(ب) تشير العبارة إلى موقف الصديق من الفتح ، وبعض دوافعه . وضح ذلك ، واذكر ما تعرف غير هذا من دوافع .

(ج) بين قيمة (يستنيم - وتنطوى) فى موضعها من العبارة .

(د) كيف اعتبر غزو الروم مغامرة محفوفة بالمخاطر على الرغم من الانتصارات الباهرة على الردة ؟

• • •

فتح العراق

أجاب أبو بكر طلب المثنَّى بن حارثة الشيبانى ، فأمّره على من معه من قومه ليقاتل أهل فارس ، فلما بلغته أنباء نصره بدلتا النهرين رأى أن يُمِده ليتابع غزواته . لذلك أمر خالد بن الوليد أن يجمع بقية جنده وأن يسير إليه ، وأن تكون القيادة العليا لخالد بطبيعة الحال . ولقد أمر عياض بن غَنْم أن يسير إلى دُومة الجندل يخضع أهلها المتمردين ثم يسير منها شرقاً إلى الحيرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد وعياض من قواده .

أوامر بحسن معاملة العراقيين :

كان العرب فى العراق يعملون فلاحين فى أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره . أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف[1] والظلم . وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ، لايقتلون منهم أحداً ، ولايأخذون منهم أسرى ، ولايسيئون إليهم فى أمر يتصل بهم ؛ فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم العرب ، ويجب أن يعمّهم العدل على أيدى بنى عمومتهم . ذلك واجب على المسلمين يأمرهم الله به ، وهو بعدُ السياسة الحكيمة التى تكفل للمسلمين النصر ، وألا يُؤتَوْا بعد نصرهم من خلفهم .

جيش خالد لفتح العراق :

كان جنود خالد قد قلَّ عددهم ، إذ قُتل منهم باليمامة ماسبق أن ذكرنا وعاد منهم مسرَّحاً إلى قومه من رغب فى الرجوع إليهم . وما كان لخالد أن يستدعى هؤلاء ، وقد أمره أبو بكر أن يأذن لمن شاء بالرجوع ، وألا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه فى الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفةُ رأيَه فيه . وطلب خالد إلى أبى بكر المدد فأمده بالقعقاع بن عمرو التيميّ . وعجب قوم وقالوا : أتمِدُّ رجلاً قد ارفضّ عنه جنوده برجل ؟ ! وأجابهم أبو بكر : لايهزم جيش فيهم مثلُ هذا ! وكذلك كان جوابه حين أمدّ عياضاً بعبد بن عوف الحميرىّ . على أنه كتب إلى خالد حين بعث إليه القعقاع يقول له : « استنفر من قاتل أهل الردةّ ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولم يلبث خالد حين عاد ينظم جيشه أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف ، قدم بهم على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه ، والمثنَّى فى مقدمتهم .

خالد يقسم الجيش :

سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة الآف من الجند . فلما بلغ حدوده ألفى المثنى ومن معه ينتظرونه. هنالك قسم الجند كله ثلاث فرق ، وجَّه كل واحدة منها فى طريق على أن يلتقوا جميعاً

---

(١) يسومونهم : يولونهم إياة ، ويريدونهم عليه ، والخسف : الذل .

بالحفير[١] .فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثنى بن حارثة الشيبانى فسارت قبل خالد بيومين . وأما الفرقة الثانية وعلى رأسها عدى بن حاتم الطائى فسارت قبله بيوم . وسار خالد فى المؤخرة . وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز كتاباً يقول فيه : «أما بعد ، فأسْلِمْ تَسْلَم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» .

كاظمة وانتصار خالد فيها :

تناول هرمز هذا الكتاب وترامت إليه أنباء المسلمين ومسيرة جندهم فكتب إلى أردشير الملك بالخبر ، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم يلقى خالداً بها . فلما علم أن خالداً أمر أصحابه بالسير إلى الحفير أسرع بجنده إليها ونزل على الماء فيها . وقد قدم خالد عليهم وأمر بالنداء فى الجند لينزلوا ويحطوا أثقالهم . وتحدث إليه قوم من رجاله أنهم على غير ماء ، فقال لهم : «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء . فلعمرى ليصيرنَّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين !» .

ووقف هرمز فى جيشه ، وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من بيت الملك فى فارس ، هما قُباذ ، وأَنُوشَجان ؛ ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج ابن الوليد إليه يبارزه . فلقد كان يعرف من بطولة خالد وفعاله فى بلاد العرب ما آمن معه بأنه إن يقتل خالداً يضمن لفارس نصف النصر إن لم يضمن لها النصر كلّه . ولكن كيف سولت له نفسه أن يقتله وخالد البطل الذى لايغلب ؟ ! الأمر يسير ؛ فالخيانة تمهد له درك غرضه . لهذا عهد إلى جماعة من فرسانه إذا رأوا خالداً خرج إليه أن ينقضوا عليه ويقتلوه .

وسمع خالد هرمز فنزل عن جواده ومشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين وشدّ فرسان فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده . لكن القعقاع بن عمرو لم يُمهلهم أن حمل عليهم حين كان خالد قد قبض على ناصية هرمز يستلّ روحه من بين جنبيه . وشدّ المسلمون فانهزم أهل فارس أمامهم ، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل . وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصرة اليوم ، فى حين فرّ قباذ وأنوشجان فيمن بقى من جيش الفرس لايلوون على شىء .

أثر كاظمة فى نفوس العرب :

كان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم ألهب حمية المسلمين . فقد رأوْا الفرس لايثبتون أمامهم أكثر مما كان يثبت العرب فى حروب الردّة . ولقد قُتل هرمز من يد خالد ، فكان مقتله مرضاة للعرب جميعاً أى مرضاة . هذا إلى جسامة ماغنموه فيها مما لم يكن لهم بمثله عهد ؛ فقد بلغ نَفْلُ الفارس ألف درهم خلا السلاح .

وزاد نصرَ المسلمين فى هذه المعركة جلالاً تنفيذُ خالد للسياسة التى رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق أدقَّ تنفيذ . فقد سبى أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم . أما الفلاحون فتركهم لم يحركهم ، وأقر من لم ينهض منهم وجعل لهم الذمّة .

الفرس يتجهزون لغزاة المذار :

ألهبت هذه الغزاة حميَّة المسلمين ، حتى لقد استمر المثنى الشيبانى يطارد الفرس المنهزمين وكأنما يريد

(١) الحفير : تقع قريباً من الخليج على حدود الصحراء .

ألايفوتهم قبل أن يبلغ المدائن . وفيما هو يتعقبهم جاءته الأنباء بأن جيشاً عظيماً من الفرس أقبل من المدائن لملاقاة خالد وجنوده . ذلك أن الملك أردشير مالبث حين جاءته رسالة هرمز أن دعا إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم ، وجعله على رأس قوة سارت مدداً لجيش الثغور . ولقى قارن فى طريقه إلى الجنوب قباذ وأنوشَجان على رأس الفُلاّل المنهزمين ، فاستوقفهم وتحدث إليهم وبعث السكينة إلى نفوسهم وضمهم إلى جيشه وعسكر بهم فى المَذار على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات . وأيقن المثنَّى أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة ، فاختار مكاناً قريباً من المذار أنزل جنده فيه ، وكتب إلى ابن الوليد بتفصيل ماعنده . وخشى خالد أول مابلغه النبأ أن يلقى قارنُ ابنَ حارثة فيهزمه فيفتّ ذلك فى أعضاد المسلمين ، فطار بجيشه وبلغ المذار ، وقارن يُعِد للقاء المثنى عُدته ، وجنود المثنى لايعلمون ما الله صانع بهم .

خالد فى غزوة المذار :

بلغ خالد المذار فأخاف الفرس وإن لم يخفف وصوله غُلواء[1] قارن ولم يضعف من عزمه . ورأى قباذ وأنوشجان فرصة الثأر لهزيمة الحفير سانحة ، وخيِّل إليهما وإلى قارن أنهم إن هاجموا خالداً قبل أن يتخذ للموقف عُدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين وأن يردوهم على أعقابهم إلى شبه الجزيرة منكسةً رءوسهم ، صريعاً فى أذهانهم كل أمل فى قتال كسرى أو منازلة رجاله .

ورأى خالد تأهب جيوش الفرس فبقى على تعبئته التى جاء بها من الجسر الأعظم وشد بقواته عليهم . ورأى المثنى وجنوده فى مقْدم خالد عليهم معجزة أمدهم الله بها لينصرهم ، فانقلبوا من الخوف إلى اليقين بالنصر أسوداً كاسرة لاتهاب الموت بل تلقاه باسمه . وهنا حقت كلمة خالد لهرمز : «إنى جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة » . والتحم الجمعان ، فإذا قارن وقباذ وأنوشجان يُذْبحون بأعين رجالهم ، وإذا سيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب ، وإذا الجيش الذى خيل إليه أن النصر بين يديه يفر أمام خالد وجنده إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة .

التجهيز لغزوة الولجة :

أقام خالد بالمذار ، فسبى أبناء المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس . وكان أبو الحسن البصرىّ[2] بين الأسرى فى هذه الموقعة .

وما كان ليحسب أنه ، وهو لا يزال على مَقْرُبة من خليج فارس ، قد قضى على قوات كسرى بالعراق ؛ فهو بعدُ من الحيرة على آماد غير قليلة ؛ والحيرة تكاد تنتصف الطريق بين الخليج والمدائن .

ولم يخطىء فيما قدّر ؛ فإن الفرس مالبثوا ، حينَ رأوا ما أصابهم بالحفير والمذار ، أن اتجه تفكيرهم إلى الاستعانة على العرب بالعرب . فإنه لايفلّ الحديد[3] إلا الحديد ، ولكى لايكون لهم كلُّ فخار النصر أقام كسرى قائداً من أقدر قواده ، هو بَهْمَن جاذويْه ، على جيش من الفرس وجَّهه فى أثرهم . ولقد ازداد جيش

---

(١) غلواء : غلو ومجاوزة الحد ، ويريد غروره وكبرياءه .

(٢) الحسن البصرى : كان مولى لزيد بن ثابت الصحابى ، اشتهر بالصلاح والعلم والورع . توفى سنة ١١٠ هـ .

(٣) يفل الحديد : يكسر حده .

القبائل العربية بمن انضم إليهم بين الحيرة والولَجة من العرب والدهاقين الذين عسكروا إلى جانبهم . وبلغهم بهمن على رأس الجنود الفارسية وأعد معهم لقتال المسلمين عُدته .

بلغت هذه الأنباء خالد بن الوليد وهو بالمذار ، فأمر من خلّف من قواده وجنوده على الحفير وكاظمة وسائر مااطمأن له من أرض العراق أن يكونوا على حذر ، وألا يغتروا بما فتح الله عليهم من النصر ، وخرج فى جنده إلى الولجَة يقاتل جنود كسرى . وكان الفريقان فى الغاية من قوة البأس والعزم ، حتى لقد تردد النصر بينهما زمناً أى الفريقين يصاحب . وكان خالد فى عبقرية قيادته قد أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلوا أثناء السير عنه وأن يكمنوا وراء العدو فيأخذوه أثناء القتال على غرّة . لكن هذا الكمين تأخر فلم يظهر ، على حين كانت صفوف المقاتلين من المسلمين ومن عدوهم تترجح متقدمة طوراً ، متراجعة طوراً آخر . وظن الفريقان أن الصبر قد نفد وأن المعركة لن تنتهى إلى غاية . وإنهم لكذلك إذ خرج كمين المسلمين فى ناحيتين من وراء جيش كسرى ، فى حين كان خالد يشتد فى الضغط عليهم من أمامهم . هنالك انهزمت صفوف الأعاجم فولّوْا وقد أخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ولى الأعاجم وولى العرب الموالون لهم وسيوف المسلمين آخذة برقابهم ، وجنود المسلمين يأسرون منهم من لم يتردَّ قتيلا ؛ وسبى خالد ذرارى المقاتلة ومن أعانهم .

التجهز لغزوة أليس :

إن تعجب لأمر بعد الولجة فلأن الذين غلى الدم فى عروقهم للهزيمة التى نزلت بهم لم يكونوا الفرس ، بل كانوا بنى بكر بن وائل من العرب . هؤلاء شقّ عليهم أن يغلبهم بنو عمومتهم من شبه الجزيرة ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبهم الأعاجم . فاجتمعوا جميعًا بأُلَّيْس على صلب الفرات فى منتصف الطريق بين الحيرة والأُبلّة . ورأى بهمن أن يسير إلى أردشير ليتلقى أوامره ، فقدّم جابان أحد القواد وأمره أن يحث السير إلى أُلَّيس وقال له : «كَفكِفْ نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحقَ بك إلا أن يُعْجِلوك» . وألفى بهمن أردشير مريضًا فأقام إلى جانبه وترك الأمر إلى جابان ولم يبعث له عن مقامه بنبأ ولم يُحدثْ له منه ذكراً . وبلغ جابان أُلَّيس فوقف إلى جانب عبد الأسود العِجّلى أمير الجند على بنى بكر بن وائل ومن نفر معهم من نصارى العرب ، وجعل يدبِّر وإياه أمر القتال .

المعركة تترجح فيستنصر خالد ربه :

لم يقف خالد بن الوليد ، فخرج فى جيشه ومن انضم إليه من عرب العراق ، وكرّ راجعًا إلى الحفير يؤمِّن مؤخرته . واطمأن إلى ما أراد ، ثم انقلب مسرعًا يلقى العدو حيث عسكر . ولم يُنْظِر[1] القومَ حين بلغ أُلَّيس ، بل دعاهم إلى القتال . وأسرع العرب إلى لقائه ، فلم يمهلهم أن قتل قائدهم مالك بن قيس . ولما رأى جابان صفوفهم تضطرب تقدم بجنود فارس يعززهم ، وهو وجنوده أشد ما يكونون بالفوز ثقة . أليس بهمن قد وعدهم أنه آت إليهم ، فليصبروا للمسلمين وليصابروا حتى يجيئهم المدد ، وليستميتوا فى الدفاع عن مواقفهم . ورأى خالد صبرهم وقوة تجلدهم لبأسه ، وإن لم يعرف باعثهم على هذا وذاك . وترجَّحت الموقعة حينًا حار له

(١) ينظر : يمهل .

خالد ؛ فتوجه إلى ربه يستنصره ويقول : «اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم ! » . وأنت تعرف معنى هذه الكلمة صادرة من أعماق سيف الله ومن صميم قلبه ، هذا القلب الذى لا يعرف الخوف ولا يهاب الموت ولا يفزع لمرأى الدماء . وطال بالفرس وأنصارهم الصبر وبهمن لا يُقبل ، فلما عيل صبْرهم[1] وتداعت قوتهم ولم يبق لهم من الهزيمة مفر ، تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون إلى الهرب ، ولا مأرب لهم إلا النجاة . ورأى خالد فرارهم ، فأمر مناديه فنادى فى رجاله : «الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع » . ولحق فوارس المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب وجاءوا بهم أفواجًا أسارى يساقون سوق النَّعَم .

ودعا خالد بالأسرى يستعرضهم لتبر يمينه أن يُجرى نهرهم بدمائهم ، ووكل بهم رجالا يضربون أعناقهم فى النهر ، وبعث خالد بالأنباء وبخمس الفىء والسبى إلى أبى بكر ، فلم يملك أبو بكر نفسه أن صاح : «عقمت النساء أن يلدن مثل خالد ! » .

اتهام خالد بالوحشية :

يقف بعض المؤرخين عندما قصصنا من حوادث أليس يُبدون الأسف أن يقع من قائد عبقرى كخالد فعال ذلك مبلغُها من الوحشية ، ويودون لو أن ما روى عنها غير صحيح ، وإن رجحوا صحته لتضافر رواة المسلمين على ذكره . ولست أقف عند ترجيح ما روى أو عدم ترجيحه . لكنى لا أملك نفسى دون الابتسام حين أرى هذه الفعال تنعت بأنها وحشية . ولست أبتسم إنكاراً لهذا النعت أو استنكاراً له ، وإنما أبتسم لأننى أرى أن كل حرب وحشية ، والحرب مع ذلك مسوَّغة فى نظر الأمم المتحضرة . فإذا كان الالتجاء إلى الحرب مع وحشيتها تسوغه قضية نعتقدها عادلة ، فتصوير ما يترتب على الحرب الوحشية فى أصلها وصميمها بأنه وحشى يدعو إلى الابتسام وإلى أكثر من الابتسام .

والحق أن الحضارة الإنسانية لما تصل إلى المدنية السامية التى تنزهها عن الوحشية وتسمو بها عليها . فهذه الوحشية لا تزال تعد من مقومات الحضارة ، ولا يزال الاستعداد للحرب يعدّ جوهريًّا لحفظ كيانها حتى تكسِب المناعة من أسباب الانحلال ؛ فما يلجأ إليه قائدٌ من القواد فى أثناء الحرب ، مما يزيد فى وحشيتها بعض الزيادة أو ينقص منها بعض النقص ، ليس أمراً ذا بال فى حياة هذه الإنسانية . وقد اعتاد الناس فى مختلف العصور أن يعدوا النصر عذراً عن كل ما سبقه . وقد حالف النصر خالداً فى كل مواقعه ، فليكن له من انتصاره العذر ، إن لم يكن من إلتماس العذر بدٌّ .

وحسبك لتطمئن إلى هذا العذر أن تعلم أن انتصار خالد وفعاله قد حطمت الروح المعنوية فى قلوب الفرس ومن والاهم من العرب ، فانكمشوا ولم يفكر أحد منهم فى الثأر بعد أَلّيس ، كما أرادوا من قبل أن يثأروا للمذار وللحفير . أليس خيراً لهم ــ وذلك ما تراه أعينهم ــ أن يُلقوا سلاحهم وأن يسلموا لحكم القدر ؟ ! . ذلك ما فعلوا .

---

(١) عيل صبرهم : نفد صبرهم .

أثر غزاة أليس :

تشاغل الفرس بموت مليكهم ، وتشتت العرب فى البادية وفى جزيرة بين النهرين ، وانقطع كل نبأ عن التهيؤ للحرب أو لإجلاء المسلمين عن البلاد . لكن خالداً كان أحصف من أن يُلهيه سكوتهم أو يُبطره الظفر فلا يرى ما يطوى الغد فى ضميره . وقبائل العرب هى التى حرضت الفرس على القتال فى أَلّيس . وهذه القبائل إن سكنت يومًا فلِتَغْدِر فى غده ؛ لهذا حسب خالد للموقف حسابه وأحكم تدبيره . وأيسر هذا الحساب أن يحتل الحيرة عاصمة العرب ، وأن يضع يده على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة .

التجهز لفتح الحيرة :

ولم يكن أهل الحيرة فى شك من مَقْدَمه عليهم وحصاره إياهم ، وقدّر حاكم الحيرة أنه سيركب إليه النهر ؛ لذلك نهض فى عسكره إلى خارج الحيرة ، وأمر ابنه فسدّ قناطر الفرات ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، وليعوق بذلك سير السفن إليه .

ولم يخطئ الحاكم فى تقديره ؛ فقد استقل خالد وجيشه سفنا ودفعوها شمالا إلى ناحية الحيرة . وإنهم لكذلك إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر . وريع المسلمون لجنوحها وارتطامها ، وأخذ الغضب من خالد مأخذه . وسأل عن علة ما حدث ، فأجابه الملاحون بأن أهل فارس سدوا القناطر وحولوا الماء ، فلم يبق منه بالنهر ما يحمل سفنهم ، فخرج فى كتيبة من فرسانه ، وأعاد الماء يجرى فى النهر وأقام مع فرسانه يحرسه . وعادت السفن إلى المسير وحملت إليه جيشه فسار به إلى الخَوَرْنَق حيث أنزله ليُعدّ لفتح الحيرة عُدَّته .

خالد فى قصر الخورنق :

وضع خالد يده على قصرى الخورنق والنَّجف ، وكانا مصيف أمراء الحيرة ، فى حين عسكر جيشه أمام أسوار المدينة . أما آزاذبه[1] ففر هاربًا من غير قتال ، ولم يثن فرارُه أهلَ الحيرة عن التحصن بقلاع المدينة الأربعة وبأسوارها ، وعن اتخاذ العُدة للدفاع عنها ما وجدوا إلى الدفاع سبيلا ، لكن عُدتهم لم تكن لتُجديهم فتيلا .

عهد خالد إلى أمرائه أن يبدءوهم بالدعوة إلى التسليم ، فإن أجابوا إليه قبلوا منهم ، وإن أصروا على الإباء أجّلوهم يوماً ثم قاتلوهم . ودعا أمراء المسلمين زعماء الحيرة إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة[2] . واختار الزعماء المنابذة ، ففض الجند عليهم قصورهم وأكثروا القتل فيهم .

مقاومة الحيرة تتحطم :

رأى أهل القصور المقاومة عبثًا فنادوا : «يامعشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تُبلغونا خالداً » .

وخلا خالد بأهل كل قصر دون الآخر ، وقال لهم : «ويحكم ! أأنتم عرب ، فما تنقمون من العرب ؟

---

(١) آزاذبه : حاكم الحيرة الفارسى .
(٢) المنابذة : المجاهرة بالحرب .

أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » . ولم يغير هذا الكلام من إصرار القوم على دينهم . ولعلهم إنما فعلوا متأثرة نفوسهم باعتبار الكرامة الإنسانية التى تحول بين المرء والرجوع عن عقيدة يؤمن بها لأنه غُلب على أمره وأكره على تبديل دينه ، متأثرة كذلك بأن المسلمين لايزالون فى أول عهدهم بالعراق ، وليس يدرى أحد أيطمئن لهم الأمر فيه أم تُجليهم الحوادث عنه .

صلح الحيرة على الجزية :

صالح خالد القوم على الجزية تسعين ومائة ألف درهم ، وكتب بينه وبين نقبائهم كتابًا عاهدهم فيه برضا أهل الحيرة وأمرائهم على هذه الجزية ، تقبل فى كل سنة على أن يمنعهم ، فإن لم يمنعهم فلا جزية عليهم . أما إن غدروا بفعل أو قول فذمَّته منهم بريئة .

وأهدى القوم إلى خالد الهدايا بعث بها وبنبأ الفتح والمعاهدة إلى أبى بكر ، فأجاز المعاهدة وقبل الهدايا ، لكنه احتسبها من الجزية وكتب بذلك إلى خالد .

ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لايسلِّم فيها . فلما أتمَّهُن انفتل إلى أصحابه يقول : «لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قومًا كمن لقيتهم من أهل فارس ، ومالقيت من أهل فارس قومًا كأهل أَلّيْس » .

خالد يتخذ الحيرة مركز قيادته :

وأقام خالد بالحيرة وجعلها مركز قيادته ، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب . على أنه ترك أمر إدارتها لزعماء من أبنائها . لذلك اطمأنوا إلى حكمه ، ونشروا حولهم جوًّا من السكينة إليه . ورأى أهل البلاد القريبة من الحيرة عدلا شاملا ، ورأوا بلاط فارس مشتغلا عنهم ، ففكروا فى مصالحة خالد والانضواء للوائه .(١) أليس قد ترك الفلاحين يعملون فى الأرض لم يتعرض لهم ، بل رفع عنهم ما كان نازلاً بهم من ظلم دهاقين الفرس ، وحفظ عليهم كل حقوقهم ؟

بلغ سلطان خالد شاطئ دجْلة ، وجعل عمَّاله يقتضون الجزية فى هذه البلاد جميعًا مابين الخليج الفارسى جنوبا إلى الحيرة شمالا ، ومن حدود بلاد العرب غربًا إلى دجلة شرقًا .

وأقام خالد فيالق من جيشه فى أماكن حصينة ليمنعوا من أجارهم من عدوان غيرهم عليهم ، وليكون مُقامهم فى مختلف المواطن مظهر السلطان الإسلامى بين أهل البلاد . ولقد كان لتوزيع هذه القوات فى مواطن حصينه أثره الحاسم فى القضاء على كل تفكير فى الفتنة ، وفى توطيد الأمر للمسلمين لاينازعهم فيه منازع . وإنما خَشِىَ خالدٌ ثورةَ الفتنة من ناحية القبائل العربية . أما الفرس فكفاهم أن بقيت المدائن بعيدة عن غزو المسلمين ، ثم كفاهم ماكانوا فيه من اضطراب حال بينهم وبين التفكير فيما عداه .

سأم خالد :

وقد بقى عياض بدومة لم يستطع التغلب على أهلها من يوم خرج إليهم . لذلك أقام خالد سنة كاملة

(١) الانضواء للوائه : الميل والانضمام إليه .

بعاصمته الجديدة ، ويكاد بُعده عن ميادين القتال يقتله . ماذا عساه يفعل ؟ ، لقد حرّم أبو بكر عليه المدائن قبل أن يدركه عياض . أو لايجد فيما سوى المدائن رياضة لنشاطه الحربى تتفق وأوامر الخليفة ؟ ! نعم ! فهؤلاء هم الفرس قد أقاموا كتائب فى الأنبار وعين التّمر على مقربة من الحيرة ، فليتحرك إليهم وليجعل لنفسه من ذلك رياضة عن سنة النساء التى قضاها قاعداً لايقاتل ولا يقتل .

خالد يستولى على الأنبار :

وترك خالد القعقاع على الحيرة ، وجعل على مقدّمته الأقرع بن حابس وسار على شاطئ الفرات يبدأ بالأنبار ، ونزل فحاصر المدينة ، وأمر جنده فرشقوا رجالها بالنبل . لكنها ظلت متحصنة بأسوارها وبالخندق العميق الذى حفر حولها . وخالد قائد لاصبر له دون النصر . لذلك طاف بالخندق ، حتى إذا كان عند أضيق مكان منه أمر بالإبل الضعاف فنحرت وألقيت فى أعماقه فطمّته[1] ، واقتحم الجند من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها ؛ لكن قائدها الفارسى أرسل إلى خالد أنه قبل مطالبه فى الصلح على أن يُلحقه بمأمنه ، وقبل خالد ، ودخل الأنبار واستقرّ بها وصالح مَنْ حولها ، واستتب له الأمر ، وتم له بعض ما أراد من رياضة عبقريته على القيادة .

وعين التمر يفتحها :

اطمأن الأمر لخالد فى الأنبار وما حولها ، فاستخلف عليها الزّبْرِقان بن بدر ، وقام فى جنوده يقصد عين التمر على شفا الصحراء بين العراق وبادية الشام فبلغها فى ثلاثة أيام ، وكان فيها جمع عظيم من العجم ، وإلى جانب هؤلاء الأعاجم أقام عشير عظيم من قبائل البادية ، بنى تغلب والنّمر وإياد يرأسهم عقّة بن أبى عقة والهذيل ومن كانوا معهم على قيادة الجنود التى نفرت مع سجاح لتغزو المسلمين بالمدينة .

شدة خالد فى عين التمر :

نزل عقّة لخالد على الطريق وحمل بجنده على جيش المسلمين ، فأسرع خالد إليه فاحتضنه فأخذه أسيرا ، فولّى البدو منهزمين من غير قتال . وتعقبهم المسلمون ولم يلبث مهران[2] حين رأى من الحْصن ماحدث أن فرّ فى جنده وترك الحصن تحميه الكتائب التى امتنعت فيه ، وتحميه فلول البدو التى عادت هزيمة إليه . ورأى مَنْ بالحصن أنْ لاطاقة لهم بخالد ، فسألوه الأمان فَأبى إلا أن ينزلوا على حكمه . وأجابوه إلى ما طلب وفتحوا له أبواب الحصن ، فاعتقلهم وأمر بعقّة فضُرب عنقه ، ثم ضرب أعناق المقاتلة بالحصن وسبى نساءهم وغنم أموالهم .

ويفسر الراوة شدة خالد فى هذا الموقف بأن أعداءه قتلوا عميراً الصحابى كما قتلوا أحد الأنصار غدراً ؛ ويرى بعضهم أن هذه القسوة أورثت عرب العراق حقداً على خالد كان ذا أثر فى الانتقاض الذى حدث بعد ذهابه لفتح الشام .

مدد عياض بالوليد بن عقبة :

ولما أتم خالد فتح الأنبار وعين التمر بعث إلى أبى بكر بالأخماس والأنباء مع الوليد بن عقبة . وقص

(١) طمته : ردمته . وسوته بالأرض .

(٢) هو حاكم عين التمر الفارسى .

الوليد على الخليفة ماحدث ، فلما سمع قصص الوليد عن خالد وسأمه أمر الوليد أن يتوجَّه مدداً لعياض بدومة الجندل . وألفى الوليد عياضا يحاصر القوم ويحاصرونه وقد أخذوا عليه الطريق ، ولم يجد بعد مداولة الرأى معه وسيلة تنقذه من هذا الموقف . هنالك قال له : « الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف . أبعثْ إلى خالد فاستعْدِه » .

وما كان لعياض أن يتردد فى قبول المشورة .

ابن الوليد يسرع إلى دومة :

خلّف خالد عُويم بن الكاهل الأسلمى على عين التمر وخرج فى جنده يسرع إلى دومةَ جهدَه . وكان بين دومة الجندل وعين التمر ثلاثمائة ميل قطعها خالد فى أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفود ، منحدرا من الشمال إلى الجنوب ، مستعرضاً خطر الصحراء ورمالها السافية بعزم لايعرف الخطر . فلما كان قريبًا من دومة وتسامعت القبائل بمقْدمه بُهِتَتْ ؛ ثم اختلف زعماؤها بينهم ما يصنعون .

وكانت القبائل المعسكرة بدومة فى ذلك الحين أضعاف عددها يوم جاءها عياض قبل عام . ذلك أن بنى كلب وبهْراء وغسان نفروا من العراق ونفر معهم غيرهم منحدرين إلى دومة يريدون أن يثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد . وكان مجيئهم مما زاد موقف عياض حرجًا .

صاحب دومة ينصح بالمصالحة :

وكان أكيدر بن عبد الملك الكندىّ صاحب دومة ، فلم يلبث حين عرف مقدم خالد أن توجَّه بالقول إلى الجودى بن ربيعة أمير القبائل التى انحدرت تنصر دومة وتثأر من عياض وينصحه أن يصالح خالداً . قال : « أنا أعلم الناس بخالد ! لا أحد أيمن طائراً منه ولا أجدُّ فى حرب . ولايرى وجه خالد قوم أبداً كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم » .

أبت القبائل رأى أكيدر فقال لهم : « لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم » وخرج لطِيَّته[1] يلقاه .

ومضى خالد فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض بن غَنْم . وكان الجودىّ بن ربيعة قد بقى على أهل دومة ، فى حين ترأس كل قبيلة من القبائل التى أمدت دومة زعيمها . وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد ، فأقام سائر القوم حوله يحيطون به . واستفتح الفريقان القتال ، فلم يلبث الجودى أمام خالد إلا قليلا ثم أخذه خالد أخذاً ؛ وأخذ الأقرع بن حابس زميله على أهل دومة ، وهزم عياض من يليه من جند القبائل . عند ذلك أسرع القوم جميعاً إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتماء به . فلما امتلأ أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم من يشاءون .

خالد يحاصر حصن دومة :

طوّف خالد بالحصن ، حتى إذا كان عند بابه أمر به فاقتلع ، واقتحم المسلمون على من فيه فقتلوا

(١) الطية : الوجهة ، والنية ، والحاجة .

المقاتلة وسبوا النساء وباعوهن خير المشترين ، واشترى خالد أجمل فتاة فيهن ابنة الجوديّ بن ربيعة وأقام معها بدومة ، وردّ الأقرع بن حابس إلى الأنبار .

سبب عناية المسلمين بدومة :

ما عناية المسلمين بدومة الجندل كل هذه العناية ؟ وما حرصهم على الاستيلاء عليها هذا الحرص ؟ ! لقد رأيتهم على عهد الرسول تتجه أنظارهم إليها ، ثم يحالفونها ويضمونها إليهم ، وها هم أولاء فى عهد أبى بكر يقضون سنة أمام حصونها ، ثم لاينفكون عنها حتى تدين لهم وتعود إلى سلطانهم ، ولعلك عرفت الجواب : فدومة كانت تقع على رأس الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق ، وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام . فطبيعىّ أن تنال من عناية رسول الله مانالت حين كان أكبر همه إلى تأمين الحدود مابين الشام وشبه الجزيرة . وطبيعىّ أن تنال مثل هذه العناية من أبى بكر ، وجنودُه تقاتل بالعراق على تخوم الشام ، ولو أن دومة لم تُذعن للمسلمين ولم تخضع لسلطانهم لبقى أمرهم فى العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام .

ولنقف الآن هنيهة مع خالد بدومة نسأله : ما سرّ هذه الموهبة التى جعلت النصر طوع يده . وهذا الفيض الإلهى الذى يتصل بروح عبد من خلق الله هو الذى يسمو به وبالأمة التى ينشأ فيها إلى حيث يريد الله . فإذا التقت تيارات الفيض فى زمن واحد وفى أمة واحدة ماالتقت فى أبى بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومن عاصرهم وعمل معهم ، سمت فى فترة وجيزة من الزمن إلى حيث سمت الأمة الإسلامية فى سنوات معدودة ، فانتقلت فى أقل من جيل من بداوة شبه الجزيرة إلى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف المتغلغلة بسلطانها الروحى فى أعماق النفوس ، والتى حملت عبء الحضارة عن العالم كله عشرة قرون تباعًا حتى احتملته أوربا ولا تزال تنهض بعبئه إلى اليوم .

العراق يثور فى غياب خالد :

الناس يشعرون بسلطان هذه المواهب فتعنو لها وجوههم ، فإذا ارتحل عنهم صاحبها خلا لهم الجو فرفعوا رءوسهم وحاولوا الظفر بحريتهم . وكذلك صنع أهل الحيرة وغيرهم من أهل العراق فى غيبة خالد بدومة . ظن الأعاجم ومن ناصرهم من العرب أن الحظ موات والفرصة سانحة ، وخيِّل إلى بنى تغلب أن الثأر لمقتل عقّة قد حان . ولم يكن فى طاقة القعقاع إلا أن يحمى ماكسب المسلمون فلا يَدَعَ مَنْ وراء حدودهم يتقدم إلى غزوهم .

عود خالد إلى العراق :

وبلغت خالداً هذه الأنباءُ فلم يطق البقاء بدومة بل خرج وعلى مقدمتـه الأقرع بن حابس ومعه عياض ابن غنم . ومالبث حين بلغ الحيرة أن جعل عليها عياضاً ، ووجه القعقاع إلى الحُصَيْد حيث تواعد الثائرون من العرب والفرس . أما هو فأقسم ليبغتنَّ تغلب فى دارها .

ولقد كفى أن علم أهل العراق بمقدَمه فأسْقِطَ فى أيديهم وتنكَّر وجه الحظ لهم ، وخاب ماظنوا .

وسار القعقاع إلى حُصيد وقد أمده خالد من روحه بقوة على قوته ، فلم يثبت له العجم بل قُتل قائدهم ، وفرّ جيشهم ، وانتهى خبر ذلك إلى خالد ، فكتب إلى قواده فواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها ببلدة المُصَيَّخ ، منازل هذيل الثائرة بهم . واجتمعوا ليلة موعدهم وأغاروا على هذه القبائل وهم نائمون ، فملأوا الفضاء بقتلاهم .

وآن لخالد بعد المُصَيّخ أن تبرّ يمينه ليبغتن تغلب فى دارها . لذلك تقدم إلى قائديه القعقاع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الغارة على التغلبيين فى ليلة عيّنها . واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه فجردوا السيوف ، فلم يفلت من جيش بنى تغلب مخبر[١]

خالد يبلغ الفراض :

ذاعت أنباء خالد وشنُّه الغارة على القبائل ليلا فى منازلها ، وأخذه النساء والبنات سبيّات منها ، وقسمته المغانم والسبى بين عسكره ، وعجز القبائل جميعًا عن مقاومته ، ففت ذلك فى أعضاد رجال البادية بالعراق ، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان ، وجعل يسير شمالا على شاطئ الفرات وفيما حوله ، فلا يلقى إلا الإذعان والإيمان بعبقريته . فلما بلغ الفراض ، وهى تخوم العراق والشام ، نزلها بجيشه . وهى معجزة لم يؤتها إلا الذى عقمت النساء أن يلدن مثله . وأية معجزة كمواجهة الروم من تخوم فارس ! وأية جرأة كمقام خالد بالفراض شهراً كاملا وليس بينه وبين جيوش الروم المعسكرة بالشام غير مجرى الفرات ! أولا يخشى أن تضيق هذه الجيوش صبراً بمرآة فتنازله فيضاعف بذلك عدوه ؟ وأىّ عدو ! فارس من الشرق ، والروم من الغرب ، وقبائل البدو الحاقدة المحنقة من كل جانب . أليس خيراً له وقد قضى على ثورة العراق أن ينسحب إلى الحيرة وأن يقيم بها فيوطد ملك المسلمين فيها !! .

كلا ! لئن فعل ليكونن السياسى الذى يريد أن يجعل الزمن من جنده والصبر من أعوانه . وخالد أضيق صدرا بالزمن وأكثر ازدراء للصبر وأشد مقتًا للسياسة .

غزوة الفراض :

ولمّا تكن الروم قد ذاقت بأس خالد . لذلك أغاظهم أن يقيم جيش المسلمين فى وجوههم وأن يطيل المقام ، وثارت فى عروقهم حمية أذكاها الفرس والعرب الذين ذاقوا من نكال خالد أهوالا . فقد كان للفرس كتائب قريبة من الفراض . وأهل البادية من تغلب والنمر وإياد منتشرون فى كل مكان . هؤلاء وأولئك انضموا للروم وحرضوهم وأمدوهم ، فساروا حتى إذا لم يبق إلا الماء بينهم وبين خالد بعثوا إليه يقولون : إما أن تَعْبُروا إلينا . وإما أن نعبُر إليكم . قال خالد : بل اعبروا إلينا . وفيما يعبرون صفّ صفوفه ودبر خُطته ، فكان صاحب الخيل يحشر منهم الزُّمر برماح أُصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم . وانكشف الروم وحلفاؤهم مدبرين والمسلمون من ورائهم يُمعنون فيهم قتلا .

أقام خالد على الفراض بعد الموقعة عشرة أيام ، ثم أذّن فى الناس بالرجوع إلى الحيرة ، وكان أذانه ذاك لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة للهجرة .

---

(١) مخبر : متحدث يخبر .

ترى أيعود خالد مع الجيش يستقر بالعاصمة الجديدة ؟ ! . لقد فتح الله عليه اليمامة ، ثم فتح عليه العراق ، وأدال[١] له من دولة كسرى ، وبشره فى الفراض بإدالة الروم ودولتهم . أو ليس فرضا لله عليه أن يحج بيته ؟ .

ولا سبيل إلى هذا الأمر إلا أن يحج خالد وأن يعود إلى العراق ، ثم لايعلم بذلك أحد إلا أصفياؤه الذين يخرجون معه .

حج خالد فى سر من الناس :

أمر خالد الجيش إذن أن يعود إلى الحيرة متمهلا وأظهر أنه فى الساقة ، وخرج فى نفر من أصحابه يهب الأرض إلى مكة ، وبلغ مكة وأتم فرائض الحج وأدى لله دينه ، ثم عاد أدراجه لم يعلم بمقْدَمه إلى مكةَ أحد من الألوف الذين قدموا إليها ، ولم يعلم به أبو بكر .

* * *

---

(١) أدال له منهم : نصره عليهم .

المنــاقشـــة

١ - «كان العرب فى العراق يعملون فلاحين فى أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره ، أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم ، وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء » .

(أ) مامفرد (الدهاقين) ؟ وما معناها ؟ وما معنى (يسومون) ؟

(ب) فى العبارة عاملان من عوامل النصر فى العراق . وضح ذلك بأسلوبك .

(ج) ماذا أفاد عطف (الظلم) على (الخسف) ؟ وتنكير (سوء) ؟

(د) كانت وصاة الصديق بعرب العراق محددة المعالم . وضح ذلك ، ثم اذكر ما ساق الكاتب من دوافعها .

٢ - «وكان جنود خالد قد قل عددهم ...... وقد أمره الخليفة أن يأذن لمن شاء بالرجوع وألا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه فى الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه ، وطلب خالد إلى أبى بكر المدد ، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى » .

(أ) مامعنى (يستفتح - ومتكاره) ؟

(ب) فى العبارة بعض أسس التعبئة الحربية حينئذ . وضحها بعبارتك ، واذكر أسبابها .

(ج) عجب قوم من إمداد خالد بالقعقاع . فماذا كان رد الخليفة ؟

(د) فى غزاة كاظمة تجلى إلهام الخليفة حين أمد خالدا بالقعقاع . وضح ذلك .

٣ - ماذا كانت خطة هرمز ؟ ولماذا عول عليها ؟ وكيف ارتد سهم الغدر إلى نحره .

٤ - تحدث عن أثر الانتصار فى كاظمة ، وبين مازاد ذلك النصر جلالا .

٥ - «بلغ خالد المذار فأخاف الفرس ، وإن لم يخفف وصوله غلواء قارن ، ولم يضعف من عزمه ، ورأى قباذ وأنوشجان فرصة الثأر لهزيمة الحفير سانحة ، وخيل إليهما وإلى قارن أنهم إن هاجموا خالدا قبل أن يتخذ للموقف عدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين ، وأن يردوهم على أعقابهم إلى شبه الجزيرة العربية منكسة رءوسهم ، صريعا فى أذهانهم كل أمل » .

(أ) مامعنى (غلواء - وسانحة) ؟ وما مضاد (الظفر) ؟

(ب) أحدث قدوم خالد أثره ، وإن لم يذهب ببريق الآمال الخادعة . وضح ذلك فى ضوء العبارة .

(ج) عبر بكلمة واحدة عن (منكسة رؤسهم) و (صريعا فى أذهانهم كل أمل) .

(د) تحدث عما دار بغزوة المذار ، وعن نتائجها المادية والنفسية .

٦ - «لايفل الحديد إلا الحديد» . ماذا كان يعنى هذا القول بالنسبة للفرس ، وكيف حولوه إلى عمل ؟

٧ - «هنالك انهزمت صفوف الأعاجم فولوا وقد أخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير

رجل منهم مقتل صاحبه . ولى الأعاجم وولى العرب الموالون لهم وسيوف المسلمين آخذه برقابهم ، وجنود المسلمين يأسرون منهم من لم يترد قتيلا » .

(أ) ماعكس (ولوا) ؟ ومامعنى (بين أيديهم) ؟

(ب) ترسم العبارة صورة دقيقة ، وإن كانت خاطفة للمعركة . أعد تصويرها بقلمك .

(ج) (فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه) فى العبارة كناية لطيفة . وضحها ، وبين سر جمالها .

(د) تجلت فى الولجة عبقرية القائد فى التخطيط . تكلم عن ذلك .

٨ - «يقف بعض المؤرخين عندما قصصنا من حوادث أليس يبدون الأسف أن يقع من قائد عبقرى كخالد فعال ذلك مبلغها من الوحشية ، ويودون لو أن ماروى عنها غير صحيح ، وإن رجحوا صحته لتضافر رواة المسلمين على ذكره ، .... لكنى لا أملك نفسى دون الابتسام حين أرى هذه الفعال تنعت بأنها وحشية » .

(أ) ما المقصود من (تضافر) ؟ ضع مفرد (رواة) فى جملة من عندك .

(ب) فى العبارة موقفان متباينان . وضحهما ، واذكر ما اختلفا عليه .

(ج) دافع الكاتب عن تصرف خالد . اعرض وجهة نظره ، واذكر رأيك ، معللا لما تراه .

(د) (يودون لو أن ماروى عنها غير صحيح) تحمل العبارة روح التعاطف مع خالد . وضح ذلك .

٩ - فى الطريق إلى الحيرة تجلت عبقرية خالد فى مواجهة الغريب غير المألوف . تحدث عن ذلك بعبارتك .

١٠ - استولى السأم على خالد عقب الحيرة . فلماذا ؟ وكيف دفع هذا السأم ؟

١١ - اشتد خالد فى معاقبة أهل عين التمر . فماذا فعل معهم ؟ وبماذا فسر الرواة شدته ؟ وماذا أعقبت بعد ذلك فى رأيهم ؟

١٢ - لم يكن ما تم لخالد بدومة الجندل إلا واحدا من شواهد أثبتت بعد نظر الصديق حين استبقاه للقيادة . ناقش ذلك .

١٣ - اعتبر الكاتب غزوة الفراض معجزة . ماذا تم فيها ؟ ولم كانت كذلك ؟

* * *

بين العراق والشام

حذر الروم من المسلمين :

تحدث الناس فى مختلف الأقطار بفعال خالد بن الوليد فى العراق العربى ، وبانتصار المسلمين على الفرس فى جميع المواقع التى التحموا فيها . وكان لهذه الأنباء من الصدى فى الشام وفى باديته ما نبَّه عاهل[1] الإمبراطورية الرومية الشرقية فى مستقره ببزنطية وما أثار تفكيره . أليس طبيعيًّا أن يفكر المسلمون فى غزو الشام العربى كما فكروا فى غزو العراق العربى ؟ ! هذا أمر يجب الاحتياط له والحذر منه .

إلى هذا الاتجاه انصرفت سياسة الروم ، فانقلبت من الطمأنينة إلى الحذر .

تفكير أبى بكر فى غزو الشام :

لم يكن هذا الخاطر الذى أثار هواجس[2] هرقل بعيداً عن تفكير أبى بكر بل كان يتردد فى نفسه مذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حروب الردة . لكنه كان يتردد فى تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتقاض العرب عليه وثورتهم به كرة أخرى . فلما هون المثَّنى بن حارثة الشيبانى أمر العراق ، ولما انطلق بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية ويضع يده على الحيرة ويجعلها عاصمته ، ازداد أبو بكر تفكيراً فى أمر الشام . إن به من قبائل العرب مثل ما بالعراق ، وقد انضمت بعض قبائل العراق إلى جيوش المسلمين وحاربت فى صفوفهم جيوش كسرى مع بقائها على نصرانيتها . لا جرم أن تفعل قبائل الشام فعلها .

الموقف على تخوم الشام :

زال كل تردد من نفس أبى بكر حين سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . لكن انشغال قوات المسلمين بالعراق وبقتال المرتدين جعله يؤثر أن يقف من الروم موقف المدافع ، ولم تكن الروم من جانبها لتجازف باجتياز تلك التخوم وهم يرون المسلمين ينتصرون فى كل مكان .

وزاد الروم إيثاراً لهذا الموقف أن القوات التى أوفدها أبو بكر عقب بيعته إلى شمال الجزيرة لقتال من ارتد ولحماية التخوم بقيت سليمة لم يصبها أذى . وكانت قوات الروم من أهل فلسطين ومن عرب البادية المقيمين على حدود الحضر ، فلم يكن يدفعها إلى مقاتلة العرب وازع[3] نفسانى .

خالد بن سعيد وتخوم الشام :

كان قائد المسلمين على هذه التخوم خالد بن سعيد بن العاص .

نزل خالد تيماء وقد أمره أبو بكر ألا يبرحها ، وأن يدعوا القبائل التى حولها إلى الانضمام إليه إلا من ارتد منهم ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . ونفذ خالد أمر الخليفة ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة

---

(١) العاهل : الملك الأعظم يحكم شعوبا مختلفة كالخليفة والإمبراطور . والجمع عواهل .

(٢) هواجس : خواطر ، والمفرد هاجس .

(٣) وازع : دافع .

جعلت عسكره عظيمًا وترامت إلى الروم أنباء هذه الجموع على تخومهم ، فلم يبق لدى هرقل ريب فى وجوب دفعهم ؛ ولهذا الأمر اتخذ عدته . وترامت إلى خالد بن سعيد من ذلك أنباء سارع فبعث بها إلى المدينة مشفوعة برأيه أن يأذن الخليفة له فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة .

أبو بكر يشاور فى غزو الشام :

فكَّر أبو بكر فى رسالة خالد بن سعيد وطال تفكيره ، وأصبح يوماً فدعا إليه جلة المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، فتحدث إليهم وذكر لهم أن رسول الله كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار مالديه . «والعرب بنو أم وأب . وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ؛ فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعًا عن الدين ، مستوجبًا على الله عز وجل ثواب المجاهدين » . ثم طلب إليهم رأيهم ، فقالوا : «ما رأيت من رأى فأمضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك » . فقام أبو بكر يدعو القوم للتجهُّز إلى غزو الروم بالشام .

سياسة الصديق بعد انتصاراته :

كانت سياسة أبى بكر خيركفيل بالنصر والنجاح . فقدكان فى حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزم الذى لاتفلّ منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما ترك لها رسول الله من قبل ، فلم يطلب إليها إلا الزكاة التى كانت تؤديها أيام النبى . وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها فى شؤون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عمّاله الذين ولاهم أمورها ، والذين كانوا على مثاله عدلا ونصفه[1] . بذلك اطمأنت العرب جميعًا إلى عيشهم ، وزال كل خوف من انتقاضهم .

ولم يكن أبو بكر يستبقى لنفسه من الزكاة أو من أخماس الفئ إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها فى تجهيز الجيوش للجهاد ، ويوزع مابقى على الفقراء وأبناء السبيل وكل من له حق فى بيت مال المسلمين . وكان بيت المال فى دار أبى بكر بالسُّنح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها . ورأى بعضهم مايجيء من مغانم فارس ، فقال له : ألا تجعل على بيت المال من يحرسه ! ! قال : لا ! ذلك أنه كان ينفق كل مافيه فلا يبقى به ما يحتاج إلى حارس . ولم يقف أمر ذلك عند الزكاة وأخماس الفئ . فقد فُتح أثناء خلافته منجم للذهب فى بنى سُلَيم على مقربة من المدينة ، هو عرق الذهب الذى يستغلّ فى عصرنا الحاضر ، فكان أبو بكر يسوّى فى قسمه بين السابقين الأوّلين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : «ألا تقدّم أهل السبق على قدر منازلهم ؟ » ؛ فقال : «إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفّيهم ذلك فى الآخرة ؛ إنما هذه الدنيا بلاغ[2] » .

أدّى هذا العدل بين الناس جميعًا إلى اطمئنانهم جميعًا . وأدى حزم أبى بكر وحمله تَبِعة الأمر كله إلى

---

(١) نصفة : إنصافا

(٢) هذه الدنيا بلاغ : يريد أنها وسيلة توصل إلى الآخرة ، وليست غاية .

مهابتهم إياه وإكبارهم له . كان عمر بن الخطاب أقرب المشيرين إلى قلبه وأرجحهم رأيًا عنده ، وكان عثمان وعليّ وطلحة والزبير وغيرهم موضع تقديره واحترامه ، لايقطع فى أمر برأى قبل مشورتهم . ولكنه لم يكن مع ذلك يلقى على أحد منهم تبعة ، ولم يكن يتوارى وراء مشورتهم ليدفع عن نفسه لومًا . ولقد رأيته كيف خالف الجماعة فى بعث أسامة ، وكيف أبدى من الحزم وقوة العزم فى محاربة المرتدين ما جعل مشيريه كلهم يقرون من بعد بسداد رأيه وبعد نظره ؛ ثم رأيته كيف خالف ابن الخطاب فى خالد بن الوليد حين مقتل مالك بن نويرة ، وكيف كان يستخير الله فى كل شيء ، فإذا خار[1] له فى أمر لم يرجع عنه ولم يتراجع لأى اعتبار دونه .

تفرغه التام لشؤون الدولة :

لم يغيّر تزايد تبعاته من شظف عيشه ، بل زاده انصرافًا عن كل مايرفه به عن نفسه . كان حين مقامه بالسُّنح لا يأبى على نفسه ألوانًا من الرّفة تعينه على الحياة والجهد فيها ؛ فكان يغدو إلى المدينة وربما ركب فرسه وعليه إزار ورداء مُمشَّق فيصلى بالناس ؛ وكان يستريح بالسنح أحيانًا فيصلى عمر بهم . وكان يقيم بداره صدر النهار يوم الجمعة يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يذهب إلى المدينة يخطب الناس ويؤمهم للصلاة . أما مذ أقام بالمدينة لتزايد أعباء الدولة فقد تم تفرغه لشؤون المسلمين وإن فاته ما يرفه عنه . وأقام مع تزايد هذه الأعباء لا يتخذ لنفسه خادمًا فى داره ولا فى أعمال الدولة . ثم كان يجلس فى المسجد حيث كان يجلس رسول الله ، يسمع للناس ويحدثهم يستشيرهم ويشير عليهم ، ويقضى فيما يعرض عليه من شتى الشؤون .

وكان ، على إيثاره الشظف ، شديد البر بالفقراء و الضعفاء . كان يشترى الأكسية ويفرقها على الأرامل فى الشتاء ، وكان يرعى الفقراء والمساكين بنفسه فى سرّ من الناس . كان عمر بن الخطاب يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قُضيت حاجاتها . وترصد عمر يومًا ، فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مئونتها ، لم تصرفه عن ذلك الخلافة وجسامة تبعاتها . وقال عمر حين رآه : «أنت هو لعمرى !» .

ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبى بكر أسوة[2] عماله فى سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة وإنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر فى نجاح سياسته .

عوامل النصر فى تقدير أبى بكر :

كان أبو بكر مطمئنًا من جانبه إلى النجاح كل الاطمئنان . لقد وعد الله رسوله لينصرن دينه ، ووعد الله حقّ . وقد نصر الله المسلمين فى حروب الردّة ، وهاهى ذى جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ، ويفيء النصر عليها من المغانم ما جعل قبائل العرب أشد على الحرب إقبالا ، هذا إلى ماغرسه الإسلام فى النفوس من حب الاستشهاد .

وكان أبو بكر يعلم ماللحرص على الاستشهاد فى نفوس الأكثرين من أثر لا يقاس إليه إغراء الفيء ،

---

(١) خار له : اختار له .

(٢) أسوة : قدوة .

وهل نسيت صيحات الأبطال الذين اندفعوا إلى الوطيس[1] فى معركة اليمامة ، لا يشك أحدهم فى أنه ملاق ربه . وهو بهذا اللقاء سعيد كل السعادة ! ، وهم يقبلون على الاستشهاد لأنه طريق الجنة ؛ إذ يغفر الله للمجاهد فى سبيله كل ذنوبه . وقد كان أحدهم يرى صاحبه يتخطفه الموت من صفوف القتال فيرى فى استشهادة آية الرضا من الله عنه ، ويتمنى لنفسه مثل هذا الحظ من رضا ربه .

على أن إغراء الفىء لم يكن بالأمر الذى يستهان به . فهو فى فطرة البدوى منذ خلقه ، ولن يزال فى فطرته أبدَ الدهرِ .

كتاب أبى بكر إلى أهل اليمن :

لم يتغير عزم أبى بكر على غزو الشام بل بدأ يستنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يقول لهم : أما بعد ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالا . « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا مَنْ قِبَلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك وعسكروا . وخرجوا وحسنت فى ذلك نيتهم وعظمت فى الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » .

ولقيت هذه الدعوة أذناً سميعة .

ولقد كان للروم كل العذر فى أن يتحركوا وأن تزداد حركتهم نشاطًا . فالأنباء كانت تصل إليهم تترى بانتصار المسلمين فى العراق وبانقضاء الثورة التى كانت قائمة فى بلاد العرب . وهم لم ينسوا مجازفة محمد وأصحابه بالغارة عليهم والانتقاص من أطرافهم وموادعة القبائل المقيمة على تخومهم . وها هم أولاء أتباعه يقيمون اليوم على تلك التخوم ، وقد تحدثهم أنفسهم باجتيازها . لذلك دعا الروم الغسانيين وغيرهم من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا سدًّا منيعًا فى وجه المسلمين . واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم .

أول فتح الشام :

كتب خالد بن سعيد إلى الخليفة باجتماع الروم ومن نفر إليهم ، واستأذنه فى منازلتهم . وكان أبو بكر يعدّ إذ ذاك جيوشه لغزو الروم ؛ لذلك كتب إلى خالد بن سعيد يقول : « أقْدِم ولا تُحجم واستنصر الله ! » .

وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .

* * *

---

(١) أصل الوطيس : حفيرة يختبز فيها ، ويشوى .

المناقشة

١ - بم تحدث الناس عن فتح العراق ؟ وما أثر ذلك فى الشام وباديته ؟ وفيم فكر عاهل الروم ؟ ولماذا ؟ .

٢ - «لم يكن هذا الخاطر الذى أثار هواجس هرقل بعيدا عن تفكير أبى بكر ، بل كان يتردد فى نفسه منذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حروب الردة . لكنه كان يتردد فى تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتقاض العرب عليه وثورتهم به كرة أخرى » .

(أ) ورد الفعل (يتردد) مرتين فى العبارة . وضح معناه فى كل مرة ، ثم ضع مفرد هواجس فى جملة توضح معناه .

(ب) تشير العبارة إلى بوادر التفكير فى فتح الشام ، وموانعه . عبر عن ذلك بأسلوبك .

(ج) ماذا شجع الصديق للإقدام على الغزو ؟ ثم ماذا حسم الموقف بالنسبة له ؟

(د) لم آثرت الروم موقف الحذر ؟ وما الذى زادهم إيثارا له ؟

٣ - حين استشار الخليفة جلة الصحابة فى فتح الشام قدم لهم مبرراته . اعرضها بأسلوبك ، وبين مدى كفايتها فى الإقناع بما أراد .

٤ - «كانت سياسة أبى بكر خير كفيل بالنصر والنجاح ، فقد كان فى حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزم الذى لاتفل منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى » .

(أ) مامعنى (الوهن) ؟ وما جمع (مأتى) ؟ .

(ب) فى العبارة عناصر أساسية قام عليها حكم الصديق . تناولها بحديث تفصيلى ، مبينا آثارها فى كيان الأمة .

(ج) لم آثر التعريف فى (العدل والرحمة) والتنكير فى (قوة وناحية) ؟ .

(د) فيم كان حرصه على جمع الزكاة ؟ وما مصارفها ؟ وماذا كان يستبقى لنفسه منها ؟ .

٥ - »ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبى بكر كان أسوة عماله فى سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة وإنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر فى نجاح سياسته » .

(أ) مامرادف (أسوة) ؟ وما المراد من (عماله) ؟ .

(ب) اتصاف الحاكم بمثل هذه الصفات بالغ الأثر فى حياة شعبه . تحدث عن ذلك فى ضوء العبارة .

(ج) (كانت من العوامل) تعبير له مدلوله . وضحه ، وبين أثر التفصيل والعطف فى العبارة .

(د) اجتمعت عدة عوامل بعثت الطمأنينة لدى الصديق . بينها .

* * *

فتح الشام

خالد بن سعيد يغلب الروم :

أقام خالد بن سعيد بتيماء فى جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام . وأقام جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم إليه من القبائل على الناحية الأخرى من هذه التخوم . ولقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حميَّة المسلمين وحركهم لقتال خصومهم . فلما قرأ خالد فى كتاب أبى بكر : « أقْدِم ولا تُحجِم واستنصر اللهَ » . أسرع بكل قواته فتخطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب إلى أبى بكر بالنبأ ؛ فأجابه : « تقدم ولا تقتحم حتى لا تُؤتى من خلفك » . وتقدم خالد فى طريق البحر الميت ، فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقى لذلك البحر ثم تابع مسيرته . هنالك ثارت الروم وثارت حمية أهل الشام معهم ، فتجمعوا فى قوات تزيد على ما اجتمع قُبالة تيماء أضعافًا مضاعفة .

ورأى خالد بن سعيد تجمعهم ، فكتب إلى أبى بكر يستمده ليتابع مسيرته المظفرة . وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم . وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوءٌ أملا بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيراً من الفرس حالا . وهم منذ غلبوا الفرس قد استغرقوا فى سُباتهم [1] ، وجعلوا كل اعتمادهم فى حماية تخومهم على أبناء البادية . ولأبناء البادية فى مواقف كثيرة آيات بأس وشجاعة ميزتهم . لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بنى عمومتهم العرب المسلمين . ولعلهم رأوا فى ضن هرقل بالروم على القتال دليلا على خوفه أن يُهزم أبناء وطنه أو يُقتلوا . لذلك تراخوا فى القتال ، وتركوا خالد بن سعيد يتقدم دون أن يثبتوا له .

جيوش المدد لخالد بن سعيد :

كان عكرمة بن أبى جهل قافلا من كندة وحضرموت عن طريق اليمن ومكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد . حتى يطمئن ، ويتابع مسيرته .

وكان عمرو بن العاص مقيمًا بقضاعة مذ قضى على الردّة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخيِّره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام ، وكتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » . وكان جواب عمرو : « إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامعُ لها . فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها فارم بها شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحى » . وكتب الصدّيق إلى الوليد بن عُقْبة بمثل ما كتب به إلى ابن العاص ، فكان جوابَه إيثارُ الجهاد . عند ذلك أمَّر الخليفة عَمْرًا على فلسطين ، وكتب إلى الوليد فأمّره بالأُرْدن .

سارت هذه الجيوش متجهة إلى الشام ، ولا يشك أبو بكر فى أن الله قد فتحه عليه . وكان الوليد بن

---

(١) سباتهم : نومهم .

عُقبة أول من أدرك خالد بن سعيد ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبي بكر لفتح الشام ، وغبطة أهل المدينة بانتصار إخوانهم على بني الأصفر. وفاضت نفس خالد بالمسرة ، فأمر جيشه أن يتهيأ للمسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعله فى قتال الروم ندًّا لابن الوليد فى قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عُقبة يقابل جيشًا للروم على رأسه قائدهم الأكبر باهان ، ونفسه تحدثه بأن ينقضّ على هذا القائد كما انقض ابن الوليد على هُرمز ، وأن يورده حتفًا كحتفه .

خدعة الروم وفرار ابن سعيد :

لم يكن جيش الروم قريبًا منه . مع ذلك تراجع باهان به متجهًا نحو دمشق . وسار خالد فى إثره ، ولم يكن تراجع باهان إلا خُدعة لاستدراج خصْمه حتى يعْرى ظهره فيتمكن من حصاره ويجيئه من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالداً منه . لكن نشوة الظفر وحب الفَخَار أنسياه الحذر ودفعاه يُغذّ السير[1] ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصَّفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده وأحاط به وقطع عليه خط رجعته . وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد فى فرقة من العسكر منعزلة عن المسلمين فقتلهم وقتل سعيداً فى مقدمتهم . وبلغ خالداً مقتل ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فخرج هارباً فى كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، تاركًا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة متقهقراً .

أمداد أخرى :

وكان شرحبيل بن حسنة مع خالد بن الوليد بالعراق . وقد جاء فى هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبى والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عُقبة الذى باء مع خالد ابن سعيد بما باء به . وجمع شرحبيل قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة وسار بها إلى عكرمة . ودعا أبو بكر يزيد بن أبى سفيان فأمَّره على جند عظيم جلهم من أهل مكة ، ثم أردفه بأخيه معاوية ، وجعله على بقية الجيش الذى استدرجه خالد بن سعيد للغزو معه . وندب الخليفة جيشًا عظيمًا جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح وأمَّره على حمص . وكانت هذه الجيوش تُعسكر بالجرف ، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليه الخليفة وودعه على النحو الذى ودع به جيش أسامة غداة بيعته . وانطلقت هذه الجيوش جميعًا فى طريقها إلى الشام مجاهدة فى سبيل الله .

وصية الخليفة لجيوش الشام :

أنت تذكر أن أبا بكر أوصى أسامة حين ودعه وصية تسجل له فى تاريخ الحروب بحروف من نور . كذلك فعل مع هذه الجيوش ، قال وهو يودعهم : «ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبُه . ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجدّ والقصد فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حِسْبة[2] له ، ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يُخصّ به . هذه التجارة التى دل الله عليها ، ونجّى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » .

---

(١) يُغِذّ السير : يسرع فيه .

(٢) الحسبة والاحتساب : ادخار الأجر عند الله .

وكان مما قاله ليزيد بن أبي سفيان : «إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضُه بعضًا ... وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ... وامنع مَنْ قِبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتوليَ لكلامهم ... واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار ... واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس» .

وأبو بكر لم يبالغ حين بعث هذه الجيوش كلَّها إلى الشام بعد أن انتصر عسكره بالعراق . فلو أن أمر المسلمين هناك وقف عند هزيمة خالد بن سعيد لذهب نصرهم بالعراق بددا[1] ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقف الإسلام من الأسدين فارس والروم موقفًا لا يرضاه الحق جل شأنه . وما كان ذلك ليحدُث وأبو بكر فى خلافة رسول الله ، وما كان ليحدث ولو لم يبق فى القرى غيره ، على حد تعبيره رضى الله عنه عند اختلاف أصحابه معه عشية حروب الردة .

منازل جيوش المسلمين بالشام :

ظل أمراء الجند فى مسيرتهم حتى نزلوا الشام : ليعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق ، ويعسكر شرحبيل فى مرتفع بأعلى الغور فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد بالبلقاء مهدّداً بُصرَى ، ويبقى عمرو بالعربة مهدّداً حبرون . وفى هذه المواقع وقفت الجيوش يتداول أمراؤها الرأى ما يصنعون .

الروم يتجهزون لمواجهة المسلمين :

لم يكترث[2] الروم أولَ الأمر لهذه الجيوش ، بل خيِّل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل فى غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم[3] لا محالة . فلما هُزم خالد بن سعيد وفرّ من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ما توهموا ، فلما رأوهم تقدموا إلى المواقع التى ذكرنا أفاقوا من سُباتهم ورأوا الأمر أجلّ خطراً من أن يستهينوا به ؛ لذلك سيَّر هِرقل إليهم قوات عظيمة ، وقفت كل واحدة منها إزاء كل جيش من جيوش المسلمين ، حتى يشتغل بعضهم عن بعض فيسهلَ التغلبُ عليهم وطردُهم من البلاد .

وتجرى الرواية فى أمر الجيوش من الجانبين بأن عدد المسلمين كان ثلاثين ألفًا أو نحوها ، وأن جيوش الروم بلغت عِدَّتُها أربعين ومئتى ألف .

كتاب أبى بكر بأن يجتمعوا :

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأى . ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين فكاتبهم يقول : «إن الرأى الاجتماعُ . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا» . وجاءهم كتاب من أبى بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : «اجتمعوا عسكراً واحداً ، والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يُؤتى مثلكم من قلة ، وإنما

---

(١) بددا : تفرقا .

(٢) يكترث : يهتم . (٣) يقال عاد أدراجه : رجع من حيث أتى . ورجع فى أمر كان تركه .

يُؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم . فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » واتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر وتولى تذارق قيادتها .

التقاء على اليرموك :

ينبع نهر اليرموك من جبال حوران . وينحدر سريع التيار بين آكام[١] مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت . وعلى ثلاثين أو أربعين ميلا من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوصة[٢] فى منبطح فسيح من الأرض تحيط به من ثلاث نواح جبالٌ بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكراً لهم حين رأوه يتسع لجموعهم العظيمة . فلما قدموا إليه واستقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا منبطحًا آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم ، فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . ورأى عمرو بن العاص هذا الموقف ، ورأى الرومَ حُصرت بين الجبال ، فقال : «أيها الناس أبشروا ! حُصِرتْ والله الرومُ ، وقلما جاء محصور بخير ! » .

أقام المسلمون على طريق الروم ومخرجهم لا يقدرون منهم على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء . إذا خرج الروم على الطريق ردهم المسلمون إلى بطيحهم . وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يتراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم وأن يقضوا عليهم ، وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين أيقن المسلمون خلالها أنه لا بدّ لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبى بكر يصفون له الحال ويستمدونه .

أبو بكر يضيق بموقف جيوشه :

كان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجرا[٣] ، وطال تفكير الخليفة فى هذا الأمر ، وجعل يشارو ، وانكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يومًا بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائمًا بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان . والإيمان لا ينقص جيوش الشام . لابد أن تكون العلة إذن فى القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذى لا يعرف الهوادة ولا الإحجام ولا يهاب الموت ؛ فقال لأصحابه : «والله لأُنْسِيَنَّ الرومَ وساوسَ الشيطان بخالد بن الوليد » .

ابن الوليد يدعى إلى الشام :

كتب أبو بكر إلى خالد بالحيرة يقول : «سِر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ؛ فإنهم قد شَجُوا وأشْجَوا[٤] . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت[٥] ، فإنه لم يُشجِ الجموعَ من الناس[٦] بعون الله شجاك ، ولم ينزِع الشَّجا من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النية والحُظوة[٧] . فأتمم يُتمم الله لك . ولا يدخلنك

(١) آكام : تلال ، مفردها أكمه .

(٢) واقوصة : اسم موضع .

(٣) ضجرا : ضيقا .

(٤) الشجا هنا : الغصص . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجا فى الحلق .

(٥) يشير بذلك إلى حجه سرا وتركه قيادة الجيش .

(٦) من الناس : صفة لمحذوف هو فاعل « لم يشج » و« لم ينزع » . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس كما تشجيهم أنت . ولم ينزع الشجا من أوليائه أحد من الناس نزعك . وحذف الموصوف فى مثل هذا جائز .

(٧) الحظوة : ما نلته .

عجبٌ فتخسر وتُخْذل . وإياك أن تُدِلّ(١) بعمل ؛ فإن الله عز وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء » .

ضيق خالد بهذه الدعوة :

أى أثر ترك هذا الخطاب فى نفس خالد ! إنه كان يرجو أن يظل بالعراق حتى يفتح المدائن عاصمة الفرس ، لا مِرْيَةَ إذن فى أن يكون خالد قد بَرِمَ بكتاب أبى بكر وضاق به صدره . ولعله رأى فيه كيد عمرَ ابن الخطاب له . روى الطبرى أنه قال بعد تلاوته : « هذا عمل الأعيسر يعنى عمر بن الخطاب ـ حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » .

كيف حبب أبو بكر إليه هذه المهمة :

لقد أراد أبو بكر أن يزيل من نفس خالد كل مظنّة ، فأمره أن يستخلف المثّنى بن حارثة على العراق فى نصف الناس وأن يأخذ معه النصف ، ثم أضاف فى ختام كتابه : « فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك »(٢) .

ولم يكُ خالدٌ فى ريب من أن الله سيفتحه عليه . ولئن بلغه من أنباء المسلمين هناك ما بلغه . ومع هذا خشى أن يُصيب المسلمين بالعراق شرٌّ بعد مغادرته إياهم ، فرد الضعفاء والنساء منهم إلى المدينة ، حتى لا يُشْغَل المثنى بهم إذا أراد الفرس مناجزته .

أى طريق يسلكه خالد ؟ :

أى طريق يسلك ليُنْسِى الرومَ وساوسَ الشيطان ؟ إن بينَه وبين الشام صحراءَ جرداءَ لا تطرقها قافلة ويضل فى مفاوزها الدليل الخرِّيت(٣) ! أيتخطى البادية من الشمال بين عين التمر وما حاذاها من بلاد الشام ؟ ذلك أقصر الطرق خلال البادية . لكن قبائلَ العرب النازلةَ منه على تخوم الشام مواليةٌ كلُّها للروم ، ولقيصرَ ثَمَّ جندٌ مقيمون قد يلقونه فيقطعون عليه طريقه . أفينحدر إلى بلاد العرب ثم يأخذ الطريق التى سلكها عكرمة وأبو عبيدة وسائر الأمراء قبله ؟ إنه إن يفعل فلن يبلغ جيوش المسلمين إلا بعد أمد طويل . ماذا يصنع إذن حتى يتّقى مقاومة العدو ويقهر طول الأمد ؟ ! إلى هذا انصرف تفكير القائد العبقرى .

والواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القَصَص الروائى منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً(٤) . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يقفون عندها ، ويكتفى بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » . ولم يفصّلها أحدٌ ما فصلها ابن قتيبة فى بعض كتبه . ونقاد ابن قتيبة يذكرون عنه أنه مؤرخ أديب شديد الولع بالقصص .

وتذهب هذه الرواية إلى أن خالداً قال لأصحابه : « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث(٥) المسلمين » . وأجابوه كلهم : « لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش وإنما يأخذه الفذ(٦) الراكب . فإياك أن تغرر بالمسلمين » . لكن خالداً كان قد عزم على سلوك هذا الطريق ، فقام إلى أصحابه فقال لهم : « لا يختلفن هدْيُكم ، ولا يضْعُفَنَّ يقينكم . واعلموا أن المعونةَ تأتى على قدر النية ، والأجرَ على قدر الحِسْبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له » .

---

(١) تدل بعمل : تفاخر به ، وتمن .
(٢) وفى رواية : « فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق » .
(٣) الخرّيت : الدليل الحاذق بالدلالة .
(٤) قصدا : اعتدالا .
(٥) غياث المسلمين : نجدتهم .
(٦) الفذ : الفرد .

وتحمس أصحابه حين سمعوا قوله هذا ، فكان ردهم عليه : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

حديث رافع الطائى :

التمس خالد دليلا يسلك به هذه الطريق ، فجىء برافع بن عَميرة الطائى ، فقال له : « انطلق بالناس » . قال رافع : « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء » . وحدق إليه خالد وقال : « لابد والله من ذلك ، فمُرْ بأمرك » . وكان رافع قد سمع حديث خالد لأصحابه ورأى إقرارهم إياه ، وأيقن أن لا مفر من نفاذ أمره ، فقال : « استكثروا إذن من الماء . من استطاع منكم أن يَصُرَّ أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله » .

وقضوا خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء ووحدتها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ، فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال رافع : « خير ... أدركتم الريَّ إن شاء الله ، وأنتم على الماء » . وكان رافعٌ أرمدَ فأدار رأسه يمنة ويسرة ثم قال : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا : ما نراها . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكتُ لا أبالكم ! اضربوا يمنة ويسرة » . فنظروا فوجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبَّروا وكبر رافع ، ثم قال : « احفروا فى أصلها » ، فحفروا فنبع الماء من عين فشرب الناس حتى رَوُوا . فلما اطمأنوا إلى السلامة قال رافع : « والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبى وأنا غلام » .

خالد يبلغ الشام :

أدرك خالد وجيشه الريَّ حين بلغوا هذا المكان ، ثم سار حتى نزل على قناة بُصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان . وتقدمهم خالد فاقتحموا بُصرى وفتحها الله عليهم . ثم ساروا جميعًا إلى فسلطين مددا لعمرو بن العاص بالعربات عند الغَوْر . وعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، وبذلك اكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

خالد وباهان على اليرموك :

ولقد صادف مجيئه أن عزز هرقل جيشه بباهان القائد القادر الذى هزم خالد بن سعيد . واغتبط الروم بباهان اغتباط المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام الجيشان يتحيَّن كل منهما فرصة النزال يريدها مواتية ليتم له بها النصر على عدوه .

والحق أنه كان موقفًا بالغًا غايةَ الدقة . ولم تكن كل دقته فى فرق ما بين الجيشين فى العدد ، إذ كان المسلمون لا يزيدون على أربعين ألفًا ، فى حين كان الروم أربعين ومائتى ألف ؛ بل كانت دقته كذلك فى تفوق عُدة الروم على عُدة المسلمين ، وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ جمع المسلمون وجمع الروم قواتهم على اليرموك . وعلة ذلك أن المسلمين كانوا يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية ؛ كانت جموع الروم خليطًا من البدو المقيمين بالشام ومن جيوش هرقل التى غزت الفرس من قبل . ولم تكن بين هؤلاء

وأولئك رابطة تجمعهم ، ولم يكن لهم مثلٌ أعلى يجاهدون فى سبيله . أما المسلمون فكانوا جميعًا من العرب ، وكانوا جميعًا يؤمنون بأنهم فى غزوهم الروم يجاهدون فى سبيل الله حق جهاده .

وتعاقبت الأيام وانقضى أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع والجيشان فى موقفهما لا تحين لأيهما فرصة النزال .

خطاب خالد فى زملائه :

ثم تواترت الأنباء بتجهيز الروم وحماستهم لقتال المسلمين بعد أن جاءهم باهان بعدد كبير من القسيسين أقاموا شهراً يحرضونهم . بل لقد ترامى إلى أمراء الجند على المسلمين أن الروم سينازلونهم فى غدهم . وأن باهان صفهم للقتال صفًا لم يسمع أحد من قبلُ بمثله . عند ذلك ريعوا[1] واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون .

بدءوا الحديث عن كل أمير منهم ووجهته للقاء العدو . أما تعبئة الجيش فلم يتناولها البحث إذ كان كل أمير صاحب الرأى فى صف جنوده . فلما آن لابن الوليد أن يتكلم حمد الله وأثنى عليه وقال : «إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى . وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تُؤمروا به بالذى ترون أنه الرأىُ من واليكم ومحبتُه» . أمسك الأمراء عن القول بعد الذى سمعوا من خالد .

ثم قالوا له بعد هنيهة : «هات ! فما الرأى» قال : «إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر[2] . ولو علم بالذى كان ويكون لقد صحبكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرّقت بينكم ، فالله الله ! إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نَزلْ نردّهم ، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها . هلموا فلنتعاور[3] الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعونى أتأمر اليوم» .

خالد يتولى إمارة الجيش أول يوم :

ولم يتردد القوم فى إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه .

وكان خالد أثناء هذا الشهر الذى أقامه بالشام قد عرف من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخُطة لملاقاتهم والظفر بهم . لذلك عبّأ الجيش فرقًا ، أو كراديس على تعبير المؤرخين ، كل كُرْدوس منها ألف رجل ، وجعل على كراديس القلب أبا عُبيدة ، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلا من القادة الشجعان أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان بن أمية ومن إليهم . وهذه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ؛ وإنما سوغها خالد بقوله لأصحابه : «إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر فى رأى العين من الكراديس» .

---

(١) ريعوا : فزعوا .

(٢) سنتياسر : يريد ستتعاون . (٣) نتعاور : نتناوب .

وعهد خالد إلى أبى سفيان فى مهمة القاص[1] ، فكان ينتقل بين الكراديس فيقول : «الله ، الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليومَ من أيامك ؟ أنزلْ نصرك على عبادك ! » .

إنما تكثر الجيوش بالنصر :

وسمع خالد رجلاً يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب حين سمعها وصاح : «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر برئ من تَوَجِّيه[2] وأنهم أُضْعِفوا[3] فى العدد » . والأشقر فرسه ، وكان حَفِى فى مسيره بالمفازة .

وانتشرت عبارات خالد هذه فى المعسكر ، وجعل الجند يتناقلونها من كردوس إلى كردوس ، فتلهب النفوس حمية وتوقظ فى القلوب الشوق إلى الاستشهاد .

غزوة اليرموك :

اتصلت بالروم أنباء عن تجهز المسلمين كما اتصل بالمسلمين نبأ تجهزهم ، أن كان بعض البدو من تلك الأصقاع ينقلون الأنباء متجسسين بين العسكرين . وقد عرف خالد من هؤلاء البدو أسرار قيادة الروم ، كما عرف فزع بعض أمرائهم حين علموا بمقدمه من العراق . وكان جرجة أكثر هؤلاء الأمراء فزعًا . ولعل جرجة هذا كان عربيًا ، أو روميًّا أقام بالشام السنين الطوال ، فعرف العربية وسمع أنباء المسلمين . ولقد مال قلبه إلى خالد حين نقل له المتجسسون أنباء نصره ، وعرف خالد ذلك عنه . فلما صدرت أوامر باهان إلى جيوش الروم بالزحف على المسلمين كان جرجة بجيشه فى الطليعة ، فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقًا . وظن فيلق من الروم أن جرجة فى حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم عن مواقفهم وحملوهم على التراجع .

الذين بايعوا على الموت :

كان عكرمة بن أبى جهل على كردوسة أمام فسطاط خالد بن الوليد . وقد رأى تسليم جرجة وجنوده فاستراح له . فلما رأى هجمة فيلق الروم وتراجع المسلمين أمامهم ثار فى عروقه دمه وصاح فى وجه الروم : «قاتلتُ رسول الله فى كل موطن وأفرّ منكم اليوم ! » ، ثم انقلب إلى أصحابه ينادى : «من يبايع على الموت ؟ ! » ، وبايعه ضرار بن الأزور والحارث بن هشام فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم عمرو بن عكرمة ولده . واندفع هؤلاء الذين بايعوا على الموت على فيلق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين فى سبيل ربهم ، وقد تجلى وجهه الأكرم ، وقد أضاء لهم بنوره سبيل الاستشهاد والجنة . وزلزلت الهجمة الروم ، وزادهم زلزالا أن انضم جرجة وجنوده للمسلمين فى مهاجمتهم ، مما ثبت فى نفوسهم اليقين بغدر بنى وطنهم وانضمامهم لأعدائهم .

ورأى خالد فيلق الروم يرتد فأمر الجيش كله بالتقدم ، فإذا الروم يلقونه بهجوم ليس دون هجومه عنفًا . هنالك أيقن المسلمون أن لا مفر لهم من الفناء إلا بالنصر .

---

(١) القاص : المحدث .

(٢) توجيه : رقة حافره من كثرة المشى .

(٣) أضعفوا : تضاعفوا .

استماتة الروم فى القتال :

قاتل الروم مستميتين ، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع فى يدهم ، ولذا ترجحت[١] المعركة واستمر ترجحها طيلة النهار ، فلما كانت الشمس فى المغيب بدأت قوات الروم تَهِنُ ، وبدا الإعياء على وجوه فرسانهم . ورأى خالد أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة . أما والهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم ، فليس لهم إلى مهرب من سبيل .

الروم يفرّون وقوادهم يقتلون :

قدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفًا ، فأمر رجاله ففسحوا طريقًا يؤدى بهم إلى الوادى . ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا فى البلاد . عند ذلك انقضّ خالد بفرسانه ومشاته على مشاة الروم فاقتحموا عليهم خندقهم فتراجعوا ؛ وكانت وراءهم هاوية الواقوصة فتردَّوْا فيها وكأنهم جدار ، دُكَّ من أساسه . حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف . وقُتِل يومئذ تذارق أخو هِرقل ، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش على الروم .

تمت هزيمة الروم ، فدخل المسلمون عسكرهم ، واستقر خالد فى رواق[٢] تذارق ، وغنم المسلمون كل ما فى عسكر الروم .

عكرمة وابنه بين الشهداء :

لم يكن عدد القتلى من المسلمين فى وقعة اليرموك قليلا ، إذ بلغ ثلاثة الآلاف ، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوى المكانة والبلاء . وكان عكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة . فلما أُصبح القوم جىء بهما إلى خالد برواق تذارق ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه وجعل يمسح على وجهيهما ويقطر فى حلقيهما الماء حتى استُشهدا . وأصيبت عين أبى سفيان بسهم أُخرجه منها أبو حَثْمة .

جلاء هرقل عن حمص :

قضت موقعة اليرموك على كل أمل للروم فى استبقاء الشام ، فلم يكد هرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بحِمْصَ وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأقام عليها أميراً كما أقام من قبل على دمشق أميراً . أما المسلمون فما لبثوا حين فرغوا من أمر اليرموك أن ساروا إلى أرض الأردن فطهروها من رافضة الروم ، ثم لاحقوهم إلى دمشق وحاصروهم بها .

وفاة أبى بكر وعزل خالد :

قيل : إن مَحمِّيَة بن زنيْم قدم بريداً[٣] من المدينة بعد ما بدأت الموقعة ، فأخذه الفرسان وسألوه ما وراءه ، فأخبرهم بأن الأمداد فى طريقها إليهم ؛ فجاءوا به إلى خالد فأسرّ إليه أن أبا بكر قُبض ، ودفع إليه كتابًا أخذه خالد فجعله فى كنانته مخافة أن ينتشر الخبر فى الجند . وكان هذا الكتاب يحوى استخلاف عمر

---

(١) ترجحت : ترددت فبدت لهؤلاء مرة وللآخرين مرة أخرى .
(٢) الرواق : بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد طويل .
(٣) بريدا : رسولا يحمل رسالة .

ابن الخطاب وأمراً بعزل خالد عن إمارة الجيش ، وبتأميره أبا عبيدة بن الجراح . فلما أتم خالد واجبه وظفر بالروم تنحى عن القيادة وتولاها أبو عبيدة مكانه .

والروايات تجرى كذلك بأن أبا بكر قُبض وتولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين وجيوشُهم لاتزال على حصار دمشق . وأن ابن الخطاب بعث إلى أبى عبيدة بوفاة أبى بكر وبولايته وبعزل خالد بن الوليد ، فلم يُفْض أبو عبيدة إلى خالد بعزله حتى فتحت دمشق أبوابها . وقيل بل أفضى[١] إليه بأمر العزل فلم يغير ذلك من نشاط خالد ، وأن خالداً صالح أهل دمشق حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية عنوة ، فلما قيل لأبى عبيدة : والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ، قال إنه يُجير[٢] على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه

أبو بكر وابن الوليد فى فتح العراق والشام :

على أن أمرين أساسيين لايقع عليهما خلاف : أولهما أن أبا بكر هو الذى قرر غزو الشام كما قرر غزو العراق ، وهو الذى جيَّش الجيوش وسيَّر الأمداد إليهما ، وأن ماتم للمسلمين من نصر على الروم وعلى الفرس فى عهده كان أساس الإمبراطورية الإسلامية . والثانى أن سيف الله خالد بن الوليد كان القائد المظفر فى فتح الشام ، كما كان القائد المظفَّر فى فتح العراق ، وأن عزل عمر إياه عن إمارة الجند لم يغضّ من مكانته ولا من عبقريته فى الحرب ، هذه العبقرية التى عرفها رسول الله فيه فسمَّاه سيف الله ، وأقرها له أبو بكر فقال : «ماكنت لأشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين » .

موقف خالد بعد عزله :

وهذا اليوم الذى عزل ابن الخطاب فيه خالداً عن إمارة الجيش العامة إثر معركة من أكبر المعارك فى فتح الشام هو فى حياة خالد من أمجد أيامه . وليس يقف مجده فى ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه ، فقد كان هذا النصر واحداً من عشرات . إنما أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه ، فلم يضعف عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله ، ولم ينهنه[٣] من قوة بأسه وعظيم شعوره بواجبه ؛ فقد رضى إمارة أبى عبيدة وسلم بها طائعًا ، وسار على رأس لوائه يخوض غمار المعارك واحدة بعد أخرى فإذا هو هو ، وإذا النصر يسير فى ركابه ، وإذا المسلمون والروم يتحدثون بفعاله ، وكأنه القائد الأول ، وكأنه النصر تجسم رجلا ، وكيف لايكونه وهو سيف الله فلا غالب له ! .

* * *

---

(١) افضى إليه بالأمر : باح له به ، وأعلمه .

(٢) يجير : يحمى .

(٣) ينهنه : يكف ، ويمنع

المناقشة

١ - «كانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم ، وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوء أملا بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيرا من الفرس حالا ، وهم مذ غلبوا الفرس قد استغرقوا فى سباتهم ، وجعلوا كل اعتمادهم فى حماية تخومهم على أبناء البادية» .

(ا) ماعكس (متفائل) ؟ وما مرادف (سبات) ؟ اجمع (أمل ، وحال) ، واستخدم ماتأتى به فى جملة .

(ب) فى العبارة حال نفسية وبواعثها . تحدث عنها بعبارتك .

(ج) كان لأبناء البادية آيات بأس وشجاعة . فماذا أضعف من روحهم ؟ .

(د) اكتب - فى إيجاز - عن الموقف قبل اليرموك .

٢ - تناول بالإيضاح وصية الخليفة لجيوش الشام ، مبينا مافيها من قيم إنسانية ، ومبادئ عسكرية .

٣ - كانت وصاته لزيد بن أبى سفيان آية فى الحكمة ، وعمق الإدراك لطبائع النفوس . دلل على ذلك .

٤ - برهن الكاتب على صواب رأى الخليفة حين بعث مابعث من الجيوش إلى الشام . وضح ذلك .

٥ - «لم يكترث الروم - أول الأمر - لهذه الجيوش ، بل خيل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل فى غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لامحالة ، فلما هزم خالد بن سعيد وفر من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ماتوهموا» .

(أ) مامعنى (لم يكترث - عادوا أدراجهم - لا محالة) ؟

(ب) تكشف العبارة عن سوء تقدير الروم للموقف . عبر عن ذلك بأسلوبك .

(ج) وضح إيحاء (خيل - وتوهموا) ، ومدى ملاءمة هذا الإيحاء للموقف .

(د) (إنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم) ناقش الفكرة ، موضحا وجهة النظر التى بنى عليها الصديق رأيه .

٦ - كان أول عوامل النصر موقع كل من الجيشين فى اليرموك . اشرح ذلك .

٧ - «كان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجرا ، وطال تفكير الخليفة فى هذا الأمر ، وجعل يشاور ، وانكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يوما بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائما بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان ، والإيمان لاينقص جيوش الشام ، لابد أن تكون العلة إذن فى القيادة» .

(أ) مامضاد (ضجرا) ؟ وما معنى (العلة) .

(ب) لم يكن الخليفة على بعده أقل شعورا بالموقف ، أوحسن تقدير له . دلل على ذلك فى ضوء ما فهمت من العبارة .

(ج) لماذا تأثر خالد بانتدابه إلى الشام ؟ وكيف حبب إليه الصديق هذه المهمة ؟ .

٨ ـ (الواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائى) لخص الحديث فيها ، مبينا وجه الغرابة ، وما تطمئن إليه منها .

٩ ـ «والحق أنه كان موقفا بالغا غاية الدقة ، ولم تكن كل دقته فى فرق مابين الجيشين فى العدد .... ، بل كانت دقته كذلك فى تفوق عدة الروم على عدة المسلمين ، وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين .... ، وعلة ذلك أن المسلمين كانوا يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية » .

(أ) مالمراد من (الدقة) ، و (قوتهم المعنوية) ؟ .

(ب) فى العبارة دليل صدق نظرة الخليفة إلى الموقف ، وحسن تقديره له . وضح ذلك .

(ج) (لم تكن كل دقته) ، (بل كانت دقته كذلك) . وضح قيمة (كل ، وكذلك) فى العبارتين .

(د) الموازنة ترجح كفة المسلمين على الروم ومن والاهم . وضح ذلك .

١٠ ـ «إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لابعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر برئ من توجيه وأنهم أضعفوا فى العدد » .

تقاس الوسائل بالنتائج ، وتسمو الثقة فوق كل المصاعب . اشرح ذلك فى ضوء العبارة .

١١ ـ صور بقلمك ـ فى إيجاز ـ معركة اليرموك ، مبرزا من عناصر هذه الصورة أهم ماتميزت به فى نظرك .

١٢ ـ يرى الكاتب أن يوم عزل خالد من أمجد أيامه . اعرض وجهة نظره بأسلوبك ، واذكر رأيك معللا له .

* * *

المثنى فى العراق

ودع المثنّى خالد بن الوليد حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم البادية . فلما رجع إلى الحيرة بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد . ولم يكن المثنّى فى ريب من أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد ، وأنهم سيحاولون طرده وطرد المسلمين من الحيرة ومن أرض العراق جميعًا .

المثنّى ودقة موقفه :

والحق أنه كان فى موقف بالغٍ غايةَ الدقةِ ؛ فقد بطش[1] خالد بالبدو المقيمين بجزيرة العراق بطشاً جعلهم جميعًا خصومًا للمسلمين ، يتربصون بهم الدوائر[2] ويحرصون على مناصرة أعدائهم . وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل هؤلاء العرب الغُزاة فى العراق سلطان . وشعور خالد بن الوليد بدقة الموقف هو الذى دفعه فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام . طبيعى أن يفكر المثنّى فى هذا كله وأن يطول تفكيره فيه . فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعًا إلى مفاتِحه بالسير إلى دلتا النهرين . فليس من الهين على نفسه أن يهزم فى بلد كان الطليعة فى غزوه . وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتى يجلو عن هذا البلد بعد فتحه .

وزاد الموقف دقة أن هدأ الاضطراب الذى ساد بلاط فارس سنوات متتالية فقد اتفق أهل فارس فلكوا عليهم شهريران بن أردشير بن سابور . فلما اطمأن له الأمر كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . وما له ينتظر والفرصة سانحة وخالد بن الوليد غائب بالنصف من جيش هؤلاء الغزاة ! . لذلك وجه هُرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المثنّى . وجعل هرمز فى مقدمة جيشه فيلا من فيلة الحرب يخوّف به المسلمين ويشتت صفوفهم .

وبلغت المثنّى أنباء هذا التجهيز ، ثم بلغته أنباء تحرك هرمز وجيشه . أتراه ينتظر حتى يجىء إليه بالحيرة متخطياً حدود البلاد التى فتحها المسلمون ؟ ! كلا ! بل خرج هو كذلك بجنوده وجعل أخويه المعنّى ومسعوداً على ميمنته وميسرته وسار حتى بلغ أطلال بابل .

قتل الفيل وانتصار المسلمين :

عسكر المثنّى بجيشه على مرتفع من أطلال بابل على خمسين ميلا من المدائن ، وأقام بين شبكة من جداول تتصل بدجلة ينتظر هُرمز جاذوية وهجومه عليه . وأقبل هرمز يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشتت شمل[3] المسلمين لا محالة . وسار الفيل يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، ويفرق صفوف المثنّى ويوقع الرعب فيهم . وأيقن المثنّى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج فى جماعة من رجاله فهاجموه فأصابوا منه مقتلا فهوى جسمه على الأرض سريعًا ، هنالك التأمت صفوف المسلمين وقويت روحهم ،

---

(١) بطش : أخذ بالعنف. (٣) مشتت : مفرق ، والشمل : الجمع .

(٢) التربص : الانتظار ، والدوائر : الدواهى والهزائم .

فهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة . واحتل فريق من رجال المثنّى معاقل الفرس وتعقب سائرهم المنهزمين حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن .

عود الاضطراب إلى بلاط فارس :

نزلت أنباء الهزيمة بشهريران نزول الصاعقة فحُمَّ فمات ، وأراد الفرس أن يملكوا عليهم ابنة كسرى ليفرغوا إلى تنظيم شئونهم كرة أخرى ، ولم يُنفذْ لها أمر فخلِعتْ ، وخلفها على العرش سابور بن شهريران .

المثنى يستعين الصديق بالتائبين :

كتب المثنى يخبر الصديق بانتصاره على الفرس ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وإذ كان يعلم أن أبا بكر لا يطيب نفسًا بهذا الرأى فقد أيده بأن التائبين من أهل الردة يطمعون فى مغانم الغزو ، وأنه لايرى أحداً أنشط إلى معاونته فى محاربة فارس منهم . وفى انتظار المدد أقام يدبِّر خطته . ويحكم تدبيره .

لكن انتظاره طال وأبطأ عليه رد الخليفة . هنالك انسحب فى الجيش إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة يدافع عن رأيه . وألفى أبا بكر اشتدبه المرض حتى أشفى على لموت ، مع ذلك استقبله الخليفة وسمع إليه واقتنع برأيه وقال : علىَّ بعمر ، وكان قد استخلفه ؛ فلما جاء قال له : «اسمع ياعمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن مت فلا تُمسيَنَّ حتى تندب الناس مع المثنّى . وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنّى . ولا يشغلكم مصيبة ـ وإن عظمت ـ عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى مُتوفَّى [1] رسول الله ﷺ ـ وما صنعتُ ، ولم يُصَبْ الخلقُ بمثله . وبالله لو أنِّى أنى [2] عن أمر الله وأمر رسوله لخذَلَنا ولعاقَبنا فاضطرمتْ المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فارْدُدْ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة [3] بهم والجرأة عليهم » .

ووعد عمر أن ينفِّذ أمر أبى بكر . وكان يقول من بعدُ : « قد علم أبو بكر أنه يسوءنى أن أؤمّر خالداً ، فلهذا أمرنى أن أرد أصحاب خالد وترك ذكره معهم » .

وعاد المثنّى إلى العراق أول ما استخلف عمر . ورفع عمر الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين لينهضوا إلى حرب فارس .

* * *

---

(١) متوفى : اسم زمان ، بمعنى وقت وفاته عليه السلام .

(٢) أنى : أبطئ .

(٣) الضراوة : الشدة .

المنـاقشـة

١ - «الحق أنه كان فى موقف بالغ غاية الدقة ، فقد بطش خالد بالبدو المقيمين بجزيرة العراق بطشا جعلهم جميعاً خصومًا للمسلمين ، يتربصون بهم الدوائر ، ويحرصون على مناصرة أعدائهم ، وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل لهؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان» .

(أ) مامعنى (بطش ، ويتربصون بهم الدوائر) ؟

(ب) وقف المسلمون بين نارين . وضح ذلك فى ضوء العبارة .

(ج) ماذا أفاد قوله (يحرصون - ومؤذنة) ؟

(د) ما الذى زاد الموقف دقة ؟ وماذا فعل خالد حين توقع الخطر قبل رحيله ؟

٢ - ما الذى أغرى كسرى شهريران بمعاجلة القتال ؟

٣ - تأرجحت المعركة بأطلال بابل بسبب الفيل ، ولكن عزيمة الرجال كانت أقوى . تحدث عن ذلك .

٤ - بم احتج المثنَّى فى اقناع الصديق بالاستعانة بالتائبين ؟

٥ - «فإن مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنَّى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنَّى ، ولا يشغلنكم مصيبة - وإن عظمت - عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وماصنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ، ولعاقبنا ، فاضطرمت المدينة نارا ، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم» .

(أ) ماذا يريد بقوله (تندب) ؟ وما معنى (متوفى - وأنى - والضراوة) ؟ .

(ب) الإحساس بالمسئولية كان أقوى من مواجهة الموت . تحدث عن ذلك فى ضوء هذه الوصاة .

(ج) تعددت وسائل التوكيد فى الوصية . عينها فى موضعها ، وبين باعث الحرص عليها .

(د) ماذا أفاد قوله (وإن عظمت - ولم يصب الخلق بمثله) ؟ .

جمع القرآن

يقتضينا الحديث عن جمع القرآن أن نعود بالذاكرة إلى غزوة اليمامة ، فعلى أثرها بدأت فكرة هذا الجمع ، ثم نُفذت ، واستغرق التنفيذ مابقى بعد اليمامة من خلافة الصديق . وفى رواية أنه استغرق زمناً من عهد عمر . وإنما أرجأنا الحديث فى هذا الموضوع لئلا نقطع حديث الحرب والفتح ، وليكون حديثنا عن جمع القرآن متصلا حتى وفاة أبى بكر .

غزوة اليمامة وأثرها :

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات فى حروب الردة ، كما كانت أجلها خطراً وأبعدها أثراً . قضى مقتل مُسيلمة بن حبيب قضاء حاسماً على المتنبئين فى بلاد العرب ، وآذن عود بنى حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردّة بالبحرين . والقضاء على ردة البحرين هو الذى طوع للمثنى بن حارثة الشيبانى أن يسير إلى مصب دجلة والفرات ، وأن يكون الطليعة الميمونة لفتح العراق ولإقامة بناء الإمبراطورية الإسلامية . غزاةٌ ذلك شأنها لم يخطىء خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يَقتلون ويُقتلون ويقضون على مسيلمة وأصحابة عند احتمائهم بحديقة الموت ، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حين اندفعوا إلى وطيسها مستميتين يبتغون الشهادة . استُشهد من المسلمين يومئذ مائتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفّاظ القرآن .

وقد جزع أهل المدينة لمن استُشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم وإن اختلفت البواعث لهذا الحزن والجزع . فأواصر القربى ورابط الودّ والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفّاظ القرآن الذين استُشهدوا من مكانة سامية عند الرسول ، كل هذه كانت دوافع تحزُّ فى النفوس .

عمر يشير بجمع القرآن :

لقد استُشهد من حفاظ القرآن فى هذه الغزاة من استشهد . واليمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التى واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل من قتل باليمامة ؟ ! فكر عمر فى هذا وطال تفكيره . فلما استقر به الرأى ذهب إلى أبى بكر وهو بمجلسه فقال له : «إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس . وإنى أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإنى لأرى أن تجمع القرآن » .

لم يكن أبو بكر قد فكر فى هذا الأمر ، لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ! » . عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل لم يورد المؤرخون تفصيله . واقتنع أبو بكر بعد هذا الحوار برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت .

قال زيد : « ..... وعنده عمر جالس لايتكلم ، فقال لى أبو بكر إنك رجلٌ شابٌّ عاقل ولانتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبّع القرآن فاجمعه . فو الله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقلَ علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرّقاع والأكتاف والعُسب[1] وصدور الرجال ...... »

فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صدَقُوا ماعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه . فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر » فألحقتها فى سورتها . فكانت الصحف التى اجتمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

يؤيد ذلك ماروى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « رحمةُ الله على أبى بكر ! كان أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف . وهو أوّل من جمع بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

هل جمعت الآيات سوراً فى حياة الرسول ؟ :

أما والثابت المقطوع به أن أبا بكر هو الذى أمر بجمع القرآن بعد حواره مع ابن الخطاب ، فيجمل بى قبل أن أفصّل كيف كان هذا الجمع أن أقف عند قول الصديق : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ » . فقد نزل الوحى بالقرآن على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ بعثه الله نبياً وهو بمكة إلى أن قبضه إليه وهو بالمدينة . وكان الوحى ينزل ببعض الآيات أحياناً ، وبالسورة كاملة أحياناً أخرى . ولقد كان أول مانزل من الوحى قوله تعالى : « إقْرأْ بِاَسْمِ ربِّكَ اَلّذِى خَلَق ، خَلَقَ اَلإنْسانَ مِنْ علَقٍ ، اَقْرأْ وربُّكَ اَلأكْرَمُ اَلّذى عَلّم بِاَلْقَلَمِ علّمَ اَلإنْسَانَ مَالَم يعْلَمْ » . أما بقية هذه السورة على مانتلوها اليوم فى المصاحب فنزلت بعد ذلك ، وبعد أن نزل غيرها من الوحى قبل نزولها . أفيعنى قول أبى بكر وقول زيد بن ثابت من بعده «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ » أن القرآن بقى إلى وفاة الرسول لم يجمع سوراً ، ولم ينتظم كتاباً ، فبقيت الآيات التى نزلت فُرادى لم تضم إلى غيرها على الصورة التى نراها اليوم بها ، فلما كان الجمع رتبت السور ونظمت فى كتاب ؟ .

رأى لبعض المؤرخين والمستشرقين :

هذا مايقول به بعض المؤرخين ، وترجحه طائفة من المستشرقين ، بل لقد نسب إلى زيد بن ثابت أنه قال : « قُبض النبىّ ولم يكن القرآن جمع فى شىء » . والمستشرق الإنجليزى سير وليم موير يسوق هذا القول فى مقدمة كتابه عن سيرة الرسول حجة من الحجج على الدقة والصدق فى جمع القرآن فيقول : «إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضمّت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لاتعمُّل ولاتكلف فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض » والمستشرقون

---

(١) العسب : جمع عسيب . وهو هنا : مالم ينبت عليه الخوص من جريد النخل .

المؤيدون لهذا الرأى يؤاخذون زيد بن ثابت والذين عاونوه فى جمع القرآن بأنهم لم يراعوا فى ترتيب القرآن أوقات نزوله ولم يقدموا مانزل منه بمكة على مانزل منه بالمدينة ، بل وضعوا آيات مدنية خلال السور المكية دون أن يقتضيهم المقام هذا الصنيع . ولو أنهم راعوا الدقة التاريخية فى الترتيب لكان ذلك أدنى فى نظر هؤلاء المستشرقين إلى التحقيق العلمى ، وأجدى فى كتابة السيرة وفى تتبع أحوال النبى العربى من يوم بعثه إلى يوم وفاته .

ويزيد المستشرقون أن جامعى القرآن لم يعنوا كذلك بتأليف آياته حسب موضوعاتها . فأنت ترى فى السورة الواحدة شؤوناً مختلفة من القصص والتاريخ ، ومن الإيمان والعبادات ، ومن الأحكام التشريعية ، ومن قواعد الخلق . وأنت ترى الموضوع الواحد من هذه الشؤون جميعاً مذكوراً فى سور مختلفة على صور تتقارب أو تتفاوت فى اللفظ وفى قوة العبارة . أما وقد كان الجامعون أحراراً فى ترتيب الآيات فى السور فهم جديرون ـ فى رأى هؤلاء المستشرقين ـ بالتثريب[١] من الناحية العلمية ؛ لأنهم لم يراعوا الموضوعات ، وكان حقاً عليهم أن يراعوها وبخاصة لأنهم لم يتقيدوا بمواقيت الوحى ونزوله .

نقد هذا الرأى :

هذه ملاحظات يبديها المستشرقون على جمع القرآن مستندين فيها إلى قول أبى بكر : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ » . وهم مخطئون فى تحميل عبارة أبى بكر هذا المعنى ، وفى ظنهم أن الآيات ظلت مبعثرة منذ نزولها إلى أن جُمعت فى عهد الخليفة الأول ، ثم فى عهد عثمان . فالأمر الذى لاريبة فيه أن الآيات قد جمعت سوراً فى عهد رسول الله وبتوقيفه[٢] . ولقد كان مالك يقول : «إنما ألّف[٣] القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ » . وكان عبد الله بن مسعود يقول : قرأت مِنْ فى[٤] رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة . وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول :

لقد قرأ زيد بن ثابت القرآن على رسول الله . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك أنه قال : «جَمعَ القرآن على عهد النبى ﷺ أربعةٌ كلُّهم من الأنصار : أبيٌّ بن كعب ، ومعاذُ بن جبل ، وزيدُ بن ثابت ، وأبو زيد » . وقول أنس لايراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن فى عهد النبى دون سواهم . يقول القرطبى : «فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآنَ عثمانُ ، وعلى ، وتميم الداريُّ ، وعبادةُ بنُ الصامت ، وعبد الله بنُ عمرِو بن العاص ، فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله ﷺ غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره . وقد تظاهرت[٥] الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام وإعظام الرسول ﷺ لهم » .

---

(١) التثريب : اللوم

(٢) بتوقيفة : بنصه

(٣) ألف : جمع .

(٤) فى رسول الله : فم رسول الله .

(٥) تظاهرت : أيد بعضها بعضا .

وروايات السلف متواترة على أن رسول الله كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرة ، فلما كان العام الذى قُبض فيه عرضه عليه مرتين .

قراءة عمر سورة طه يوم إسلامه :

وماورد فى سيرة النبى يؤيد الروايات التى قدمنا . من ذلك ماروى عن إسلام عمر بن الخطاب بعد عشر سنين أو نحوها من بعث محمد . فقد هال عمر ماأحدثه الدين الجديد من فرقة بين أهل مكة اضطرت كثيرين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فرأى أن يقتل محمداً لتعود إلى قريش وحدتها . فلما ذكر له نُعَيْم بن عبد الله أن فاطمة أخت عمرَ وزوجَها سعيدَ بنَ زيد أسلما ذهب إليهما ودخل البيت عليهما ، فسمع عندهما من يقرأ القرآن ، فبطش بهما حتى شج [1] أخته ، وندم لما صنع ، وطلب إليها أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون فإذا بها سورة طه . فلما قرأها أخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التى تدعو إليها ، فذهب إلى محمد فأسلم بين يديه .

لم تكن الصحيفة التى سجَّلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين أيدى الذين أسلموا من أهل مكة سجَّلت سوراً أخرى من القرآن . ولقد ظل رسول الله بين المسلمين بمكة وبالمدينة ثلاثَ عشرةَ سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئًا سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئًا سوى القرآن فلْيمْحُه » . وكان طبيعيًا أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته فى الصلاة ، ولمعرفة أحكام الدين الذى يؤمنون به . وكان يكتبه الذين يوفدهم النبى إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن وتفقيههم فى الدين . وهم لم يكونوا يكتبونه آياتٍ متقطعةً ، بل سوراً متصلة يمليها رسول الله .

نصوص القرآن تؤيد جمعه سوراً :

ونصوص القرآن تؤيد ما سبق . من ذلك قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّل قم اَلّيْلَ إلا قَلِيلاً ، نِصْفَه أَوِ انْقُصْ مِنْه قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّل الْقُرءانَ تَرْتِيلاً » .

وآيات المزمل هذه نزلت فى الفترة الأول من بعث الرسول . فمطالبة النبى فيها أن يقوم الليل يرتل القرآن ترجح أن الآياتِ لم تكن مبعثرةً من غير ترتيب ، وتؤكد ما قدمنا من أن ما كان يوحى إلى النبى متصلا بوحى سبق إليه كان الوحى يُلحقه به . وذلك قولهم إن جبريل قال للنبى حين أوحى إليه قوله تعالى « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعونَ فِيهِ إلى اللّهِ ثمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » : « يا محمد ضعْها فى رأس ثمانين مائتين [2] من البقرة » .

ولقد تكرر فى القرآن نعتُه بأنه الكتاب . وسورة البقرة أولى سور القرآن بعد الفاتحة تبدأ بقوله تعالى : « الٓم . ذَلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وهذا المعنى وارد فى مواضع كثيرة من سور مختلفة . والكتاب هو ما كتب منسقًا . وقد كُتب القرآن فى عهد النبى كما أسلفنا من قول أنس بن مالك وقول غيره من

(١) شج : أصاب بجرح قاطع فى الوجه أو الرأس .

(٢) يجوز حذف حروف العطف (الواو والفاء وأو) . ومن أمثلة حذف الواو قوله عليه السلام : « تصدق رجل ، من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره .... » .

أصحاب رسول الله . بل إن زيد بن ثابت نفسَه ، وهو الذى قال كما قدمنا : «قبض النبى ﷺ ولم يكن القرآن جمع فى شىء » قد قال : «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف[1] القرآن من الرّقاع » ، يريد بذلك تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة رسول الله .

رسول الله يتلو فى الصلاة سوراً كاملة :

وكثيراً ما كان رسول الله يتلو فى الصلاة وفى غير الصلاة سوراً كاملة منها البقرةُ وآلُ عمرانَ والنساءُ والأعرافُ والجنُّ والنجمُ والرحمنُ والقمرُ وغيرُها . وهذا كله صريح فى الدلالة على أن ترتيب الآيات فى السور قد تم بتوقيف النبى ، وأنه قُبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت فى صدور القراء والحفّاظ .

ولقد رأيت كثيرين من الصحابة جمعوا القرآن على عهد النبى ، منهم أربعة جمعوه بإملائه . واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول ، وفى المصاحف التى جمعت عقب وفاته وقبل أن يأمر أبو بكر بجمع القرآن . أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فآل عمران فالنساء فالمائدة والانتهاء بالمعوّذتين ، فذلك ما اختلف فيه ، وما قيل إن رسول الله تركه كله أو بعضه لأمته .

ماذا أراد أبو بكر إذن بقوله ردًّا على عمر حين أشار عليه أن يجمع القرآن : «كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ! » . وما هى الحجج التى شرحت صدر أبى بكر ثم صدر زيد بن ثابت لجمع القرآن والأخذ برأى ابن الخطاب ؟ .

علىّ وجمع القرآن :

لما تمت البيعة لأبى بكر لزم علىّ بن أبى طالب بيته ، وتحدث الناس إلى أبى بكر فى أمره ، فأرسل إليه يقول : «أكرهت بيعتى فقعدت عنى ؟ ! » فكان جواب علىّ : «لا والله ، ولكن رأيت كتاب الله .... ، فحدّثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه » .

السبب فى تردد أبى بكر :

لم يكن علىٌّ وحده هو الذى دأب على جمع القرآن بعد وفاة الرسول ، بل دأب على ذلك كثيرون جعلوا يتلقّونه عمن يطمئنون إليهم من أصحاب رسول الله . وكما حمد أبو بكرَ لعلىّ بن أبى طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيره من المسلمين سعيهم فى جمعه ورأى فى عملهم تأسِّيًا[2] بالسابقين الأولين الذين جمعوه فى عهد رسول الله . ولم يَدُرْ بخاطره أن يصد أحداً دون هذا العمل الجليل ، مطمئنًا إلى أن الله نزّل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدث أحداً منهم نفسُه بأن يُدْخِل عليه ما ليس منه . وذلك كان سببَ تردده حين عرض عليه عمر أن يجمع القرآن . فقد كانت سُنته ألا يصنعَ إلا ما كان يصنعُ رسول الله ، وألا يدعَ شيئا كان رسول الله يصنعُه . أمّا وقد ترك رسول الله كتابة القرآن للمسلمين ، وقد كتب بعضُهم القرآن بإملائه عليه السلام ، ونقل آخرون عن هؤلاء الكاتبين وعمن وعت ذاكرتهم القرآن ، فليجر الأمر فى

---

(١) نؤلف : نجمع .

(٢) تأسيا : اقتداء .

خلافته كما جرى فى عهد الرسول ، وليمسك خليفته فلا يُقدِم على ما لم يقم هو به .

الذين زعموا أنهم يزيفون الوحي :

كان لعمر ولأبى بكر ولزيد بن ثابت مما حدث فى بلاد العرب نذير يعظهم أن يتقوا هذا اليوم . فقد ارتد فى حياة الرسول بعض الذين أسلموا وكانوا يكتبون الوحى ، ثم زعموا أنهم كانوا يزيفون ما يكتبون ويلقونه على المسلمين زائفاً . وروايات المنافقين وما كانوا يصنعون من ذلك ومن مثله واردة فى كتب السيرة . وفى قصة مسيلمة بعض هذا النذير . فهو إنما استغلظ أمره بعد أن ذهب نهار الرجال بن عنفوة من قِبَل رسول الله ﷺ إلى اليمامة يُقرىء أهلها القرآن ويفقههم فى الدين ، فلم يلبث حين رأى السواد من أهل اليمامة يتبع مسيلمة أن أقر بنبوته ، وشهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . وكان نهار فقيهاً يتلو على الملأ القرآن الذى أوحى إلى محمد ويقص عليهم تعاليمه ويفقههم فى دينه . هذا وما حدث من مثله إثر وفاة الرسول ، إذ نجم النفاق واشرأبت الأعناق ، يشهد بما لحجة عمر فى جمع القرآن بعد اليمامة من قوة تذهب بكل تردد .

وماذا بعد فى جمع القرآن مما لم يصنعه رسول الله حتى يتردد أبو بكر أو يتردد زيد بن ثابت بسببه ؟ ! لقد أمر عليه السلام أن يكتب الوحى وأن تكتب الآيات مرتبة فى السور . وما منعه أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يختاره الله إليه إلا أن الوحى كان يتتابع ، أما وقد قُبض فانتهى نزول الوحى وتم كتاب الله وكمل دينه ، فالخير فى أن يجمع القرآن حتى لا يتعرض لما خُشىَ أن يتعرض له من زيادة فيه أو نقص منه ، وبخاصة بعد أن قُتل من القراء باليمامة من قُتل ؛ ويخشى أن يقتل منهم آخرون فى مواطن غير اليمامة .

أحسب هذه وأمثالها من الحجج هى ما ساقه عمر حين ناقش أبا بكر فى جمع القرآن . وهى كما ترى حجج تحسم كل ريبة وتقطع بما فى الجمع من خير للإسلام والمسلمين . لهذا اقتنع أبو بكر برأى عمر ، ثم اقتنع به زيد بن ثابت .

لماذا فضل أبو بكر زيد بن ثابت :

ولعل أبا بكر قد اختار زيداً وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه واعتزازاً بعلمه وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق فى الجمع دون إيثار لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية فى السنة التى كانت فيها وفاته .

الشعور بالمسئولية :

شعر زيد بجسامه التبعة التى ألقاها الخليفة على عاتقة وقدرها قدرها ؛ وذلك قوله : « فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن » . وكيف لايشعر بجسامه التبعة وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ، وعمر يحفظه ، وعلىّ يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة ، بل إن أربعة قد تلقوا القرآن عن رسول الله وكتبوه مرتب الآيات فى السور ، وكتب غيرهم ،

ومنهم عبد الله بن مسعود ، مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعاً رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب .

والرقابة الكبرى ! رقابة صاحب القرآن من أوحاه إلى رسوله ، أعظم من كل رقابة . وهى التى جعلت زيداً يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه .

كيف أثبت زيد القرآن فى مصحفه :

وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه فى جمع كلامه جل شأنه هو الذى سما به ليقدر مالهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ويستهين بكل مشقة ، وألا يدخر وسعاً فى جمع كل ماسُطر القرآن فيه من الرقاع والأكتاف واللِّخاف[1] والعُسب ومن صدور الرجال ، وفى موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو عن رسول الله فى السنة الأخيرة من حياته ، والوصول من الجمع إلى الغاية التى يبتغيها خليفة رسول الله والتى ترضى الله ورسوله . بذلك صار هذا الصحف المجموع إماماً استراح إليه المسلمون فلما أراد عثمان توحيد القراءات جعله إمامه .

ولست فى حاجة إلى القول بأن زيداً لم يثبت القرآن فى مصحفه على تاريخ نزوله بعد أن رتبت الآيات فى السور بأمر رسول الله ، فوضع بعض مانزل منها بالمدينة فى السور المكية . إنما تتبع زيد السور كما رتبها رسول الله ، ثم نسخها فى الورق أو فى الأديم[2] ، فلما تم له نسخها كانت عند أبى بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

طريقة زيد هى الطريقة العلمية :

أية طريقة اتبع زيد فى الجمع ؟ تستطيع أن تقول فى غير تردد إنه اتبع طريقة التحقيق العلمى المألوفة فى عهدنا الحاضر . وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة . فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شىء مكتوب أن يجىء به إلى زيد ، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلى إليه بما يحفظه . واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ماكتب أصحاب رسول الله القرآن عليه الشىء الكثير . عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ، ولايثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله . روى أن عمر بن الخطاب قرأ : « والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجرين والأنْصارُ الَّذِين اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ » ، برفع كلمة « الأنصار » ومن غير واو العطف بينها وبين « الذين » ، فقال له زيد بن ثابت : « وَالَّذِين اتَّبعُوهُم بإحْسانٍ » . واختلفا . فدعا عمر أبىّ بن كعب وسأله عن ذلك فأقرّ قراءة زيد . وليزيل كل ريبة من نفس عمر قال : « والله ، أقرأنيها رسول الله ﷺ وأنت تبيع الخنطة » . فاذّكر عمر وقال : نعم ! وتابع أبيا وأقر قراءة زيد . وكذلك كان يصنع زيد كلما خالفه من الصحابة أحد ، وكلما وجد فى المكتوب فى الرقاع والعظام وغيرها خلافاً ، يستشهد ويستقصى ، ولايمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن ، وأنه حضر قراءة رسول الله إياه قبيل وفاته . وهذا الخلاف على حرف الواو فى الآية السباقة يدلك على مبلغ هذه الدقة ، ويشهد بأن زيداً لم يضن بمجهود فى القيام بالعمل العظيم الذى عهد فيه أبو بكر إليه .

---

(١) اللخاف : حجارة بيض عريضة رقاق .

(٢) الأديم : الجلد .

وقد كانت هذه الدقة فى جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله . فالقرآن كلام الله جل شأنه . فكل تهاون فى أمره أو إغفال للدقة فى جمعه وزرٌ ما كان أحرص زيداً فى حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه . ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة ، حتى ليقول سير وليم موير : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »

نظام تتابع السور فى المصحف :

على أن زيداً لم يأخذ مع الدقة فى جمع السور مرتبة الآيات بتنسيق السور فى المصحف واحدة تلو الأخرى ، وإنما كان التنسيق على النحو الذى نعرفه اليوم فى عهد عثمان . وقد اختلف فيما كان منه فى عهد النبى ؛ قال بعضهم : إنه ﷺ تركه لأمته ، وقال بعض : بل ذكر الرسول نظام التتابع لبعض السور وترك بعضها . وقال غيرهم : بل ذكر نظامها جميعاً . ذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلها بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : « قد قدمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفه . وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننتهى إليه ، ولانسأل عنه » . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ماهو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبى ﷺ . وأما ماروى من اختلاف مصحف أبىّ وعلى وعبد الله ، فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله ﷺ رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك .

أبو بكر أعظم الناس أجراً :

« رحمة الله على أبى بكر ! كان أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف » ، كذلك قال علىّ بن أبى طالب ، وذلك مايقوله كل مسلم . ولقد طالما سألت نفسى وأنا أكتب هذا الكتاب : أى أعمال الصدّيق أعظم : قضاؤه على الردة والمرتدين فى بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك للإمبراطورية الإسلامية العظيمة التى حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبى الأمى هدى ورحمه للعالمين ؟ طالما سألت نفسى وفكرت أتلمَّس الجواب . ولم أتردد قط فى الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبى بكر لاريب ، وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين . لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد بنى أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون فى أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلطان حكمهم . ولقد نسى الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب . ولو لامناسك الحج لضمت شبه الجزيرة إلى مجاهل الأرض فلا يصل إليها إلا المستكشفون . أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من عزيز حكيم .

جمع القرآن أعظم ماتم فى عهده :

ولايحسبن أحد أنى بما أذكر من ذلك أهوّن من أمر حروب الردة أو من أمر الإمبراطورية الإسلامية . فكل من هذين الأمرين عظيم أى عظيم ، وكل عمل منهما كاف وحده ليخلد حياة من يقوم به . ولو أن أبا بكر وقف من خلافته عند القضاء على الردَّة لشهد الناس جميعاً له بعظمة ماقام به وبجلاله ولو أنه لم يصنع

أكثر من أن وضع القواعد للإمبراطورية الإسلامية لأقروا كلهم له بالعظمة وخلود الذكر على صفحات الدهر . فإذا حفل عهده بهذين الأمرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة ، ثم كان فيه جمع القرآن ، وهو أبقى منهما جميعاً وأعظم ، فذلك الخلد الذى لاخلد بعده ، والرضا من الله لايؤتاه إلا الصديقون الذين سما إيمانهم فيسر الله لهم كل عظيم وهيأ لهم من أمرهم رشداً .

* * *

المناقشة

١ ـ اتفقت الروايات فى الباعث على جميع القرآن ، ولكنها اختلفت فى وقت انتهائه . وضح ذلك .

٢ ـ كانت غزوة اليمامة ذات آثار عديدة . تحدث عنها ، وعن الجهود التى بذلت فيها .

٣ ـ تضافرت بواعث كثيرة أثارت الأحزان على شهداء اليمامة . تكلم عنها .

٤ ـ « لقد استشهد من حفاظ القرآن فى هذه الغزاة من استشهد ، واليمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التى واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل من قتل باليمامة ؟ ! فكر عمر فى هذا وطال تفكيره » .

(أ) مامفرد (حفاظ) استخدم المفرد فى جملة من عندك ، ثم هات عكسها واستخدمه فى جملة أخرى .

(ب) فى العبارة الإلهام ، وامتداد البصيرة إلى مابعد الواقع . تحدث عن ذلك فى ضوء العبارة .

(جـ) ماغرض الاستفهام فى العبارة ؟ وماذا أفادت (عسى) فى موقعها ؟

(د) لم كان تردد أبى بكر ، وعدم استجابته السريعة لما عرضه عمر ؟

٥ ـ مع خزيمة ، وآية « من المؤمنين رجال ... » دليل الاطلاع على بعض الغيبيات بفضل الله . استخلص هذا الدليل .

٦ ـ قال أبو بكر « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ » ماذا يعنى هذا القول فى رأى بعض المؤرخين والمستشرقين ؟

٧ ـ للمستشرق سير وليم موير رأى فى جمع القرآن يشهد له بالتجرد . عبر عن هذا الرأى بقلمك ، وبين لم كان شاهد تجرد له .

٨ ـ لبعض المستشرقين ملاحظات على جمع القرآن . اعرضها ، واذكر المقاصد التى استهدفوها من ورائها .

٩ ـ تناول المؤلف الرد على الملاحظات السابقة بالعديد من الحجج . اكتب بقلمك مذكرة مختصرة عن كل واحدة منها .

١٠ - « وكما حمد أبو بكر لعلى بن أبى طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيرة من المسلمين سعيهم فى جمعه ورأى فى عملهم تأسيا بالسابقين الأولين ... ولم يدر بخاطره أن يصد أحدا دون هذا العمل الجليل ، مطمئنا إلى أن الله نزل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدث أحدا منهم نفسه بأن يدخل عليه ماليس منه » .

(أ) مامرادف (تأسيا) ؟ اجمع (خاطر - وأحد) فى جملة من عندك .

(ب) يعرض الكاتب فى العبارة السابقة سبب تردد الصديق فى جمع القرآن . وضح ذلك .

(جـ) ماقيمة النفى بالأداة (لن) ، وتنكير (أحدا) بالعبارة ؟

(د) منح « نهار الرجال » وغيره من المنافقين حجة عمر فى جمع القرآن قوة تذهب بكل تردد . وضح ذلك .

١١ - كان جمع القرآن تأسيا من أبى بكر و « اتباعا » لا « ابتداعا » . ناقش ذلك ، ودلل عليه .

١٢ - لماذا آثر أبو بكر زيد بن ثابت بهذه المهمة دون غيره من الصحابة ؟

١٣ - كان زيد يشعر بعظم المسئولية المكلف بها . فلم ؟ .

١٤ - دلل على أن طريقة زيد فى الجمع تتفق وأحدث الطرق العلمية ؛ مبينا كيف كان يثبت القرآن فى مصحفه .

١٥ - تباينت الآراء فى مرجع ترتيب السور بالمصحف . تناول ذلك بالحديث ، مرجحا ماتراه .

١٦ - أى أعمال أبى بكر أعظم أجرا ، وأبقى أثرا ؟ احتج لما تراه .

حكومة أبى بكر

كيف تصور أبو بكر الخلافة :

لما بويع أبو بكر خاطبه رجل من المسلمين بقوله : «ياخليفة الله » ، فلم يَدَعْه أبو بكر يمضى فى حديثه ، بل قال له : لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله » .

هذه عبارة أوردها المؤرخون حجة على تواضع أبى بكر وصدق تقديره وهى فى رأيى تستوقف النظر لمعنى أعمق فى دلالته من هذا المعنى المتصل بشخص أبى بكر وخُلقه ؛ ذلك مافيها من قوة الإبانة عن تصور المسلمين الأولين لفكرة الحكم . فقد خلت قرون قبل عهد رسول الله ، وتعاقبت قرون بعده قام أثناءها فى كثير من الأمم ملوك وحكام زعم دعاتُهم وزعموا لأنفسهم أنهم خلفاء الله على الأرض ، وأنّ لهم بذلك قدسيةً ليست لغيرهم من الناس . كذلك كان الأمر فى مصر الفراعنة الأولين ، ومن هؤلاء الفراعنة من كان يقول لقومه : «أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ » . وكذلك كان الأمر فى أشور وإيران والهند وغيرها من الأمم التى عاصرت الفراعنة . وكان أكثر الملوك تواضعًا فى ذلك العهد أولئك الذين يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض .

ولقد قام فى عصور أوربا الوسطى دعاة من العلماء زعموا للملوك حقًّا مقدسًا مستمدًّا من الله يجعل لهم على الناس سلطانًا لا يعرف حدًّا ، وعَدُّوهم لذلك خلفاءه جل شأنه ، فكانت كلماتُهم منزّلةً كالوحى ، وكان حكمهم كحكم الله لا مردَّ له . وظلت هذه الآراء مقبولة فى أوربا إلى القرن الخامسَ عشرَ الميلادى ، وإلى القرن السابعَ عشرَ فى بعض الأمم . ولم تستطع الشعوب أن تتغلب عليها ، مع انتشار العلم وتقدم الحضارة ، إلا بالثورات العنيفة ذهبت فيها الألوف وعشرات الألوف من الأرواح ضحايا للمبادئ التى ثارت لها ، مبادئ الحرية والإخاء والمساواة بين الناس .

هذه المبادئ التى سادت العالم دهراً طويلا ، والتى كانت تسود أوربا إلى عهد قريب منا ، هى التى أنكرها أبو بكر بقوله : «لستُ خليفةَ الله ولكنى خليفةُ رسول الله » .

خليفة فى قيادة المسلمين وسياستهم :

لم يرد أبو بكر بأنه خليفة رسول الله إلا أنه خلَفَه ﷺ على قيادة المسلمين وسياسة أمورهم فى حدود ماأمر الله به وما نهى عنه . أما ما اختص الله به رسوله فيما وراء ذلك فلم يدُرْ بخاطر الصدّيق أنه خليفته فيه . وهذا ماخطب به أبو بكر إثر بيعته إذ قال : «إنى وليتُ هذا الأمر وأنا له كاره . والله لَوَدِدْتُ أن بعضكم كفانيه[١] . ألا وإنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله - ﷺ - لم أقم به . كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه[٢] به . ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم . فراعونى ، فإن رأيتمونى استقمت فاتبعونى ، وإن رأيتمونى زغت[٣] فقوّمونى » .

---

(١) كفانيه : أغنى فيه عنى

(٢) عصمة : حصنة ، وحماه من الخطأ والمعاصى

(٣) زغت : انحرفت .

خليفة باختيار المسلمين ورضاهم :

ولقد تولى أبو بكر قيادة المسلمين وسياسة أمورهم بعد رسول الله باختيار المسلمين ورضاهم . لم يبعثه الله خليفة عليهم كما بعث محمداً رسولا إليهم ولم يجعل له فضلا على أحد منهم إلا بالتقوى . وهو لم يكن يرى لنفسه حقًّا فى حكم المسلمين إلا فى حدود كتاب الله وسنة رسوله . وذلك قوله رضى الله عنه حين خطب الناس يوم بيعته : «أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

واتخاذ عمر لقب أمير المؤمنين يجعل عبارة أبى بكر لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ، أكثر قوة فى دلالتها وإبانة عن المعنى الذى قصده الصدّيق منها ، ويشهد بأنه قصد معناها اللغوى من حيث تعاقب الزمن . فهو الرجل الذى خلف رسول الله على سياسة المسلمين بعد وفاته ولو أن لقب الخليفة أريد به يومئذ غير هذا المعنى اللغوى لَلُقِّب عمر كما لقب أبو بكر خليفة رسول الله ، ولما اقتضى الأمر تغيير هذا اللقب بأمير المؤمنين .

الوحدة الدينية بدء تطور سياسى :

على أن الوحدة الدينية كانت بدء تطور فى نظام البلاد السياسى لم يُلق العرب بالهم إليه . لقد تحالفت القبائل والمدن على أن تدفع عن حرية العقيدة وتقاتل المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله . فلما سار جيش المدينة تحت راية الرسول ليغزو مكة بعثت القبائل من سُلَيْم ومُزينة وغَطفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار لفتح البلد الحرام . وفتحت مكة أبوابها وأسلم أهلها ، فسار أبناؤها مع جيش الرسول إلى حُنَيْن والطائف . ثم إن رسول الله كان يبعث عمَّاله إلى البلاد التى تدين بالإسلام ليعلّموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين . وهؤلاء العمال هم الذين كانوا ينظمون الزكاة وتحصيلها فيرسلونها إلى المدينة أو يوزعونها بين الفقراء من أهل البلاد التى دخلت فى دين الله . طبيعى أن يُحدث ما صحب الانقلاب الدينى من هذه الأحداث تطوراً فى النظام السياسى يميل ببلاد العرب إلى وحدة لم تألفها من قبل . لكن أهل هذه البلاد فى اليمن وفى غير اليمن لم يقدروا لهذا التطور ، ولم يدر بخلد أحد منهم أن يكون له بعد رسول الله أثر ، بل كان ظنهم أن هذه التعاليم التى يذيعها رسول الله بينهم ستصبح أصيلة فيهم ، ثم يعودون إلى حالهم السياسية الأولى ، وتظل كل أمة وكل قبيلة منهم مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل .

وهذا هو السبب فى ثورة تلك البلاد إثر وفاة الرسول ، وفيما ترتب على ذلك من حروب الردة . فقد أراد أبو بكر أن تظل هذه البلاد كما كانت فى عهد الرسول ، وأرادت هذه البلاد أن تسترد حريتها السياسية كاملة

البيعة والتطور السياسى :

وما حدث من بيعة أبى بكر بالمدينة جدير بأن يقف نظرنا كما وقف نظر العرب فى ذلك العهد . فما بال المهاجرين والأنصار قد استأثروا باختيار الخليفة دون سائر العرب ؟ ! ومادلالة ذلك فى تطور النظام السياسى يومئذ ؟ أتُراهم استأثروا باختيار أبى بكر لأنهم رأوا فى سبقهم إلى الإسلام وفى تقدّمهم الصفوف للدفاع عنه مايجعلهم أصحاب الأمر فى شؤون العرب ، ومايقدمهم فى ولاية السلطان عليهم ؟ ! لقد اعترض عمر بن

الخطاب على أبى بكر حين أرسل إلى أهل مكة يشاورهم فى فتح الشام ويستمدهم إليه ، بعد أن قاتل أهلُ مكة المرتدين كما قاتلهم المهاجرون والأنصار وفى هذا المقام تأتى كلمة سُهيل بن عمرو لعمر وإجابة عمر إياه . فقد قال سهيل : «ألسنا إخوانكم فى الإسلام وبنى أبيكم فى النسب ! أفتنكم أن كان الله قدّم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحا لم نؤت مثله قاطعوا أرحامِنا ومستهينون بحقنا ! » . وكان جواب عمر : «إنى والله ماقلت مابلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » . فإن يكن ذلك رأىَ عمرَ ومن وافقه فى أمر مكةَ وأهلها فما أحراه أن يكون رأيهم فى أمر سائر العرب أما كلمة سهيل فصريحة فى إنكار رأى عمر ، وفى تمسك أهل مكة بما لهم من حق فى المشورة يعدل مالأهل المدينة فيها .

العوامل تتجاذب لتكيف النظام :

هذا الحوار واضح الدلالة فى تصوير العوامل التى كانت تتجاذب لتكيف النظام السياسى فى الدولة الناشئة . فلئن قضت ضرورة المحافظة على كيان الدولة أن يسارع المهاجرون والأنصار بالمدينة إلى اختيار الخليفة ومبايعته ، لقد انقضت هذه الضرورة أول ماتمت بيعة أبى بكر واطمأن المسلمون لها ، ولقد أقامت مكة والطائف على الإسلام وشاركتا فى حروب الردة ، وصار لها بذلك من حق الرأى فى الحكم مالأهل المدينة . أفيكون سبق المهاجرين والأنصار إلى الإسلام سبباً فى تقدمهم على جميع المسلمين ومسوغاً لاستئثارهم بالأمر على العرب كلها ؟ ذلك مارآه ابن الخطاب ، مستنداً إلى مادار فى سقيفة بنى ساعدة من حوار بين المهاجرين والأنصار . أما أهل مكة فبرموا به ، وأنكره باسمهم عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو .

أبو بكر يذهب غير مذهب عمر :

لم يذهب أبو بكر فى هذا الأمر إلى المدى الذى ذهب إليه عمر ، مع أنه فى سقيفة بنى ساعدة ، هو الذى أيد بحجته البالغة حق المهاجرين فى الإمارة لسبقهم الأنصار إلى الإسلام واحتمالهم الأذى فى سبيله . ذلك أنه رأى سائر الذين أقاموا على إسلامهم من غير أهل المدينة قد شاركوا فى حروب الردة ، وذهب منهم من ذهب لغزو العراق ؛ فمن العدل أن يكون لهم مالأهل المدينة من حق فى الرأى والمشورة . لهذا دعا أهل مكة يشاورهم فى غزو الشام ويستمدهم إليه ، كما أنه سوى فى قسمة الذهب الذى كان يجىء من المنجم الذى فتح على مقربة من المدينة فى عهده بين المسلمين . فلما قيل له فى تفضيل السابقين إلى الإسلام كان جوابه : «إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يُوفيهم ذلك فى الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ» . وبهذا التصرف الحكيم مهّد للتطور السياسى فى بلاد العرب فى لين ومرونة .

وقد تجدد الخلاف على هذا الرأى فى عهد عمر فأصر على رأية الأول فيه ، مخالفاً مذهب الصديق وسياسته ثم إنه حاول فى آخر عهده أن يعود إلى رأى سلفه فعاجلته المنية دون أن يتم ماعزم .

أدت سياسة الصديق إلى تطور العرب نحو الوحدة السياسية ، وجعلتهم ينظرون إلى المدينة على أنها عاصمة دولتهم ومصدر سياستهم . لذلك اتجهت أنظارهم إليها فانضووا تحت سلطانها واستظلوا برايتها .

نظام الحكم فى الإسلام :

مالون هذا السلطان ؟ أكان ثِيُقْراطيًّا (دينيًّا) ، أم أرستُقْراطيًّا (حكم الخاصة) ، أم ديمقراطيًّا (حكم الشعب)[١] ؟

لقد رأينا أنه لم يكن من نوع السلطان الدينى الذى عرفته مصر الفراعنة ، ولا الذى عرفته عصور أوربا الوسطى . لم يكن أبو بكر يستمد سلطة الحكم من الله ، بل من الذين بايعوه . وقد انقضى نزول الوحى منذ اختار الله رسوله إليه ، وبقى كتاب الله بين المسلمين هدًى لهم جميعاً ، وحجةً عليهم جميعاً ؛ فهو ميثاقهم الذى آمنوا به وارتضوه ، وهو دستورالحكم ، يسير الحاكم فى حدوده لايتعداه . فإن فعل وجبت طاعته ، وإلا فلا طاعة له على مسلم .

مقيد بإرادة الشعب وأمر الله ونهيه :

هذه الصورة الدقيقة للحكم الإسلامى تنأى به عن الفكرة الثيُقراطية فهو كما ترى حكم مقيدٌ لا سبيل للقائم به إلى السلطان المطلق . وفى طبيعة الحكم الثيُقراطى أن يكون مطلقا لايعرف قيداً إلا هوى الحاكم وحرصَه على الاحتفاظ بسلطانه . وهذا الحرص هو مصدر الزعم بأن إرادة هذا الحاكم الثيقراطى من إرادة الله ، وأنها لذلك هى القانون ، بل هى فوق القانون ؛ بيد صاحبها كلُّ شىء ؛ بيده العذاب والرحمة ، والشقاءُ والنعمةُ ، الحياة والموت . شتان مابين هذا وبين تقيد الحاكم بمشاورة الشعب ، وبما أنزل الله فى كتابة .

ويذهب قوم إلى أن التقيد بما أنزل الله فى كتابة يُهدر إرادة الشعب ويقضى عليها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها ، وأنه يجعل الحكومة الإسلامية ثِيقْراطية فى أسِّها[٢] وجوهرها . وهذا الاعتراض لامسوغَ له . فما ورد فى القرآن من التشريع لايعدو المبادئ العامة التى تقررها قواعد العدل مصورةً فى مثلها الأعلى . أما ماجاء فيه من تفصيل هذه المبادئ العامة فإنما يتناول أموراً بذاتها محصورة العدد . والمبادئ العامة التى قررها القرآن ضرورية لحياة الجماعة الحرة ، فالخروج عليها يفسد هذه الحياة . وقد ثبت على التاريخ أن مايخالف هذه المبادىء قد استحال قيامه فى البلاد التى تلائم بين حرية الفرد ونظام الجماعة ، والتى تقر لذلك نظام الأسرة والمِلْك والميراث ، ثم تفرض قدراً من الاشتراكية يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو إليه مبادئ الرحمة الإنسانية التى تُعَدُّ فى الإسلام قاعدة مقررة لاكمالا نفسياً وكفى .

خاضع لرقابة المسلمين جميعاً :

ولو أن تحديد ماجاء فى كتاب الله ترك لطائفة خُصت به ، كما خصت طائفة الكهنة فى بعض الأديان بإعلان إرادة الله ، لكان للمخوف من إهدار إرادة الشعب موضع . أما والإسلام يأبى هذا التخصيص ويجعل الناس سواءً فى الحرص على إدراك ما أمر الله به وما نهى عنه ؛ وفى محاسبة الحاكم على تصرفاته فالفكرة

---

(١) لست أدعى أن كلمة (الحكومة الدينية) تؤدى معنى الحكومة «الثيُقراطية» أداء دقيقاً . والأمر كذلك فى كلمتى «حكم الخاصة» و«حكم الشعب» من حيث دقة أدائها لمعنى الأرستقراطية والديمقراطية . وعدم الدقة أكثر وضوحاً فى هذا العصر الذى تطورت فيه نظم الحكم وتعددت .

(٢) الأس : الأساس وجمعه إساس بكسر الهمزة .

الثيُقْراطية فى الحكم الإسلامى منفية لاوجود لها على الإطلاق .

وهذا الحكم الإسلامى المقيد خاضع لرقابة المسلمين جميعاً . لكل فرد منهم أن يحاسب القائم به ، وليس لطائفة أن تستأثر لنفسها من أمور الحكم بما تمتاز به على غيرها من الطوائف . وقد رأيت فى تصرف أبى بكر شدة الحرص على التقيد بكتاب الله والتأسى برسوله فى التنزه عن كل مطامع الدنيا ، ثقةً منه بأن من ساس أمور الناس فأفاد لنفسه منها ، كان ظالما لنفسه وللناس .

ولقد بلغ أبو بكر من هذا التنزة حداً يحسبه أهل جيلنا ممعناً فى المبالغة . لم تغير الخلافة ولاغيرت الإمارة على المؤمنين من حياته ، ولم تنتقل به من داره إلى دار غيرها . وقد نسى منذ تولى أمور المسلمين نفسه ونسى أهله وأبناءه ، وتجرد لله تجرداً مطلقاً ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، تحقيقاً لمعنى الإخاء فى أسمى صوره ، وإيذاناً بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر لذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزهاً لايعرف محاباة وإنما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعاً فى ظل عدله ، جل شأنه ، آمنين مطمئنين .

والحكومة الإسلامية ليست ارستقراطية :

حكومة ذلك شأنها ، لم تعرف السلطان المطلق ولم يكن للكهنة وجود فيها ، لايمكن أن تكون ثيُقْراطية اللون . وهى لم تكن أرستقراطية ، ولم يكن استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة من الأرستقراطية فى شىء . فقد كان هؤلاء رجالا من طبقات شتى . وهم إنما استأثروا بالأمر صوناً للنظام القائم ودفاعاً عنه ، ثم إنهم كانوا طبقة مؤقتة تزول بزوال أفرادها . لايرثها أحد ، ولاتقوم مقامها طبقة أخرى . بل لقد نازعهم أهل مكة السبق كما رأيت . وولاية بنى أمية ثم بنى العباس أمر المسلمين من بعدُ شاهدٌ قوى على أن الفكرة الأرستقراطية لم يكن لها بين المسلمين الأولين وجود .

حكومة أبى بكر حكومة شورى :

كانت حكومة أبى بكر حكومة شورى فى مَنْشَئها وفى نزعتها بويع الصديق بالانتخاب العام ، وبويع لصفاته الذاتية ولمكانته من رسول الله ، لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته . ولم يطلب أبو بكر البيعة لنفسه ، بل كان يرشح عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ليبايع المسلمون أيّهما شاءوا ، وكان يرشحها والأنصار ينازعون المهاجرين الأمر ويتهمونهم بأنهم يريدون غصبه منهم . ولقد تم ذلك كلّه فى اجتماع عام ، هو اجتماع السقيفه ، ألقيت فيه الخطب ، وكانت فيه المداورات الانتخابية أبرعَ ماتكون . فلما أقبل الناس على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار ، وكان عمر وأبو عبيدة أول من مهد لها ثم أتمها .

هذه بيعة أنشأتها الشورى ؛ فليس انتخاب رئيس الجمهورية فى فرنسا ، بل فى أمريكا ، بأكثر حرية منها . فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى مثبتة قواعدها . ألم يقل للناس إثر بيعته العامة : « لقد وليتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى » ؟ أو لم يقل لهم : « أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ! » . هذا إقرار صريح

بحق الرأى العام فى مراقبته وإرشاده ، وبحق الناس فى العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدف[1] عن أمره والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هى الإقرار للعصاة بحقهم فى عزل من عصوه . ولانحسب معنى أبلغ فى تقرير مبادئ الشورى من هذا المعنى .

ومع أن الحرب امتدت طيلة عهد أبى بكر كما رأيت ، لقد قام حكمه على الشورى فى الجليل والصغير من شؤونه ، وإنما أبى الصدّيق على الذين ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام أن يشتركوا فى قتال الفرس لأنه حرص على أمن الدولة وسلامتها ؛ فلما زالت مخاوفه أوصى عمر أن يمد المثنى بهم فى حروب العراق .

حكومة تمهد للوحدة السياسية :

مهد أبو بكر للتطور الذى أشرنا إليه فى نظام الحكم ، وهيأ الأسباب لوحدة بلاد العرب السياسية بعد أن تمت لها وحدتها الدينية . وكانت مرونة أبى بكر وكان حكمه من أقوى العوامل فى التمهيد لهذه الوحدة السياسية ، وقد عفا عن زعماء الثائرين باليمن وغير اليمن من البلاد التى ارتدت فى سبيل استقلالها ، فكان عفوه عنهم بعد الذى أبداه من الحزم والشدة مع غيرهم داعياً لهم ولأقوامهم أن يرتبطوا بالمدينة فى وحدة لاتنفصم عُراها . وزادت الشورى التى أقام عليها أبو بكر حكمه هذه الوحدة قوة ، وزاد فتح العراق وفتح الشام جميع العرب عليها حرصا .

وكان طبيعياً أن يقوم الحكم فى ذلك العهد على أساس الشورى ؛ ذلك أن الحرية كانت أعز شىء على العربى ، بدوياً كان أو حضرياً . وفكرة المساواة متأصلة فى النفس البدوية ، كذلك كانت ولن تزال . وقد زادت تعاليم الإسلام هذه الفكرة قوة إذ سمت بها إلى المساواة التامة أمام الخالق البارئ المعز المذلّ ، لايتفاضل الناس أمامه جل شأنه إلا بأعمالهم ، ولافضل لعربى على عجمى منهم إلا بالتقوى . فأما الإخاء الذى يُتمّ مع الحرية والمساواة شعار الحكم الشعبى فى عصرنا فقد بلغ به الإسلام مبلغاً ماأشده وضوحاً فى قول رسول الله: « لايكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

الإمبراطورية الإسلامية وأساسها :

امتدت حكومة أبى بكر إلى ماوراء العرب ، ومهدت للإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف . أفكان ذلك مصادفة محضة تضافرت العوامل على نجاحها ، أم أن التطور الذى صورناه وأدى الإسلام الناشىء إليه قد حتم هذا الفتح ، وبلغ به مداه حين بلغت الإمبراطورية الإسلامية مداها ؟

لانتردد فى القول بأن هذا التطور كان محتوماً ؛ لأن تعاليم الإسلام تنطوى بطبيعتها عليه فالإسلام فى جوهره إمبرطورى ، كما أنه فى جوهره شعبى ، وإن اختلفت الفكرة الإمبراطورية فيه عن الفكرة فى عهدنا الحاضر فى أسسها وفى غاياتها .

ويرجع الخلاف إلى أن الإسلام يدعو إلى حرية العقيدة . ويفرض على المومنين به أن يدافعوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وهو إذ يدعو إلى هذه الحرية فى العقيدة لايفرض على الناس أن يدينوا به على كره منهم ،

---

(١) صدف : أعرض

فلا إكراه فى الدين ، وإنما يريد لكل إنسان حرية النظر والتقدير حتى يستمع إلى القول فيتبع أحسنه . وهو مطمئن إلى أن الناس متى عرفوا تعاليمه اتبعوه لأنه يدعو إلى مايرضاه العقل ومايتفق مع الفطرة السليمة فى الإنسان .

حرية العقيدة هى الأساس :

حرية العقيدة كانت ولاتزال فى حاجة إلى الدفاع عنها وإلى الاستشهاد فى سبيلها . فالظالمون لا يطيقونها ، بل يمقتونها أشد المقت . والذين يريدون أن يستغلوا الشعوب يزينون للشعوب أسوأ ما فى عقائدهم وأشده فسادًا، وهم لذلك لدٌّ(١) فى خصومة الأحرار المصلحين . أما والإسلام يريد الإصلاح مااستطاع ، يقيمه على أساس من الرأى الحر يقتنع به صاحبه فيؤمن به ، وللناس بعد ذلك أن يكيفوا مصالحهم فى هذه الحياة كما يرون لأنهم أعلم بأمور دنياهم ؛ فالفكرة الإمبراطورية فى الإسلام إنسانية روحية ، غايتها الأولى تحرير العقل إلى حيث يسمو على كل ضغط وكل اضطاد .

والحجة القاطعة على ذلك أن المسلمين لم يفرضوا دينهم على البلاد التى فتحوها ، ولم يكرهوا الناس يوماً حتى يكونوا مؤمنين . بل إنهم كانوا إذا فتحوا بلاداً أباحوا لأهلها حرية العقيدة . فمن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ماعليهم ، ومن آثر دينا غير الإسلام أدى الجزية . ولم تكن الجزية مغرماً يفرض أية ذلة أو خضوع ، وإنما كانت تقابل الزكاة المفروضة بحكم الدين على المسلمين . لإقامة نظام الدولة وللدفاع عن كيانها . ولقد رأيت فيما عقده المسلمون من معاهدات الصلح مع أهل العراق وأهل الشام أن الجزية كانت تؤدى لقاء دفع المسلمين عن أموال من لم يسلموا ، وعن حريتهم فى عقيدتهم وإقامة شعائر دينهم . ولذلك كانت هذه المعاهدات تنص على حماية بِيعهم ، وكنائسهم ، ومعابدهم ، وأحبارهم ، ورهبانهم . فإذا لم يقم المسلمون بالتزاماتهم المفروضة فى الصلح أعفى غير المسلمين من دفع الجزية بحكم العهود وبنصها الصريح .

اختلاف الإمبراطورية الإسلامية عن غيرها :

إمبراطورية تقوم على هذه الأسس تختلف أغراضها عن أغراض الإمبراطورية كما فهمها الرومان ، وكما نفهمها فى العصر الحاضر ، اختلافاً جوهرياً . فهى لاتجعل خضوع الناس للعرب أو لشعب بذاته غايتها ، وإنما غايتها الأولى أن يعيش الناس أحراراً ، وأن تربط بينهم أواصر(٢) الرحمة والمودة والعدل ، وأن يكون للأمم المفتوحة من ذلك ماللأمة الفاتحة . عصبة أمم تسعى لغرض إنسانى بالغٍ غايةَ السمو ، تجاهد فى سبيله ، وتعمل لإعلاء كلمته . وسبيلُها إلى هذه الغاية الحكمةُ والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » .

السبب فى الحكم بدون تنظيم :

لم ينفسح الأمد لأبى بكر كى يقيم على هذا الأساس نظاماً للحكم فى البلاد التى فتحها المسلمون فى عهده . وقد ترك خالد بن الوليد لأهل المدن المفتوحة فى العراق أن يتولَّوْا إدارتها ، فى حين احتفظ المسلمون

---

(١) لد : مفردها : الد ، وهو شديد الخصومة .

(٢) أواصر : جمع آصرة وهى الصلة .

بسياسة الدولة وتوجيه شؤونها العامة . ولم يكن ذلك تنظيماً للحكم ، وإنما كان ضرورة قضت بها الخُططُ الحربية فى وقت كان القتال ناشباً فيه بين المسلمين والفرس ، فكان الأمر فيه للقيادة العسكرية .

وكان شأن الشام حين الفتح كشأن العراق . ولقد كان الحكم على أساس الشورى جديداً بين الشعوب التى فتحها المسلمون ، كما كان الإسلام جديداً بين الأديان التى أحاطت بشبه الجزيرة من كل جانب . وإنما كان حكم الفرد مطلقاً فى ذلك العهد ، وكان الرهبان والكهنة وسائر رجال الدين يؤيدون هذا الحكم المطلق ، ويخلعون على أصحابه قدسية رهيبة تنخلع القلوب من هيبتها ، ويخر الناس سُجَّدا أمامها . لذلك لم يلبث الناس حين رأوا هذا الحكم الجديد قائماً على الإنصاف والعدل ، متحرياً إرادة الشعب فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، أن أقبلوا عليه ورحبوا بأهله ؛ فكان إقبالهم سبباً من أسباب النصر الذى أفاءه الله[1] على المسلمين ، فمد إمبراطوريتهم فى سنوات محدودة لتحل محل الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ولتتخطى حدودهما إلى الهند شرقاً وإلى شمال إفريقيا غرباً ، فتنشر حيثما ذهبت لواء الحق والعدل والإيمان الصادق ، وتُقر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى صورها وأجدرها بالإنسانية الطامحة إلى الكمال .

تأثر الحكم بحال الحرب :

لم ينفسح الأمد لأبى بكر كى يقيم نظاماً للحكم فى البلاد التى فتحها المسلمون لعهده . ولم ينفسح له الأمد كذلك ليقيم نظاماً ثابتاً للحكم فى بلاد العرب نفسها ؛ وذلك طبيعى فى حكومة ألقت الأقدار عليها أن تكون حكومة انتقال من عهد إلى عهد جديد يختلف عن سابقه كل الاختلاف فى لون الحضارة ، وفى العقيدة ، وفى طرائق التفكير ، وفى كل مايتصل بنظم الحياة .

وهو طبيعى كذلك فى عهد نضال وحرب ، حكومته أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية ، فالنظم المدنية تتقلص حين الحرب وتكاد تتفانى أمام النظم العسكرية ، وذلك فى البلاد التى استوت النظم المدنية فيها أمداً طويلا وأجيالا متعاقبة . مابالك وبلاد العرب لم يستقر فيها نظام مدنى ثابت موحد قبل الإسلام ! لاجرم فى هذه الحال أن تطغى نظم الحرب والجهاد متسلطة على كل النظم . وأن تتأثر الحياة المدنية بتطورات الحرب أبلغ التأثر .

فإذا ذكرت أن هذه الحرب كانت حرباً أهلية فى العام الأول من حكم أبى بكر ، وأنها كانت قائمة من أجل الحكم ونظامه ، ثم ذكرت أن مواجهة الفرس فى العراق بدأت والحرب الأهلية ماتزال قائمة ، وأن مواجهة الروم فى الشام كانت وحرب العراق فى أدق أدوارها ، أيقنت أن التفكير فى تنظيم حكم مستقر واضح التفاصيل لم يكن أمراً ميسوراً ، وأن أبا بكر كان فى شغل بمواجهة الأسدين فارسَ والرومِ عن كل أمر سوى مايحقق للمسلمين اجتماع الكلمة فيما بينهم والظفر بعدو الله وعدوهم .

وكان نظام هذه الحكومة العسكرية أدنى إلى البداوة التى سادت بلاد العرب وقبائلها من قبل عهد الرسول . لم يكن هناك جيش نظامى ، بل كانت الفروسية تجعل من كل عربى جندياً . فإذا دُقَّت طبولُ الحرب ، ونادى المنادى للقتال ، خرجت القبائل والقرى وعلى رأس كلِّ جماعة زعيمُها . وقد خرج العرب

---

(١) أفاءه الله عليهم : جلبه لهم ، وأنعم به عليهم .

من أهل الجنوب حين دعُوا لقتال الروم فى الشام ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، ومعهم ميرتهم [١] وذخيرتهم ، لايكلفون الحكومة المركزية شيئاً ، ويعتمدون فى معاشهم على مايغنمون فى الحرب .

فقد كانوا يُنْفلون أربعة أخماس الغنائم حين الحرب ، ويرسل الخمس إلى الخليفة ليرده على بيت المال ، وكانت رعاية الفقراء من أهل المدينة ومن الوافدين عليها فى مقدمة ماينفق الخليفة هذا الخمس فيه . وكان أبو بكر حريصاً على أن يوزع الغنائم على هؤلاء وعلى كل ذى حق فى بيت المال أول ماترد إليه . لذلك كان بيت مال المسلمين فى بيته بالسُنْح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله معه ، وقيل له فى ذلك وطلب بعضهم إليه أن يجعل عليه حراساً وخزنة فأبى ، لأنه لم يكن يحتفظ فيه بما يستوجب الحراسة ، ولم يكن يختزن مايخشى عليه عدوان المعتدين .

تطور الحكومة فى عهد الصديق :

هذه الصورة من حكومة أبى بكر تشهد بأنها كانت أدنى إلى بساطة البداوة ، وأنها كانت عربية صرفة ، لم تتأثر فى قليل ولا كثير بالنظم التى كانت قائمة ذلك العصر فى بلاد الروم أو فى بلاد الفرس . وهى مع هذه البساطة الحلقة القوية التى ربطت بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية . واتصالُها الزمنىُّ الوثيقُ بعهد الرسالة جعلها به أشبه . فلم يكن أبو بكر يصنع شيئاً كان رسول الله يدعه ، ولم يكن يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . لكنه لم يجمد مع ذلك جمود المقلدين ، بل فتح له تأسِّيه برسول الله باب الاجتهاد فى سياسة المسلمين واسعاً ، فهداه اجتهاده إلى فتح الله له العراق والشام ، ثم مهد لحكومة العرب الموحدة أن تقوم من بعده على أساس من الشورى فى حدود ماأمر الله به ومانهى عنه . لم يتزمت [٢] فى أمر ولم يفرط ، وإنما اهتدى بنور الله لمصلحة عباد الله ، فكان أكثر ماهداه الصراطَ المستقيمَ إيمانهُ بأنه مُحاسَبٌ أمام الله ، كما أنه محاسب أمام عباده ، والله شديد الحساب .

كان إيمان أبى بكر بأنه محاسب أمام الله وأمام الناس هو الذى هداه سبيله . وخشية هذا الحساب جعلته لايقدم على أمر ولايحجم عنه ، حتى يشاور ، ويروِّىء [٣] فى المشورة ويستخير الله ، فإذا خار له صح عزمه ، فكان الحزم الذى لايعرف التردد ولا الهوادة ، لايعرض عليه أمر للمسلمين حتى يحسمه برأى قاطع .

* * *

---

(١) ميرتهم : مئونتهم .

(٢) يتزمت : يتشدد .

(٣) يروىء : يتمهل ، ولايتعجل .

المنـــاقشـــة

١ ـ (لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله) عبارة قالها الصديق بعد بيعته :
(أ) ماذا رأى فيها المؤرخون من دلالة ؟ وكيف تستخلص هذه الدلالة منها ؟
(ب) ويرى فيها المؤلف معنى أعمق مما رآه هؤلاء المؤرخون . وضحه بعبارتك .
(ج) اعرض بعبارتك فكرة قداسة الحاكم على نحو ما شاعت عند الفراعنة ، ومن عاصرهم.
(د) كيف كانت حكومات أوربا فى العصور الوسطى ؟ وبم حطمت الشعوب سلطانها ؟

٢ ـ «إنى وليت هذا الأمر ، وأنا له كاره ، والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وإنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله ﷺ عبدا أكرمه الله بالوحى ، وعصمه به . ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعونى ، فإن رأيتمونى استقمت فاتبعونى ، وإن رأيتمونى زغت فقومونى » .
(أ) ما معنى (كفانيه ـ وعصمه ـ وزغت) ؟
(ب) فى هذه الخطبة على قصرها مبادئ تكفل للحاكم السداد والصلاح . اشرح ذلك بعبارتك .
(ج) قارن بين هذه المبادئ ، وما تباهى به «الديمقراطيات» الحقة فى العصر الحديث .
(د) ما مبعث كراهيته لما وليه ؟ ـ وماذا يريد بقوله (لم أقم به) ؟
(هـ) ما إيحاء (لوددت) ؟ ولم أتبع (إنما أنا بشر) بقوله (ولست بخير من أحد منكم) ؟

٣ ـ (أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) عبارة بالغة الإيجاز تصلح دستورا كاملا ودائما للحكم . اشرح ذلك بشىء من التفصيل .

٤ ـ يرى الكاتب أن تلقيب عمر (أمير المؤمنين) دليل يصدق ما ذهب إليه فى فهم عبارة الصديق (لست بخليفة الله .....) . وضح بأسلوبك .

٥ ـ كانت الوحدة الدينية بداية التطور السياسى فى شبه الجزيرة . ناقش هذه القضية ، وبين صلتها بأحداث الردة .

٦ ـ (أصحاب الحق فى البيعة ـ ما دار فى السقيفة ـ استشارة الصديق أهل مكة ، ومذهبة فى توزيع العطاء ـ معارضة عمر ، واعتراض سهيل عليه) كل هذه عوامل تجاذبت لتكيف النظام السياسى . تناول ذلك بقلمك .

٧ ـ «ويذهب قوم إلى أن التقيد بما أنزل الله فى كتابه يهدر إرادة الشعب ، ويقضى عليها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها ، وأنه يجعل الحكومة الإسلامية ثيقراطيه فى أسها وجوهرها ، وهذا الاعتراض لا مسوغ له » .
(أ) ما معنى (أس ـ ومسوغ) ؟
(ب) اعرض وجهة نظر العبارة بأسلوبك ، ثم رد عليها مؤيدا ردك بالدليل .

(ج) ما الفرق بين (الحكومة الدينية)، ونظام الحكم فى الإسلام؟
(د) لمن حق تحديد ما جاء فى كتاب الله، ومراقبة الحاكم؟ وما ثمرة ذلك؟

٨ - بلغ أبو بكر فى التنزه مبلغا قد يعد ممعنا فى المبالغة. اكتب فى هذا، مبينا مسلكه، وأثره فى حياة الأمة.

٩ - قد يدعى أن استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة ضرب من «الارستقراطية». ادفع هذا الادعاء بالحجة.

١٠ - «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. هذا إقرار صريح بحق الرأى العام فى مراقبته، وإرشاده، وبحق الناس فى العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدف عن أمره. والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هى الإقرار للعصاة بحقهم فى عزل من عصوه، ولا نحسب معنى أبلغ فى تقرير مبادئ الشورى من هذا المعنى».

(أ) ما مرادف (صدف)؟ وما عكس (تقرير)؟
(ب) تتجلى فى العبارة أسس الشورى كاملة، وقد أقرها الإسلام من قديم. وضح بأسلوبك.
(ج) لم وصف النتيجة (بالمنطقية)؟ واعتبر العزل (حقهم)؟
(د) ما أثر الحرب طيلة عهد الخليفة على الشورى فى حكمه؟ وبم تفسر منعه التائبين من المشاركة فى قتال فارس؟

١١ - تضافرت مجموعة من العوامل فى التمهيد للوحدة السياسية ثم ترسيخها ودعمها. تكلم عن ذلك، مبينا فضل الخليفة فى تحقيقه.

١٢ - «الحرية كانت أعز شىء على العربى بدويا كان أو حضريا، وفكرة المساواة متأصلة فى النفس البدوية كانت ولن تزال، وقد زادت تعاليم الإسلام هذه الفكرة قوة إذ سمت بها إلى المساواة التامة أمام الخالق .... فأما الإخاء الذى يتم مع الحرية والمساواة شعار الحكم الشعبى فى عصرنا، فقد بلغ به الإسلام مبلغا ما أشده وضوحا فى قول رسول الله: لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(أ) ما عكس (المساواة - وسمت)؟
(ب) ثلاث دعائم تحقق للحكم إنصاف الحاكم وعزة المحكومين. وضح بأسلوبك فى ضوء العبارة.
(ج) لم نكر (شىء)؟ وماذا أفادت المطابقة فى (بدويا كان أو حضريا)؟
(د) اختلفت فكره الإمبراطورية الإسلامية - أساسا وغاية - عن فكرتها المعاصرة. تكلم عن أسس هذا الاختلاف، موضحا كيف يلتقى الجهاد بمبدأ (لا إكراه فى الدين).

١٣ - (الفكرة الامبراطورية فى الإسلام إنسانية روحية غايتها الأولى تحرير العقل إلى حيث يسمو على كل ضغط وكل اضطهاد). اشرح هذه القضية، مقيما الدليل على أنها كانت واقع الحكم فى صدر الإسلام.

١٤ - وضح موقف الإسلام من الجزية، وكيف أنها لا تعتبر مغرما يفرض أية ذلة.

١٥ - ما وجه الاختلاف بين الإمبراطورية الإسلامية وغيرها من الإمبراطوريات القديمة؟

مرض أبي بكر ووفاته

ما تم في خلافة أبي بكر:

قضى أبو بكر على ردّة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردّة فأشعلت شبه الجزيرة ناراً. ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس، كما تقدم في فتح الشام وساير النصرُ أعلامَه فيها إلى دمَشْق. وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى، وإذا هو يجمع كتاب الله، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين. هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرّت الدين الحنيف في منزل الوحي، ومهّدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل. وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر.

أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجّهان حضارته، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك. هذا أمر لم يسجّل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضي من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة. أما وقد تخطى أبو بكر الستين يوم بويع، فطبيعي أن يهيض[1] هذا المجهودُ قوتَه وأن يعجّل به إلى لقاء ربه.

ولعلك بعد الذي تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تَقْدر هذا المجهود وما كان له من أثر. بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتي من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون. وهذا ما آمن به أبو بكر، ولهذا نقش على خاتمه: «نعم القادرُ اللهُ».

مرض أبي بكر:

كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة؛ وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس.

على أن أبا بكر لم يفتأ في الأسبوعين اللذين قضاهما في مرضه إلى وفاته دائم التفكير في شؤون المسلمين، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولىّ أمرهم. فقد كان قويَّ الشعور منذ مرض بأن أجله جاء، وأنه ملاق ربه. وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له. قيل له يوماً: لو أرسلت إلى الطبيب! فكان جوابه: قد رآني. قيل: فما قال لك! قال: إني أفعل ما أشاء. يشير إلى أنه وكل الأمر لله، وأنه سعيد بقضاء الله، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه.

تفكيره في مصير المسلمين:

وأكثر ما شُغِل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده. لقد ذكر اختلاف المهاجرين

---

(١) يهيض: يكسر.

والأنصار بسقيفة بنى ساعدة حين مات النبى ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته .

استخلف ولم يستخلف الرسول :

فكر فى هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأى وعزم له فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد قُبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة ، وحكمته ألا يظن الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ، فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعدُ على أبى بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمينَ إلا ما كان لأبى بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبى بكر .

مشاورته فى استخلاف عمر :

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأى جميعًا فى عهد النبى ، وقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر بن الخطاب خير من يخلفه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقُل أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرنى عن عمر ابن الخطاب .

ودعا عثمان بن عفَّان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له : يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمانَ بنِ عفَّانَ ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأُسَيْد بن حُضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبى بمشاورات أبى بكر وأنه يريد استخلاف عمر . فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغلظته أن يفرّق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يُهيبوا بأبى بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة بن عبيد الله : «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ !» . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزّه : أجلسونى ! فلما أجلسوه وجَّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : «أبالله تخوّفوننى ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول ؛ اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك» ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : «أبلغ عنى ما قلت لك مَنْ وراءك» .

كتاب باستخلاف عمر :

اطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملاه : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها . حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإنى لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم . والخيرَ أردتُ ، ولا أعلم

الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

نزوله عما أخذ من بيت المال :

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبي بكر وما دار بخاطره أثناء مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يُصلح شؤون المسلمين ، وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يُصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه مُشْفٍ[1] على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قال : « ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لم أصب من هذا المال شيئًا ، وإنّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وجعل يقول : يرحم الله أبا بكر ! لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

أبو بكر يسترد ما وهبه لعائشة :

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضًا بالعالية ، كان النبيّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين . فلما حُضِر وعائشة تمرضه جلس فتشهّد ثم قال : « يا بُنية ، إن أحبّ الناس غِنًى إليّ بعدى أنت ، وإن أعزّ الناس فقراً عليّ بعدى أنت . وإنى كنت نحلتُك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحبّ أن ترديها عليّ فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباها فى ذلك فقال : « ذو بطنِ ابنة خارجة فإنى أظنها جارية » .

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فى هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئًا ، وعلى أن يلقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذه الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر فى الموت وفى الأهبة له ، فأوصى أن يكفّن فى ثوبين له كان يلبسهما وقال : « كفنونى فيهما فإن الحيّ أحوج للجديد من الميت » وقيل إن آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِين » .

وقبض أبو بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره . رحم الله أبا بكر ، ورضى عنه ، وألحقه بالصالحين .

المناقشة

١ ـ إن ما تم فى عهد أبي بكر بعض المعجزات . أكتب فى ذلك مستدلا بما سجله التاريخ .

٢ ـ (نعم القادر الله) لهذه العبارة التى نقشها الصدّيق على خاتمه دلالة عميقة . وضحها .

٣ ـ لم يشغل المرض الصدّيق عن التفكير فى أمر المسلمين ، ومحاسبة نفسه . تكلم عن ذلك وعن دلالته

٤ ـ استخلف أبو بكر ولم يستخلف رسول الله ، وكان ذلك بعض فضل الله وحكمته . وضح ذلك .

٥ ـ كان وراء مشاورته لاستخلاف عمر هدف ، ومنطق يعتمد عليه . تحدث عن ذلك بأسلوبك .

* * *

(١) مشف : مشرف ، ومقارب .

خاتمة

التنقل المحتوم للحضارة :

ذكرت فى تقديم هذا الكتاب أن عهد أبى بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة بل الإعجابَ والإجلالَ . ولعل القارىء الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمَّ خلال هذا العهد القصير من جليل الأعمال ، يرى رأيى فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى مليًّا[1] يستخلص من هذا العهد عبرته البالغة ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلالَ الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدٌّ ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس والروم يومئذ :

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونُظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثّل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . تمتد الأولى من أوربا لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من آسيا لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتدُّ بينهما جدباء جرداء إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حيثما يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتهما وعظمتهما .

الحروب وحق القوة :

أفأعوزت إحداهما أسبابُ العيش فكان ذلك سببَ ما اتصل بينهما من حروب أفنت كلتاهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح بيع السماح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعتين[2] بخيرات البلاد التى تحكمانها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقًّا فى المتاع من نعم الحياة لا تراه لغيرها ، ولا ترى لذلك بأسًا بأن تغصب غيرَها ما فى يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفى متناولها أسباب البطش ؟! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أممًا وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جارُه الكفافَ لنفسه ولذويه ! والقوانين تُشرَّع دفاعًا عن حق القوة . ذلك بأن القوة هى قِوام القانون تنفذه وتلزم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذى تراه لائقًا لمكانتها بين سائر الأمم .

لهذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية .

نهوض الأمة العربية وتغلبها :

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعالهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع

---

(١) مليا : زمنا طويلا .

(٢) مترعتين : ممتلئتين .

أن تنهض . وأنّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة[1] وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشىء دولة ! وأنىَّ لقبائل هذه البادية ـ وكلٌّ ما تعتمد عليه فى حياتها الغزوُ والسلبُ ـ أن تفكر فى حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رُعاةَ الإبل والغنم ، وكان قيصر الروم يصفهم بالحفاة العُراة الجياع . أفمن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمةٌ يعبأ بها الروم أو يهتم لها الفرس ؟ !

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدين فارس والروم ، وحاربتهما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدين بتفوق فى العُدة أو فى العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذى لا يتزعزع .

كيف حدثت المعجزة :

كيف حدثت هذه المعجزة ؟! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ! ! أهى المصادفة التى لا تفسير لها من سُنَنِ الكون ؟! كلا ! فلو أن ما حدث فى عهد أبى بكر أثمرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، لكن ما حدث ، لا يدع مجالا للريب فى أنه كان حتمًا قضت به سنن الكون ، ولذلك اطرد فكانت الحضارة الإسلامية ثمرته . لا مفرَّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر فى قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطانها فى العالم ، واستقرارها فيه دهراً طويلا .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهَرَمُ على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هَرِمت وشاخت دب الفساد إلى كيانها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

عوامل الفساد فى فارس :

أشرت غير مرة فى غضون[2] هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التى كانت تظهر الحين بعد الحين فى فارس وفى الروم . وقد استفحلت هذه العوامل فى القرن السادس المسيحى واشتد خطرها ، فكان من أثرها فى فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس فى جوها ، وتنازع الطامعون فى عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورها . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثِّرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف فى فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ، تريد الحكم تستذل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النّعمة والمتاع . لذلك انحلت العصبية القومية فى الفرس ، وانهارت القوة المعنوية فى نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتع الحياة ولينها . طبيعيٌّ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

وفى حياة الروم :

ولم يكن أثر هذه العوامل فى الإمبراطورية الرومية دونه فى فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب

(١) الماحلة : القاحلة الجرداء .

(٢) غضون : ثنايا .

تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينًا ، وبالنزاع على العرش حينًا آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسْتنيان استطاع أن يردّ إليها أعظم الاعتبار فى نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدلة وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافاها خلفاؤه ولم يكونوا فى مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحى تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . وكان الفرس قد غلبوا الروم ، فلما حانت الفرصة أخذ هرقل بالثار منهم ، ثم حاول أن يزيد سلطانه تثبيتًا بالقضاء على اختلاف الفرق الدينية ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحى وفرضه على الناس فى جميع أنحاء الإمبراطورية . فكان ذلك سببًا فى قيام الثورات واندلاع لهيبها .

ما كان العالم يتطلع إليه :

لم يكن عالم يومئذ يشق بأسباب الحياة المادية ؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تُعْوزه الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً فى حركتهم وفى سكونهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبّلهم بقيود شلَّت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادئ العامة التى تكفل للفرد حريته فى ظل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تُطَوِّر إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطليقة ، بل دخلت القيود مع الفرد داره ومخْدَعه ، وآذته فى يقظته وفى نومه ، فشلّت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى اتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال[1] الرزق من كل طريق ، والتوسل بسَعته وبسطته إلى مكان النبل والجاه ، نبل البطش وجاه الجبروت . وحيثما قُضى على النشاط الحر للعقل الإنسانى ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبدبيب الشيخوخة إلى كيانها .

فالحرية العقلية هى التى طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن يلاحظ وأن يعْلم وأن يبتكر . فلما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعرفت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدرت معانى العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، فتفتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، وظل التطور الإنسانى يتقدّم فى هذه الناحية حينًا ويتراجع حينًا آخر فى جَزْر ومدّ . وفى كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية تراجعه .

قيام النبى العربى :

لم يكن بدٌّ ـ وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم ـ من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام ، وقد شاءت الأقدار فألقت على الأمة العربية فى شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة فى شتّى نواحيها . ولهذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر فى الكون ، نظراً حرًّا من قيود الوثنية والمجوسية

(١) اهتبال : اغتنام .

ومن الجدلِ العقيم الذى هوت إليه المذاهب المتضاربة فى بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة فى منبتها حربًا اتصلت على السنين ، فلم تعرف هوادة ولا صلحًا ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية وبالعقل الإنسانى إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية فى شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسولُ الله ما عند الله .

لماذا يؤذى دعاة الحق ؟

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادئ العدل وسمو الخلق على كل ما يخالفها ، فلم يكن لزعماء الردة فى بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية . وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادئ المترتبة عليه لينتشر سلطانهم وتعظم فائدتهم فى تجارة الحياة ؛ وذلك أننا معشر الناس لما نبلغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته ، والمنافع المادية التى نجنيها من استغلال اسمه . والناس يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويَعْشَوْن دون استجلائه فى جلال كماله ؛ لأن الضمير الإنسانى لا يزال فى طفولته .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتماله إلى ذيوع الحق وانتشار كلمته . وكلما علا صوت الحق اشتد فى حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم . ذلك هو النزاع الذى اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادئ الخالدة ، والذى جعل الحربَ مُسَوَّغةً للقضاء على الباطل وردّ كيده إلى نحره .

طفولة الضمير وآثارها :

والضمير الإنسانى لا يزال قريبًا من طوره الذى كان عليه فى القرن السادس المسيحى . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح فى العراق والشام لتحقيقه . ترتفع الصيحة للحرية وللعدل وللإخاء ، فيلقى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ، ويبذلون حياتهم فداء لها ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، توقع الناس أن تظلهم المبادئ التى قاتلوا فى سبيلها . لكن ما تحقق من هذه المبادئ لم يزد يومًا على طيف . ومن ثَم بقيت الشرور التى شكا الناس منها تثقل حتى اليوم كواهلهم ، ولم تفد مبادئ الحرية والعدل والإخاء من تضحيات الإنسانية إلا قليلا .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنسانى لا يزال أدنى إلى الطفولة . والطفولة كثيرة العثرات . لكن عثرات الطفل لم تصدّه يومًا عن أن يعود فيمشى ليعثر من جديد .

ولقد كانت كبوة فارس والروم من العثرات القاسية التى صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنسانى إلى ناحية نضجه .

استرعى الإسلام سمع الناس :

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فدانوا به لأنه يصور مَثَل الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرا . فهو لا يجعل للناس إلها غيرَ الله ، هم عباده وحدَه جل شأنه ، لا يملك لهم أحدٌ غيرُه نفعًا ولا ضرًّا ، ولا مثوبة ولا عقابًا . وما يصيبهم فى هذه الحياة أو يصيبون فيها يجزيهم

الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا إذن مطمئنين إلى حريتهم ، لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا رأوا منكراً فليزيلوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله نبيه ؟ :

لماذا اصطفى الله نبيه الكريم من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

والذى يهدينا إليه الاجتهاد جوابًا عن هذا السؤال أن حضارة العالم استقرت فى الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحى ، فى مصر وأشور واليونان وورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل الإنسانى بلغ من النضج فى هذه المناطق ما لم يبلغه فى غيرها ، مما يسَّر للضمير الإنسانى أن يستيقظ فيها ويبزغ فجره . ولذلك وجّهت الإمبراطوريتان فارس والروم مصاير العالم فى ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهاتين الإمبراطوريتين أن تهرما كانت شبه جزيرة العرب هى المنْطَقة المستقلة عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا الهَرَم الذى أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن تمتد منهما إلى ما وراءهما . فلا غرو[1] أن يقوم الداعى إلى المثل الأعلى فى أدنى الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرها مع ذلك استقلالا عنهما . فالاستقلال هو الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيَّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالا ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادئ التى يتحقق بها مثلُ الإنسانية الأعلى ، ثم بلَّغ دعوته إلى عاهلى الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه الذين عزّروه[2] فى حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامتثلوه .

أبو بكر ونضج ضميره :

وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادئ ما مكّنه من أن يقيم فى نفسه الحدَّ بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التى يسعى إليها من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيته كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته ولو قام لنصرته وحده .

والطفل يحسب أنه كلما ضج وعلا ضجيجه خضع أبواه لرغائبة وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهذبانه ولايزعجها ضجيجه أذعن وسكن وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردَّة حين ضجوا وحاولوا المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، فقضى على مقاومتهم وعلى ضجيجهم

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام فى فارس والروم بانتشار العرب فى بادية الشام ؛ فقد يسَّروا

---

(١) غرو : عجب

(٢) عزروه : أيدوه .

لأهل شبه الجزيرة أن ينفذوا إليهم ، وأن يتخطوهم لغزو الفرس على شاطئ دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم فى الشام وفى مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التى حدثت فى عهد أبى بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتومًا قضت به سنن الكون التى لا تبديل لها .

إبراز الأقدار ملكات الرجال :

وإذ شاءت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهّدت لها بما رأيت ، وهيأت لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطّون به فى صحف الكون مشيئة القدير الحكيم . فلولا هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثر ماله ، ثم تنطوى صفحته ولم تزد مكانته فى قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرّة ، وعلى احتمال الديات والمغارم .

الإسلام يدعو للمثل الأعلى وللسلام :

لقد طالما تحدَّث من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيَّنت فى «حياة محمد» أن القرآن ينكر حرب الاعتداء فى مواضع كثيرة منه . يقول تعالى : «وقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِين يُقَاتِلُونَكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين» . ويقول : «فَمن اعْتَدَى علَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بمِثْلِ ما اعْتَدى علَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مع الْمُتَّقِين» .

وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأى ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيرُه أن يفتنه عنها .

هذه مبادئ ثابتة فى الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبى بكر دفع المسلمين لحرب الردَّة ولفتح العراق والشام ؟

الصدّيق ينفذ ما جاء فى كتاب الله :

لا شك أن الصدّيق قد نفَّذ فى حروب الردَّة ما جاء فى كتاب الله من قوله تعالى فى سورة براءة : «فإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخوَانُكُمْ فِى الدِّين وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ . وإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بعْدِ عهْدِهِمْ وطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعلَّهُمْ ينْتَهُونَ» . وهو لم يعدُ ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام .

يجب أن يسمع الناس جميعًا دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدَّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . ولن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسيبقى لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوَّاداً عباقرة من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهذيب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك شأن المربى إذ يهذب شذوذ تلاميذه .

أثر الإسلام فى تقدم الضمير :

وإنا لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدَّمَها ضميرُ الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظمُ الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير بِرنارْد شُو تؤيد رأيى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائمًا لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مرية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدُّونه خصمًا للمسيح . أما أنا فأرى واجبًا أن يُدْعَى محمدٌ منقذَ الإنسانية . وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح فى حل مشكلاته ، وأحل فى العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما !

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا فى القرن التاسعَ عشرَ ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وجيبون . بذلك حدث تحول صالح فى موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدمًا كبيراً فى هذا القرن المتم للعشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب فى القرن التالى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قومى ومن أهل أوربا بدين محمد فى الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ »

* * *

رحم الله الصدّيقَ صفيَّ النبيِّ وخليلَه ! لقد كان ضعيفًا فى بدنه ، قويًّا فى إيمانه . وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرّت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكُلَها كل حين بإذن ربها . والذين جاهدوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاءُ الصدّيقين ، وحسُن أولئك رفيقًا .

كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها مَنْ بَعْدَنا أبد الدهر . ومن أحسنُ قولا ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غايته ! .

الدولة الإسلامية
في
عهد أبي بكر
بلاد العرب
الخليج الفارسي
الربع الخالي
(الدهناء)
عمان
البحر الأحمر
النوبة
مصر
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٢٨ / ٨٢

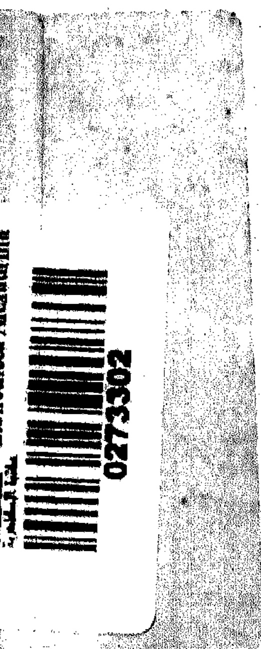
ISBN ٩٧٧ ـ ٠٦ ـ ٩٨٩ ـ ٧



الرقم المرحلي للكتاب

٣ / ٢٦

طبعة ١٩٨٣



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب